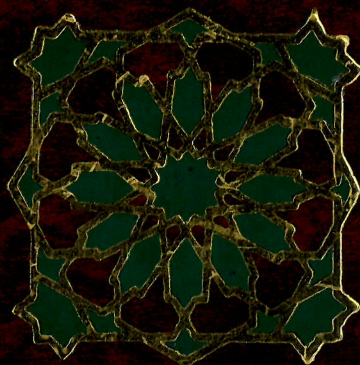
الدعوة إلى الله

في سورة إبراهيم الخليل

تأليف
دكتور محمد بن سيدي ابن الحبيب



الناشر
عبد الله محمد بابا الشنقيطي

الدعوة إلى الله

في سورة إبراهيم الخليل

تأليف

الدكتور محمد بن سيدي بن الحبيب
دكتور وأستاذ مساعد في جامعة أم القرى

الطبعة الثانية

الناشر
عبد الله محمد بابال الشنقيطي


٥ شارع خان جعفر بالجمالية بالقاهرة ت ٩٠٥٨٧١
فيصل عيسى البابي الحلبي
مكتبة ومطبعة
دار إحياء الكتب العربية
تأسست سنة ١٣٣٦هـ سنة ١٩١٨م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝

سُورَةُ فُصِّلَتْ الآية ٣٣

شكر وتقدير

هذا وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو على جميع نعمه عليَّ التي من جملتها دراستي لعلوم الشريعة الإسلامية .

واعترافاً بالفضل والإحسان أقدم الشكر الخالص وبالغ التقدير الكامل لفضيلة الأستاذ المشرف الدكتور (**أبو المجد السيد نوفل**) **على ما** قدمه لي من المعونة والرعاية الشاملة إذ وفر لي من وقته الخاص براحته ما يعادل الوقت المقرر لي من قبل قسم الدراسات بالجامعة الاسلامية مع رحابة الصدر والتوجيهات القيمة والاخلاص فقد وجدت منه عناية شاملة أعانتني على إنجاز هذه الرسالة في الوقت المناسب .

كما أقدم الشكر للمسؤولين عن الجامعة الاسلامية عموماً والمسؤولين عن قسم الدراسات العليا خصوصاً على ما هيئوه لي من مساعدات عظيمة كما أقدم الشكر لجميع المشايخ وكل من ساعدني بتوجيهات وآراء مصيبة .

وأقدم الشكر للقائمين بشؤون المكتبات على ما لقيت منهم من مساعدة في الحصول على المراجع دون تعب وأخص بالشكر الأخ مصطفى عبد الجليل أمين مكتبة الدراسات العليا بالجامعة الاسلامية على ما بذله لي من الجهود العظيمة كما بذله لغيري في الحصول على أي كتاب دون أي تعب .

والله أرجو أن يجزي عني جميع من أعانني وأحسن إلي أحسن الجزاء، وأن يجزي مشايخي خيراً إنه على ما يشاء قدير.

محمد بن سيدي بن الحبيب

المقـــدمـة

بســـــــــم الله الرحمن الرحيـــــــم

الحمـد لله الذي أظهـر دين الاسلام على كـل دين، وأنزل القـرآن على خاتم الأنبيـاء والمرسلين، فرفع به قوماً ووضـع به آخـرين فمن اتبع هـداه كان من السعداء، ومن أعرض عنه كان من الاشقياء وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شـريك لـه إله الأولين والآخـرين وأشهد أن محمـداً عبـده ورسـولـه الـذي اصـطفاه وجعله سيـد أولاد آدم أجمعين، أرسله ليكون رحمـة للعالمين، فبيّن للناس ما نزل إليهم أتم بيان، وأخرجهم من ظلمات الكفـر إلى نور الإيمـان، ورسم للعباد دستور الحياة مدى الزمان.

اللهم صل عايه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بـإحسـان. وبعـد:-

فقد كان من توفيق الله لي أن هيأ لي أسبـاب الالتحاق بقسم الـدراسات العلياءبالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بشعبة الدعوة وكان من الـلازم اختيار مـوضوع لـرسالـة التخصص في الدعـوة (الماجستيـر) فـوقـع اختيـاري على موضوع: (الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل) فرأيت ذلـك المـوضـوع مناسباً لعدة أسباب.

أولا : أن القرآن كله دعوة إلى الله تعالى لأن الدعـوة إلى امتثال أوامـره دعوة إلى الله تعالى.

والدعوة إلى اجتنـاب نواهيـه، وإلى تحريم مـا حرمـه، وإلى إحلال مـا أحله وإلى اتباع ما رسمه من العقيدة والشـريعة، وإلى تـدبر مـا فيه من الـوعد

والوعيد. كل هذا دعوة إلى الله عز وجل. فجميع أساليب القرآن من خبر وطلب لا تخلو عن دعوة إلى الله.

ثانياً : أن سورة إبراهيم التي اخترتها موضوعاً لبحثي قد اشتملت على كثير من أهداف الدعوة إلى الله وأساليبها ووسائلها. كما اشتملت على ذكر عدد من الرسل وأممهم وما جرى بينهم في الدعوة مثل نوح، وهود، وصالح، وموسى عليهم صلوات الله وسلامه ورسل الله هم سلفنا في الدعوة إليه.

وفيها ما يفيد عموم رسالة محمد ﷺ، وخصوصية دعوات الأنبياء السابقة على دعوة الاسلام.

ثالثاً : أنني من خريجي كلية القرآن الكريم والدراسات الاسلامية بالجامعة الاسلامية. ووجهت عند الالتحاق بالقسم إلى شعبة التفسير، وكان من قضاء الله أن الدكتور (مصطفى أبو زيد) الذي كان رئيساً لشعبة التفسير توفي قبل البدء في السنة التحضيرية بقليل فأضطرت الجامعة إلى اغلاق شعبة التفسير إغلاقاً مؤقتاً وأُحلت إلى شعبة الدعوة إذ هي أقرب إلى التفسير، ولقد كنت من صغري مولعاً بعلم التفسير والاطلاع على أقوال العلماء حول فهمهم لكتاب الله، وقد سبق أن تقدمت لي دراسة لبعض كتب التفسير، فمن هنا كان لزاماً علي أن أختار موضوعاً يشترك فيه التفسير مع الدعوة ولم يكن دخولي في موضوع الدعوة في هذه السورة دخول المفسر الذي يبحث عن معاني الالفاظ وإعرابها وتراكيبها والتنبيه على النكت البلاغية، والبحث عن الاحكام الفقهية واستنباطها. . . الخ .

وإنما كان دخولي في هذا الموضوع دخول الداعية الذي يلتمس من القرآن مناهج وأساليب ووسائل وتوجيهات لدعوته.

وباطلاعي على الكتب المؤلفة في الدعوة لم أجد بعض الموضوعات

التي تطرقت لها في هذه الرسالة قد عولجت العلاج الحاسم.

مثل: موضوع عموم رسالة نبيّنا ﷺ من حيث دخول الملائكة والجن ويأجوج ومأجوج فيها بيد أني لطول الموضوعات حاولت الإيجاز غير المخل ما أمكنني ذلك.

ومن أسباب اختياري لسورة إبراهيم من بين سور القرآن كلها، والقرآن كله كلام الله، وكله دعوة إلى الله لأنها تعرضت صراحة لعالمية دعوة الإسلام في مطلعها وفي مختتمها.

ففي مطلعها أخبر نبيّه أنه أنزل عليه القرآن ليخرج به الناس على العموم من الظلمات إلى النور، وفي ختامها أخبر الله أن القرآن بلاغ للناس كلهم وإنذار لهم، هذا مع ما فيها من الحث على العقيدة السليمة، وبيان المنهج السليم الموصل إلى الايمان الحق حيث بينت ضرورة النظر إلى مخلوقات الله تعالى للتوصل بذلك إلى الإيمان بوجود الصانع.

وأيضاً لأنها سورة إبراهيم الخليل وهو ذلكم النبي الذي كان له الباع المتسع والجهد الجبار في الدعوة إلى الله حيث دعا إليه بالقول والعمل والمنطق والتجربة، وقد استعمل معظم أساليب الدعوة ومناهجها، من أسلوب الترغيب والترهيب والمحاجة والحوار والاستدراج وذلك أثناء مواجهته عقائد وثنية، وصابئة، وحكاماً ظلمة، وأجناساً مختلفة، وشعوباً متباينة...

دعا إلى الله متنقلاً، ومقيماً، ومهاجراً، وفي كل حال من أحواله كان دعوة مجسمة حية متحركة.

ولقد كان في إلقائه في النار وإخراجه منها سليماً دعوة إلى الإيمان بالله حيث حفظه من النار فهذا دعوة إلى الإيمان برب إبراهيم من أعظم الدعوات، وفي محاجته للنمرود، وانتصاره وإظهار الحقّ وإبطال الباطل، وابتلائه بالأمر

بذبح ولده وبنائه قبلة المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كل ذلك أمور عملية: الهدف من ورائها امتثال أوامر الله والتوكل عليه وكل ذلك دعوة إلى الله، والله قد جعل سورة إبراهيم بلاغاً للناس وإنذاراً لهم ووسيلة لدفعهم إلى سواء السبيل. ومن هنا كانت موضوعاً لرسالتي.

وكان منهجي في هذه الرسالة كالآتي:

١ ـ أبين معنى الآية التي أذكرها أو الآيات على سبيل الإجمال.

٢ ـ تفسير الآية تفسيراً مفصلاً مع عرض آراء العلماء فيها لاستنباط الدعوة منها وترجيح بعضها على بعض إذا اختلفت ودعت الحاجة ما أمكنني ذلك مرجحاً بالأدلة دون تعصب أو تحيز إلى طائفة معينة ثم أذكر ما في الآية أو الآيات من الدعوة إلى الله تعالى من أساليب ومناهج وأهداف.

٣ ـ كما أنني التزمت في هذه الرسالة أن أبين الآيات القرآنية ومواقعها من سور القرآن بالترقيم.

٤ ـ كما التزمت في منهجي تخريج الأحاديث التي ذكرتها دليلاً على مسألة أريد الاستدلال عليها بالسنة، وربما تركت بعض الآثار التي ترد أثناء كلام بعض المفسرين كابن جرير والقرطبي لأني أجعلها من جملة التفسير، وقد حاولت أن يكون غالب ما ذكرته من الأحاديث في الصحيحين أو أحدهما ولم أستقص المواضع التي خرج فيها الشيخان الحديث بل ربما اكتفيت بموضع أو موضعين منها، وإذا كان الحديث خرجه الشيخان وغيرهما فإنني أكتفي بعزوه إليهما غالباً، وربما ذكرت رواية أحمد له.

أما خطتي في البحث فهي كالآتي:

قسمت هذه الرسالة إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة أبواب، وخاتمة وتشتمل المقدمة على سبب اختياري لموضوع الرسالة دون غيره من المواضيع.

ويشتمل التمهيد على دور الرسل صلوات الله عليهم في الدعوة إلى الله وأنهم الأسوة الحسنة لكل داع، وأن الرسل إنما ورثوا العلم والواجب على العلماء أن يأخذوا بحظهم من هذا الميراث.

ويشتمل الباب الأول على ثلاثة فصول:

الفصل الأول بيّنت فيه ما يلي:

١ ـ تعريف الدعوة لغة واصطلاحاً وذكرت التعريف المختار عندي.

٢ ـ الأمر بالدعوة في القرآن وحكمها، والفرق بين دعوة الاسلام والدعوة إلى الاسلام.

٣ ـ الرأي المختار عندي في فرضيتها.

٤ ـ الدعوة في حقه ﷺ وحق غيره.

٥ ـ الدعوة إلى الله قديمة قدم الأديان باقية إلى يوم الدين.

٦ ـ أهمية الدعوة وشدة الحاجة إليها قديماً وحديثاً.

٧ ـ أهداف الدعوة إلى الله تعالى.

أما الفصل الثاني من الباب الأول فهو في عموم دعوة الاسلام وقد قسمته إلى قسمين:

الأول في خصوص الدعوات قبل دعوة الاسلام ويشتمل على النقاط التالية:

١ ـ معنى العموم والخصوص.

٢ ـ استدلال العلماء على خصوصية رسالة موسى.

٣ ـ النصوص القرآنية الدالة على خصوصية الرسالات قبل رسالة الاسلام.

٤ ـ تفسير الآيات من ٥ إلى ٨ وذكر أقوال العلماء في ذلك وما ترجح لدي منه.

٥ ـ الدعوة إلى الله في تلك الآيات.

وأما القسم الثاني من الفصل الثاني فإنه معقود لعموم رسالة نبيّنا محمد ﷺ وفيه سبعة عشر مبحثاً:

الأول في تعريف القرآن لغة واصطلاحاً.

والثاني في كون القرآن هو المعجزة العظمى لرسول الله ﷺ.

والثالث في الأدلة على إعجاز القرآن.

والرابع في إثبات نص القرآن وحفظه من التغيير والتبديل.

والخامس في أن القرآن كلام الله لا دخل لمخلوق فيه.

والسادس في وجه إعجاز القرآن الكريم.

والمبحث السابع في القدر المعجز من القرآن.

والثامن في بيان تحريف العهدين وتبديلهما وتناقضهما.

والمبحث التاسع في دلالة القرآن على ثبوت رسالة محمد ﷺ.

والمبحث العاشر في الكلام على عمومها بعد ثبوتها.

والحادي عشر في رسالته ﷺ للجن.

والمبحث الثاني عشر: هل رسالته ﷺ شملت الملائكة أو لا ؟

والمبحث الثالث عشر هل بلغت دعوة الاسلام يأجوج ومأجوج أو لا ؟

والمبحث الرابع عشر: في شهادة غير المسلمين بعموم دعوة الاسلام.

والمبحث الخامس عشر في تطبيق المسلمين لعالمية دعوة الاسلام.

والمبحث السادس عشر في أمثلة حيوية من التشريع الاسلامي.

والمبحث السابع عشر في حكم من لم تبلغه دعوة الاسلام من هذه الأمة.

وأما الفصل الثالث من الباب الأول فهو في رد بعض الشبه التي أثيرت

حول عموم دعوة الاسلام، وقد اشتمل على مبحثين:

الأول : في رد شبه أوردها المستشرق (السير وليم ميور) حول عموم دعوة الاسلام قال فيها إن فكرة عالمية رسالة محمد ﷺ طارئة وأن الرسول لم يفكر فيها. . . الخ.

والمبحث الثاني في رد شبهة أوردها (بولس) الراهب أسقف صيدا الأنطاكي قال فيها إن نبي الله محمداً ﷺ لم يرسل إلى النصارى، وإنما أرسل إلى أهل الجاهلية من العرب، وادعى أن في القرآن ما يشهد له بذلك كما ادعى أن العقل يشهد له بدعواه أيضاً. . . الخ كلامه.

وأما الباب الثاني فقد اشتمل على أربعة فصول:

الأول في منهج نوح وأسلوبه في دعوته وبيان المعجزة التي أيده الله بها تصديقاً له.

والثاني في منهج هود وأسلوبه في دعوته وبيان المعجزة التي أيده الله بها تصديقاً له.

والثالث في منهج صالح وأسلوبه وبيان المعجزة التي أيده الله بها تصديقاً له.

والرابع في منهج موسى وأسلوبه في دعوته وبيان المعجزات التي أيده الله بها تصديقاً له.

وأما الباب الثالث فهو في بيان حوار الرسل وأممهم خلال دعوتهم وقد اشتمل على ثلاثة فصول:

الأول : في إثبات وجود الله تعالى وفيه بيان عقيدة الإسلام إجمالاً وفيه أيضاً بيان عقيدة أهل الكتابين وإظهار زيفها وبطلانها.

والفصل الثاني في إثبات بشرية الرسل مهما بلغوا من الكمال.

والفصل الثالث في الربط بين رسالات السماء ومصير المكذبين وفي آخره أيضاً بيان الدعوة في الآيات.

وأما الباب الرابع فإنه معقود لدعوة إبراهيم خليل الرحمن ويشتمل على ما يلي:-

١ - التعريف بابراهيم

٢ - تفسير الآية الكريمة التي ذكر فيها إبراهيم

٣ - تدرجه عليه السلام في دعوته

٤ - مناظرته للنمرود وقوته في المحاجة

٥ - ابتلاءاته عليه السلام أثناء دعوته

٦ - هجرته عليه السلام لنجاح دعوته

٧ - الدعوة في الآيات الكريمة

٨ - إيراد بعض الشبه التي وجهها أعداء الرسل حول إبراهيم وردّ ذلك

٩ - تفسير بقية السورة

وأما الخاتمة فقد لخصت فيها أهم النقاط التي توصلت إليها في هذه الرسالة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

البَـاب الأوّل

[illegible]

الباب الأول

الدعوة إلى الله ودفع الشبهات حولها

تمهيـد

إن لنا في رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم لأسوة عظيمة وقد أخبرنا الله جل وعلا بذلك في كتابه العزيز حيث يقول:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (١)

وقوله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٢)

ورسل الله كانوا جميعاً دعاة إلى الله أرسلهم الله الى خلقه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وقاموا بهذه المهمة التي بعثوا من أجلها فأنقذوا الناس من ظلمات الكفر إلى نور الايمان، ومن الجهل بالله إلى معرفته سبحانه وتعالى، ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق فقاموا بدورهم خير قيام ولكن الرسالة قد انقطعت ولم يبق من لأنبياء إلا ورثتهم

---

(١) جزء من الآية (٤) من سورة الممتحنة.

(٢) آية (٢١) من سورة الأحزاب.

وهم العلماء العاملون فوجب عليهم أن يقوموا بحقهم من هذه المهمة، الدعوة إلى الله التي هي وظيفة مورثيهم وينشروا الدعوة إلى الله بين أفراد العالم ومجتمعاته مسلمه وكافره، يدعون الكافر منه إلى الايمان بالله وبرسوله محمد ﷺ، والمؤمن إلى التمسك بدينه والعض عليه بالنواجذ مقتدين في ذلك برسل الله صلوات الله وسلامه عليهم مستنين بسنتهم مهتدين بهداهم مبشرين من أطاع الله بالثواب منذرين من عصاه بالعقاب مخلصين في دعوتهم لله جل وعلا فقد أمرهم أن يعبدوه مخلصين له الدين، وأخبر تعالى أن الدعوة إلى الله أحسن قول وعمل يتصف بهما الانسان وذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]

ومن هنا لا بد أن أذكر سبب عقدي لهذا الباب، ولماذا بدأت به ؟ فأقول بدأت بهذا الباب لأنه اشتمل على أركان الدعوة الاسلامية الأربعة الداعية، المدعو، ما يدعى به، وسائل الدعوة وذلك من تفسير الآيات الأول من سورة إبراهيم الخليل إذ فيها ذكر أعظم الدعاة وهو محمد ﷺ، وذكر ما يدعو به وهو القرآن، وذكر المدعوين وهم الناس، ويتضمن ما ذكر وسائل الدعوة لأنه ﷺ لا يخرج الناس من الظلمات إلى النور إلا بعد أن يستعمل الوسائل اللازمة لذلك.

وقد قام بذلك في الداخل والخارج أحسن قيام فقد قام بأساليب ووسائل شتى من أساليب الدعوة ووسائلها.

وكانت النقاط البارزة التي دار حولها الباب كما يلي :-

١ ـ تعريف الدعوة لغة واصطلاحاً

٢ ـ حكم الدعوة إلى الله

---

(١) آية ٣٣ من سورة فصلت .

٣ ـ أهميتها وشدة الحاجة إليها قديماً وحديثاً

٤ ـ أهدافهـا

٥ ـ إثبات خصوصية الدعوات قبل دعوة الاسلام

٦ ـ عموم دعوة الإسلام وأدلة ذلك

٧ ـ رد بعض الشبه التي دارت حول عموم دعوة الاسلام

٨ ـ اختلاف العلماء في شمول دعوة الاسلام للملائكة

٩ ـ شمولها للجن وهل للجن رسل منهم أو لا ؟

١٠ ـ هل بلغت الدعوة يأجوج ومأجوج أو لا ؟

١١ ـ ما ترجح عندي من الخلاف في شمولها للملائكة

الفصل الأول

الدعــوة إلى الله

١ ـ تعريف الدعوة لغة واصطلاحاً والتعريف المختار .

٢ ـ الأمر بالدعوة في القرآن وحكمها

٣ ـ الرأي المختار في فرضيتها

٤ ـ الدعوة في حق النبي ﷺ وحق غيره

٥ ـ الدعوة إلى الله تعالى قديمة قدم الأديان باقية إلى يوم الدين .

٦ ـ أهمية الدعوة وشدة الحاجة إليها قديماً وحديثاً والفرق بين دعوة الإسلام والدعوة إلى الإسلام

٧ ـ أهداف الدعوة إلى الله تعالى .

١ ـ تعريف الدعوة لغة واصطلاحاً
والتعريف المختار

تعريف الدعوة لغة : ـ

الدعوة المرة الواحدة من الدعاء واسم الفاعل منها داع تقول دعاه يدعوه فهو داع له وقوله تعالى :

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[١] معناه داعياً إلى توحيد الله وما يقرب منه ، وجمع الداعي دعاة كما يجمع على (داعون) كقضاة وقاضون ، والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة واحدهم داع ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين ، والهاء فيه للمبالغة ، والنبي ﷺ داعي الله تعالى . . . . وفي التهذيب المؤذن داعي الله ، والنبي ﷺ داعي الأمة إلى توحيد الله وطاعته قال جل وعلا في شأن الجن :

﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾[٢] [٣] ودعوة الحق شهادة ألا إله إلا الله [٤] والدعاء إلى الشيء الحث على قصده ومنه قوله تعالى :﴿ قَالَ رَبِّ

---

(١) آية (٤٦) من سورة الأحزاب .

(٢) جزء من آية (٣١) من سورة الأحقاف .

(٣) طالع اللسان العرب لابن منظور جـ ١٤ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ وتهذيب اللغة لأبي منصور جـ ٣ ص ١٢٠ .

(٤) تاج العروس للزبيدي جـ ١٠ ص ١٢٨ .

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾(١)

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ .... ﴾(٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾(٣)

وقوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾(٤) إ. هـ.

ومنه يتبين أن من معانيها في اللغة :-

الدعوة إلى الله تعالى، ودعوة الحق وهي شهادة ألا إله إلا الله، والدعوة إلى هدى أو ضلالة وتطلق على الدعاء إلى الشيء والحث على قصده.

تعريفها في الاصطلاح:

لم أر من القدماء من عرف الدعوة إلى الله في الاصطلاح وقد عرفها بعض دعاة العصر فقال: الدعوة الاسلامية هي: دين الله الذي بعث به الأنبياء جميعاً تجدد على يد محمد ﷺ وخاتم النبيين كاملاً وافياً لصلاح الدنيا والآخرة(٥).

---

(١) جزء من آية (٣٣) من سورة يوسف.

(٢) جزء من الآية (٢٥) من سورة يونس.

(٣) ٤١ - ٤٢ من سورة غافر

(٤) جزء من آية ٤٣ من سورة غافر.

(٥) الدعوة الى الإسلام دعوة عالمية محمد الراوي.

وعرفها أيضاً فقال: الدعوة الإسلامية تبليغ رسالة النبي ﷺ[١] وعرفها آخر فقال: إن الدعوة هي قيام من عنده أهلية النصح والتوجيه السديد من المسلمين في كل زمان ومكان بترغيب الناس في الإسلام اعتقاداً ومنهجاً وتخديرهم من غيره بطرق مخصوصة[٢] وعرفها بعض الباحثين: فقال: هي قيام العلماء والمستنيرين في الدين بتعليم الجمهور من العامة ما يبصرهم بأمور دينهم على قدر الطاقة[٣].

التعريف المختار:

وعرفها رابع فقال هي: برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف. التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين[٤]

التعريف المختار:

وقد استنبطت من بين التعاريف المذكورة تعريفاً هو: أن الدعوة إلى الله هي: قيام من له أهلية بدعوة الناس جميعاً في كل زمان ومكان لاقتفاء أثر رسول الله ﷺ والتأسي به قولاً وعملاً وسلوكاً.

وهذا تعريف يجمع كافة الدعاة كل على قدر طاقته، والمدعوين وأنهم الناس جميعاً والمدعو إليه وهو الاسلام الذي جاء به محمد ﷺ، كما يبيّن عالمية الدعوة وانها في كل زمان ومكان.

---

(١) قال وحكمها الوجوب الكفائي على الجماعة الاسلامية كلها بحيث يجب على الأمة الاسلامية مجتمعة أن تهيىء لها جماعة منها تكون عندها القدرة على الدعوة الاسلامية بالمؤهلات العلمية محمد الراوي المصدر السابق.

(٢) الدعوة الى الله خصائصها مقوماتها مناهجها للدكتور أبو المجد السيد نوفل ص ١٨.

(٣) الدعوة الى الإسلام للدكتور أبو بكر زكري ص ٨ ط مكتبة دار العروبة القاهرة.

(٤) مع الله ص ١٧ الأستاذ / محمد الغزالي ط دار الكتب الحديثة بمصر.

٢ ـ الأمر بالدعوة في القرآن وحكمها

الأمر بالدعوة : ـ

وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بالدعوة إلى الله عز وجل في آيات متعددة من كتابه والأمر له ﷺ أمر له ولأمته كما هو مقرر في محله عند الأصوليين إلا إذا وجدت قرينة تخرجه ﷺ من الخطاب وتصرفه إلى الأمة ، أو تخرج الأمة من الخطاب وتصرفه إليه ﷺ وآيات الأمر بالدعوة لم توجد قرينة تخرج الأمة منها ولا قرينة تخصصها به ﷺ . قال صاحب مراقي السعود في أصول الفقه :

وما به قد خوطب النبي   تعميمه في المذهب السني[1]

---

(١) يعني أن القول المشهور من مذهب مالك تعميم الخطاب الموجه الى رسول الله ﷺ بحيث يشمله والأمة معه أما أبو حنيفة وأحمد رحمهما الله فإن الخطاب للنبي يشمل الأمة عندهما بلا خلاف قالا : لأن أمر القدوة أمر لأتباعه عرفاً ، أما الشافعية فقالوا أنه لا يتناول الأمة لاختصاص الصيغة به طالع نشر البنود على مراقي السعود جـ (١) ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ط مغربية ، والحق مع الجمهور لا مع الشافعية لدلالة القرآن على مذهب الجمهور وذلك في قوله تعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين اليه** ﴾ آية (٣٠) وجزء من آية (٣١) من سورة الروم فإن منيبين حال من الضمير المستتر في قوله أقم المخاطب به النبي ﷺ . والمعنى فأقم وجهك يا نبي الله في حال كونكم منيبين اليه فلو لم تدخل الأمة في حكم الخطاب له ﷺ لقال منيباً اليه بالافراد لإجماع أهل اللسان العربي على أن الحال الحقيقة أي التي لم تكن سببية تلزم مطابقتها =

وعلى كل حال فالله جل وعلا أمر نبيه محمداً ﷺ بالدعوة إلى الله وأمر أمته كذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (٣)

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (٤)

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ...﴾ (٥) وقال تعالى مخاطباً أمة محمد ﷺ

= نصاحبها افراداً وتثنية وجمعاً وتذكيراً وتأنيثاً فلا يجوز أن تقول جاء زيد راكبين ولا جاءت هند ضاحكات أو ضاحكتين . طالع أضواء البيان جـ٢ ص ٥٩ ط المدني فدلت هذه الآية دلالة واضحة على أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمته إلا إذا وجدت قرينة تخرجهم من ذلك كقوله تعالى : ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ جزء من آية (٥٠) من سورة الأحزاب والله تعالى أعلم .

(١) آية (١٠٨) من سورة يوسف .

(٢) آية (٦٧) من سورة الحج .

(٣) جزء من آية (٨٧) من سورة القصص .

(٤) آية (٣٣) من سورة فصلت .

(٥) جزء من آية (١٢٥) من سورة النحل .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ ﴾ (٢)

الآية الأولى: قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني أي قل يا محمد هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الله بالايمان والتوحيد سبيلي، والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان، ثم فسر السبيل بقوله: **أدعو إلى الله على بصيرة** أي أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء أنا ومن اتبعني بعطف من اتبعني على الضمير في أدعو.

وسوغ ذلك التوكيد بكلمة أنا والمعنى: أدعو إليها أنا ويدعو إليها من اتبعني، وسبحان الله أنزهه عن الشركاء وما أنا من المشركين (٣) أما آية الحج فمعناها وادع الناس إلى ربك أي إلى الايمان به وعبادته ودينه إنك على دين واضح قويم (٤) وكذلك آية القصص معناها هو معنى آية الحج إذ فسروها بقولهم أدع إلى معرفة ربك وتوحيده، وأما آية فصلت: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**﴾. فإن المعنى والله أعلم لا أحد أحسن ممن دعا عباد الله إليه وكان هو في نفسه مهذباً عاملاً بما يدعو الناس إليه، وليس من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر

---

(١) آية (١٠٤) من سورة آل عمران.

(٢) جزء من آية (١١٠) من سورة آل عمران.

(٣) طالع الكشاف جـ ٢ ص ٣٤٦ ط دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

(٤) طالع تفسيري الخازن والنسفي هنا.

ويأتونه، والصحيح أن هذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وتشمل المؤذنين لأن المؤذن إذا قال حي على الصلاة فقد دعا إلى الله عز وجل بل دعا إليه بأفضل الطاعات كما قيل إن المراد بهذه الآية المؤذنون فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت، ولهم هذه الآية: ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، قالت فهو المؤذن إذا قال حي على الصلاة فقد دعا إلى الله، وهكذا قال ابن عمرو عكرمة إنها نزلت في المؤذنين، ولكن هذا يرده أن السورة مكية وأن الأذان شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أُرِيَهُ عبد الله بن زيد الأنصاري في منامه فقصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال فالآية في كل من دعا إلى الله وعمل صلحاً وقال انني من المسلمين وعمومها يدخل تحته المؤذنون ولو كانت مشروعية الأذان بعد نزولها لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الاسباب[١] وأما آية النحل: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ... ﴾[٢] فالمعنى كما إمام المفسرين ابن جرير الطبري: ادع يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته، إلى سبيل ربك بقول: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه وهو الاسلام[٣]، بالحكمة يقول بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي ينزله عليك. والموعظة الحسنة يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه وذكرهم بها في تنزيله كالتي عدد عليهم في هذه السورة من حجة وذكرهم فيها ما ذكرهم من آلائه، وجادلهم بالتي هي أحسن يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى

---

(١) طالع تفسير ابن كثير عند الآية.

(٢) جزء من آية ١٢٥ من سورة النحل.

(٣) هكذا قال والظاهر أن المراد عنده بقوله (وهو الاسلام) السبيل المذكور لأن السبيل يذكر ويؤنث كما قدمنا.

ولا تقصر في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك انتهى بلفظه[1].

وأما آية آل عمران الأولى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾[2] فإن معناها كما ذكر العلماء: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم المفلحون أي الفائزون، وقال الضحاك هم الصحابة العلماء المجاهدون، ومعنى الآية أنه يجب على هذه الأمة أن تكون طائفة منها متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجباً على كل مسلم بانفراده على الخصوص كما سأذكره عند بيان حكم الدعوة إن شاء الله تعالى[3] وأما آية آل عمران الثانية التي هي قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ... ﴾[4] فإن معناها أن الله تعالى يخبر عن هذه الأمة بأنها خير الأمم وذكر ما يفيد تعليل ذلك بقوله: ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر .... ﴾ فأمة محمد ﷺ هي خير الناس للناس وأنفع الناس للناس لأنها تقود الناس إلى الخير والفوز الأبدي بدعوتها إلى الحق وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر[5] وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا الإسلام»[6].

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ المصدر السابق.

(٢) الآية ١٠٤ آل عمران.

(٣) انظر تفسير ابن كثير عند الآية.

(٤) جزء من آية (١١٠) من سورة آل عمران.

(٥) طالع تفسير ابن كثير عند الآية.

(٦) صحيح البخاري جـ ٦ ص ٤٧ كتاب التفسير.

هذه نبذة من أقوال علماء التفسير في الآيات ومنها يتضح لنا ما يلي :-

١ ـ الأمر الصريح للنبي ﷺ وأمته إلى يوم القيامة بالدعوة إلى الله تعالى وإلى توحيده والايمان به وعبادته وحده دون سواه. وإلى مكارم الأخلاق والعمل الصالح والقيم الفاضلة . . .

٢ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم ما تقوم عليه الدعوة الإسلامية من الأساليب وكذلك الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

٣ ـ أن لا يتصدى لهذه الدعوة إلا المؤمنون بها الحريصون عليها المتفهمون لها كلاً أو بعضاً حتى تكون دعوتهم على هدى، وبصيرة.

٤ ـ أن هذه الدعوة هي الدعوة الصحيحة الهادية حقاً إلى سواء السبيل لأنها دعوة الحق والداعية إلى الحق والصادرة من الحق تبارك وتعالى والشاملة لكل إصلاح كامل ونظام نافع . . .

وإذا تقرر وجوب الدعوة إلى الله فهل ذلك على سبيل العينية على كل فرد أو على سبيل الكفاية؟ وهل النبي ﷺ مثلنا في ذلك أو لا؟ وهل الأمم قبلنا مثلنا في ذلك أو لا؟

وجواب ذلك فيما يلي :-

حكم الدعوة إلى الله تعالى :-

تقدم لنا ذكر الآيات الدالة على وجوب الدعوة، وذكرنا نبذة من كلام العلماء في معناها، والآن أذكر إن شاء الله حكم الدعوة وهل هي فرض عين أو فرض كفاية ؟ وهل النبي ﷺ كغيره في ذلك أو لا ؟

وهل الأمم قبلنا كانوا ملزمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو لا ؟

اختلف العلماء في حكم الدعوة إلى الله بالنسبة للأمة كلها أو لبعض أفرادها بعد اتفاقهم على وجوبها[1] فقال بعضهم إنها فرض عين على كل مكلف، وقال بعضهم إنها كفاية تأثم الأمة جميعاً بتركها وإذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين، وهذا القول عليه الأكثر.

سبب الاختلاف :

وسبب اختلافهم في هذه المسألة اختلافهم في المراد بـ (من) في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ . . . ﴾[2] قالوافالدعوة إلى الخير تشمل مصالح العباد في دنياهم وأخراهم وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعدها من باب ذكر الخاص بعد العام إيذاناً بفضلهما أو المراد ذكر الدعاء إلى الخير مفصلاً بعد الدعاء إليه مجملاً فلزمت دعوة الأمة لهذا الخير العظيم الذي يشمل مصالح دنياهم وأخراهم فقال البعض إن هذا التبليغ يصح من بعض أفراد المكلفين دون الجميع وقال بعضهم إنه يلزم جميع أفراد المكلفين أن يكونوا دعاة إلى الله، وذلك حسب استطاعتهم، فالذين قالوا إنها فرض كفاية قالوا إن «من» للتبعيض، وقالوا إن الأمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء، والذين قالوا إنها فرض عين قالوا إن (من) لبياد الجنس وأن المعنى : لتكونوا كلكم كذلك، والقول الأول نصره القرطبي في مواضع من تفسيره، وقد قال بعد نقله كلام العلماء في هذا ما نصه: قلت: القول الأول أصح فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية وقد عينهم الله تعالى بقوله: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

---

(١) روح المعاني جـ ٣ ص ٢١ ط ادارة الطباعة المنيرية .

(٢) جزء من آية (١٠٤) من سورة آل عمران .

وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ. . . .﴾[(١)]، وليس كل الناس مكنـوا[(٢)] وقال الألـوسي في روح المعـاني : و (من) هنـا قيـل للتبعيض، وقيـل للتبيين وهي تجريدية كما يقـال: لفلان من أولاده جند، ولـلأمير من غلمـانه عسكـر يريـد بذلك جميع الأولاد ومنشأ الخـلاف في ذلك أن العلمـاء اتفقوا على أن الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر من فروض الكفـايـة ولم يخالف في ذلـك إلا النزر. . . قالوا إنه من فروض الأعيان والذين قالوا إنه من فروض الأعيان قالوا إن الله أثبت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجميع الأمة بقوله: كنتم خيـر أمـة أخرجت للنـاس تأمـرون بالمعـروف وتنهون عن المنكـر، ورد عليهم بـأن الجهاد من فروض الكفايات بالاجمـاع مع ثبـوته بـالخطابـات العامـة[(٣)]. قلت الجمهور من العلماء على أن الـدعوة إلى الخيـر والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية يـأثم جميع المكلفين بتـركها ويسقط عنهم الإثم إذا قام البعض بها ولهذا عد الأصوليون هذا النوع من فروض الكفاية قال صاحب مراقي السعود معدداً فروض الكفاية تحت عنوان (ذو الكفاية):

فروضه القضا كنهى أمر السلام وجهاد الكفر:

فقوله : نهى أمر: المراد بهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر كما بين ذلـك في شرحـه وثبت في السنـة الصحيحـة مـا يـدل على وجـوب الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر على كل مكلف، ففي صحيـح مسلم في بـاب كـون النهي عن المنكر من الايمـان وأن الايمـان يـزيـد وينقص وأن الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكـر واجبان من حـديث أبي بكر بن أبي شيبـة قال: (أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال: الصلاة

---

(١) جزء من آية (٤١) من سورة الحج .

(٢) أنظر القرطبي جـ ٤ ص ١٦٥ ط الثانية دار الكتب المصرية .

(٣) روح المعاني جـ ٣ ص ٢١ ـ ٢٢ المصدر السابق .

قبل الخطبة فقال: قد ترك ما هنالك فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الأيمان» وفيه أيضاً من حديث عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺقال «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف[1] من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل[2]» وحكى ابن عبد البر إجماع المسلمين على وجوب تغيير المنكر على كل من قدر عليه وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا يمنعه من تغييره وزعم ابن العربي أن من رجا زوال المنكر وخاف على نفسه من تغييره الضرب أو القتل جاز له عند أكثر العلماء الاقتحام عند هذا الغرر. وإن لم يرج زواله فأي فائدة عنده؟

قال: والذي عندي أن النية إذا خلصت فليقتحم كيفما كان ولا يبالي[3] قلت هذا التصريح من النبي ﷺ بالأمر بصيغته الصريحة التي هي الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر (فليغيره) مرتباً ذلك على ما في وسع المكلف، واخباره أن ترك ذلك ما وراءه شيء من الايمان وتعبيره بـ «من» الدالة على العموم الشامل لجميع أفراد المكلفين، كل هذا يدل على لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لزوماً عينياً بالاضافة إلى ما ذكره ابن عبد البر من الاجماع على أن تغيير المنكر واجب على كل من قدر عليه، ومع هذا فإن

---

(١) تخلف: أي تحدث والضمير في أنها ضمير الشأن والقصة أنظر تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٧٠ المصدر السابق.

(٣) بواسطة نقل القرطبي جـ ٤ ص ٤٨ المصدر السابق.

مذهب الجمهور مخالف لهذا ولفظ الآية على أن (من) فيه للتبعيض يؤيد مذهب الجمهور، كما يؤيده الفرق الذي جعله علماء الأصول بين فرض العين وفرض الكفاية وهو أن فرض الكفاية يتميز عن فرض العين بأنه لا تتكرر مصلحته إذا فعل، فمثلاً يقولون: إن انقاذ الفريق واجب كفاية فإذا غرق غريق ووجد من ينقذه من البحر فمن غمس في البحر بعد انقاذه لا يحصل مصلحة بخلاف فرض العين فان المصلحة تتكرر من فعله دائماً، قال صاحب مراقي السعود مفرقاً بينهما:

مزه [1] من العين بأن قد حظلا

تكرير مصلحته إن فعلا

وعلى هذا فيتعذر كون النهي عن منكر بعينه فرض عين لأن ذلك المنكر إذا غيره أحد وتغير بالفعل لم يبق هناك شيء مطالب به ذلك المغير مرة أخرى ولا شيء مطالب به غيره، وعلى هذا فلا بد من تلمس جمع بين القولين لأن أعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما، والجمع واجب بين الأدلة متى أمكن.

(١) الضمير في قوله : منزه يرجع الى فرض الكفاية المتقدم الذكر في النظم .

٣ ـ الرأي المختار في فرضيتها

الجمع بين القولين :ـ

والذي يظهر لي في الجمع بين هذين القولين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما من أعظم أسس الدعوة إلى الله تعالى ـ ولا سيما في زمننا هذا ـ ينقسمان إلى قسمين قسم خاص وقسم عام ـ فالقسم الخاص هو الذي يعنيه القائلون بوجوبهما وجوباً عينياً وبيان هذا القسم أن كل انسان راع في رعيته ومسؤول عنها مثل الرجل في بيته مع أولاده وزوجاته وجيرانه وزملاءه في التعليم والعمل والسفر فيجب على كل مكلف أن يأمر أهله وجيرته وزملائه بالخير وينهاهم عن الشر امتثالاً لقوله تعالى :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾(١) وتطبيقاً للأحاديث الكثيرة التي ورد فيها التوكيد على الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ كل فرد لم يتصف بهاتين الصفتين لم توجد فيه صفة الايمان التي وصف الله بها المؤمنين في قوله :﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ .... ﴾(٢)

---

(١) جزء من آية (٦) من سورة التحريم .

(٢) جزء من آية (٧١) من سورة التوبة .

بـل اتصف بصفات المنافقين التي وصفهم الله بها في قولـه : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ .... ﴾[1].

ودخـل في الذم الـذي ذم الله به بني اسرائيل في قـولـه : ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[2] وفي قـولـه فيهم ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[3] ولا ريب أن الغـالب من عامـة المسلمين لا يجهلون الشهادة ولا الصلاة ولا الصيـام ولا معنى الاسلام جملة وذلـك كاف في القيـام بـالدعـوة على هذا النحـو وهو يشمـل العالم والمثقف، والعـامل، والصـانع، ومن دونهم ثقافة وعلمـا.

ومن هنا تكون الدعوة إلى الله فرض عين ويؤيد ذلك ظاهر قولـه تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس. . . ﴾.

فإذا حملنا هذه الأحاديث التي فيها التوكيد بالأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر على خصوص أفراد في خصوص جماعات وأوقات وأماكن كما ذكرنـا، وأوجبنـا عليهم الأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر إيجـابـاً عينيـاً في هـذه الأوقات وهذه الأماكن وهذه المجتمعات الخاصة بكل فرد، وجعلنا (من) في الآيـة معنـاهـا التبعيض كـان المعنى أنـه لا بـد لمن يلي أمـر المسلمين أن يخصص جماعة من علماء الأمة يعرفون مـا يأمـرون به ويـأتونـه، ويعرفـون ما

(١) جزء من آية (٦٧) من سورة التوبة .

(٢) آية (٧٩) من سورة المائدة .

(٣) آية ٦٣ من سورة المائدة .

ينهون عنه ولا يأتونه، وأن يجعل في كل قطر من الأقطار جماعة بهذا الشكل يدعون إلى دين الله وتوحيده وعبادته، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعرفون الحلال والحرام، ويتخصصون في رسم السبل التي تعيد للأمة قوتها ومجدها، وللاسلام مكانته في قيادة الناس إلى الخير.

وإذا قامت هذه الطائفة بالدعوة إلى الله كان من سواهم من الأمة غير آثم بتركه القيام بهذه المهمة لأنها قام بها من هو أهل لها وإن كان ذلك الغير مطالباً بالدعوة في حق أهله وجيرانه كما تقدم، وإن لم يفعل ذلك من يقوم بأمر المسلمين أثم وأثمت الأمة بسكوتهم عنه.

إذا فعلنا ما ذكر فنكون قد جمعنا بين الأقاويل والجمع واجب إذا أمكن. إهـ.

٤ ـ الدعوة في حق النبي ﷺ وحق غيره

الدعوة في حقه ﷺ :

نص العلماء على أن النبي ﷺ ليس كغيره في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقالوا إن ذلك فرض عين عليه، وليس كالأمة في جريان الخلاف في ذلك، هل هو فرض عين أو فرض كفاية ؟ وقالوا إنه لا يمنعه من ذلك خوف لأنه ﷺ لا يقر على باطل ولا يخشى إلا الله سبحانه وتعالى، ولأنه المشرع وأفعاله وتقريراته كلها تشريع لأمته فلا يمكن أن يقر على باطل لم يغيره.

قال خليل بن إسحاق المالكي في مختصره في باب عقده لخصائصه ﷺ: « وتغيير المنكر » يعني تغيير المنكر مما يختص به هو دون الأمة، لأن الأمة إذا خافت من المأمور أو المنهي ربما سقط عنها الأمر، أما هو فإنه لا يخشى إلا الله جل وعلا، وقد عصمه من الناس بقوله: ﴿ ... وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ... ﴾[1].

وقال شارح المختصر المذكور الحطاب: قال القرطبي: يجب عليه ﷺ إذا رأى منكراً أنكره وأظهره، لأن إقراره لغيره على ذلك يدل على جوازه وذكره صاحب البيان. إهـ.

---

(١) جزء من آية (٦٧) من سورة المائدة .

ثم قال: فيكون وجه الخصوصية أنه[1] كان عليه ﷺ فرض عين و، يشترط فيه ما يشترط في حق غيره من أمته على نفسه وظنه تأثير ذلك والله أعلم.

نعم قيده الغزالي في الاحياء بما لم يعلم أو يظن أن فاعله يزيد فيه عناداً، وقال الشيخ جلال الدين الأسيوطي[2] في النموذج اللبيب في خصائص الحبيب.

لما عد من الواجبات تغيير المنكر قال:

ووجه الخصوصية فيه من وجوه:

١ ـ أنه في حقه من فرائض الأعيان، وفي حق غيره من فرائض الكفايات، ذكره الجرجاني في الشافي.

٢ ـ أنه يجب عليه إظهار الإنكار، ولا يجب الاظهار على غيره، ذكره صاحب الذخائر.

٣ ـ أنه لا يسقط عنه للخوف، فإن الله وعده بالعصمة بخلاف غيره ذكره في الروضة.

٤ ـ ولا إذا كان المرتكب يزيده الإنكار إغراء لئلا يتوهم إباحته بخلاف سائر الأمة، ذكره السمعاني في القواطع، وهذا الأخير مخالف لما قاله

---

(١) الضمير في أنه راجع الى تغيير المنكر.

(٢) هكذا ضبطوه بضم اللام وسكون السين نسبة الى أسيوط بلدة بمصر من الريف الأعلى بالصعيد ومنهم من يسقط الألف فيقول سيوط والمشهور بهذه النسبة أبو علي الحسن بن علي بن الخضر بن عبد الله الأسيوطي ومنهم من يقول: ابن السيوطي، توفى في جمادى الأخيرة سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة. انظر اللباب في تهذيب الأنساب لعز الدين بن الأثير الجزري جـ ١ ص ٦١ ط دار صادر بيروت.

الغزالي ـ انتهى كلامه[1].

قلت: كلام السمعاني الذي نبه الحطاب على أنه مخالف لكلام الغزالي الظاهر أن الحق مع السمعاني لأن النبي ﷺ مشرع وأصحابه يبالغون في الإقتداء به واقتفاء أثره ومراقبة أفعاله وأقواله فإذا سكت على منكر ربما ظن الحاضرون أن ذلك المنكر مباح، وهو في الحقيقة غير مباح، بل هو منكر، فالذي يتناسب مع عظمته عليه السلام أنه لا يمنعه أي مانع تغيير المنكر، لأنه الأسوة لنا، وهو ﷺ لا يقر باطل يتوهم من إقراره عليه أنه مباح، وهو يعلم أنه حرام والله تعالى أعلم.

ويؤيد ما قلته ما ذكره علماء الأصول من أن النبي ﷺ إذا رأى منكراً وسكت عنه فهم من ذلك السكوت جواز ذلك الفعل الجواز الشامل للوجوب والندب والإباحة، فتنقلب أحكام الشرع ويصير المنكر حسناً، قال صاحب مراقي السعود في كتاب السنة مشيراً إلى هذه المسألة:

فالصمت للنبي عن فعل علم ... به جواز الفعل منه قد فهم

قال شارحه ومؤلفه: يعني إذا ثبتت العصمة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام علم أن سيدنا محمداً ﷺ لا يقر أحداً مميزاً ولو غير مكلف على باطل من فعل أو قول أو اعتقاد، لأن الباطل قبيح شرعاً وإن صدر من غير المكلف، ولا يجوز تمكين غير المكلف منه، وإن لم يأثم به، ولأنه يوهم من جهل ذلك الفعل جوازه، بل لا يبعد أن المكروه وخلاف الأولى كذلك. . . وإنما كان ﷺ لا يقر على باطل كغيره من الأنبياء لا يقرون على باطل لوجوب تغيير المنكر عليهم مطلقاً، ويسقط عن غيرهم إذا خاف على نفسه، وإذا كان الأمر كذلك فإذا فعل أحد فعلاً وعلم به النبي ﷺ برؤية أو غيرها علم منه جواز ذلك

---

(١) طالع مواهب الجليل شرح مختصر خليل للحطاب جـ ٣ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ ـ ط أولى ـ السعادة.

الفعل في حق الفاعل وغيره، لأن الأصل استواء الناس في الاحكام حتى تثبت الخصوصية... والجواز المدلول عليه بالسكوت يحتمل الإباحة والندب والوجوب، وحمله بعضهم على الإباحة فقط[1].

(١) طالع نشر البنود شرح مراقي السعود جـ ٢ ص ١٢١ - ١٢٢ المصدر السابق.

٥ ـ الدعوة إلى الله قديمة قدم الأديان، باقية إلى يوم الدين:

والظاهر من نصوص الكتاب والسنة أن الأمم قبلنا كانوا ملزمين بتغيير المنكر كإلزامنا بذلك، وقد قدمنا حديث مسلم الدال على ذلك من رواية عبدالله بن مسعود حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره؛ ثم أنها تخلف من بعد خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل».

وفي القرآن الكريم ما يدل على ذلك، وذلك في قوله جل وعلا من سورة المائدة منكراً على بني إسرائيل عدم تغييرهم للمنكر وسكوت ربانييهم وأحبارهم عليه وذاماً لهم على ذلك ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

وقال تعالى في هذا المعنى أيضاً: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ

---

(١) آية (٧٨) (٧٩) من سورة المائدة، وتقدم تخريج الآية التي بعدها.

عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾[1].

وقال تعالى في شأن بني اسرائيل أيضاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾[2].

وقد دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانا واجبين على الأمم المتقدمة، وهما فائدة الرسالة وخلافة النبوة.

ويروي القرطبي في تفسيره أن الحسن قال:

قال النبي ﷺ: « من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة كتابه »[3].

وأقول[4]: إن هذه الآيات التي ذكرنا، والآثار، وأقوال العلماء، كل هذا يدل على أن الأمم المتقدمة علينا كانت يجب عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يجب علينا.

وإذا رجعنا إلى القرآن وجدنا نوحاً، وإبراهيم، وهوداً وصالحاً،

---

(١) آية (٦٣) من سورة المائدة .

(٢) آية (٢١) من سورة آل عمران .

(٣) القرطبي جـ ٤ ص ٤٧. المصدر السابق .

(٤) وقد قال قبل هذا الكلام : كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تجيء الى بني اسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم ، فيقوم قوم ممن اتبعهم فيأمرون بالقسط أي بالعدل فيقتلون ، وقد روى عن بن مسعود قال : قال النبي ﷺ : « بئس القوم ، قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، بئس القوم ، قوم يمشي المؤمن بينهم بالتقية » . وروى أبو عبيدة ابن الجراح أن النبي ﷺ قال : « قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عباد بني اسرائيل فأموروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم ، وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية . اهـ .

وموسى، وعيسى، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين كانوا يقومون بالدعوة إلى الله تعالى بين أقوامهم ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، ويهدونهم إلى سواء السبيل، فالدعوة إلى الله تعالى أمر قديم قدم الأديان، ولولا الدعوة لما بلغت رسالة؛ ولا عبد الله في الأرض على النحو الصحيح.

كما أن الدعوة إلى الله باقية بقاء الإنسان، إلى يوم القيامة...

٦ ـ أهمية الدعوة وشدة الحاجة إليها
قديماً وحديثاً

والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من الأهمية بمكانة لا تدرك، وكيف لا ؟ وهي وظيفة النبيين والمرسلين وعباد الله الصالحين، كما قدّمنا، فهي من الأمور التي لا غنى للبشرية عنها قديماً وحديثاً، فدعوة الرسل عليهم الصلاة والتسليم تنقذ الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، ودعوة غير الرسل من علماء الأمة تبين للعباد معالم الدين ومزاياه، وتوضح لهم ثمرة الإيمان بالله التي هي سعادة الدارين، وتدعوهم إلى التمسك بمبادئه وتنهاهم عما ينكره الشرع وتأمرهم بمعروفه على ضوء ما جاءت به الرسل من عند الله، فدور الدعاة غير الرسل لا يقل أهمية عن دور الرسل، ولم يزل الناس قديماً وحديثاً محتاجين إلى الدعوة ولا سيما في عصرنا هذا الذي شاع فيه الالحاد وانتشر في أقطار المعمورة، وعم بلاد المسلمين بحيث صار فيها المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، وذاع القول بإنكار الخالق سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، وفشا القول بخلق الطبيعة، فالحاجة إلى الدعوة الآن لا تقل أهمية عن الحاجة إليها زمن بعثة الرسول ﷺ، فالناس قبل بعثة نبينا ﷺ كانوا فاقدي الأخلاق، في غاية السذاجة والانحلال والاباحية، تعمهم الفوضى، عيشهم السلب والنهب، يعبدون الأحجار والأشجار والكواكب وغير ذلك، يصنعون تماثيل بأيديهم ويعبدونها، ثم بعد مدة يتركونها ويصنعون غيرها، ويعبدون ذلك الغير برهة أخرى من الزمن، وهكذا .

وكان من عادات العرب أن الرجل يتزوج بزوجة أبيه إذا مات، ويرثها إرث المال، وكانت المرأة يكون لها عشرة رجال يتوافدون إليها للزنا والعياذ بالله، فإذا حملت لحقت حملها بمن تختاره منهم، فقد ذكر العلماء أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ... ﴾[١]. أنه لما توفى أبو قيس بن الأسلت خطب ابنه امرأته فاستأذنت رسول الله ﷺ في ذلك، فقال: «ارجعي إلى بيتك» - فنزلت الآية[٢].

وقد اتخذت بنوا حنيفة صنماً من حلوى فعبدوه دهراً طويلاً، ثم أدركتهم مجاعة، فأكلوه - وفيهم يقول الشاعر:

أكلت بنو حنيفة ربها   زمن التقحم[٣] والمجاعة
لم يحذروا من ربهم   سوء العواقب والتباعة

وقال فيهم آخر:

أكلت ربها حنيفة من جو   ع قديم بها ومن اعواز

وقد كانت العرب قبل الإسلام طوائف متنازعة، وقبائل متباغضة، وذوي ديانات مختلفة متنافرة متعادية، وكانوا نحلاً متحاسدة... إلى غير ذلك من مساوئهم، وكذلك اليهود والنصارى كانوا في غاية التنافر والتحاسد والتباغض

---

(١) جزء من آية (٢٢) من سورة النساء.
(٢) وقد تزوج أبو قيس هذا المذكور زوجة أبيه أم عبيد الله كانت تحت أبيه الأسلت، وتزوج الأسود بن خلف زوجة أبيه ابنة أبي طلحة العبدرية، وتزوج عمرو بن أمية زوجة أبيه فولدت له أولاداً، وهذا كان كثيراً شائعاً في العرب.
انظر: أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن جـ ١ ص ٢٧٧ - ط المدني.
(٣) أي زمن الشدة والقحط - القاموس المحيط - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي - مادة (قحم).

والاختلاف في الأديان، كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه في قوله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ . . . ﴾[1] .

وقال في شأن ديانتهم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ . . . ﴾[2] .

هذا ولم تكن الحالة السياسية بأقل اضطراباً في ذلك العهد من الحالة الدينية والاجتماعية، فقد أدى اختلاف القبائل إلى تفككهم وذهاب وحدتهم، فكانت أطراف الجزيرة العربية لقمة سائغة للمغيرين الأجانب، فقوي نفوذ الأكاسرة في الحيرة وما حولها، وظهر سلطان الروم في الشام، ودخل الأحباش والفرس بلاد اليمن، وكانوا يتقوون بأنصارهم من العرب على أعدائهم، فكان العربي يعادي أخاه العربي ويقاتله ويريق دمه لا لسبب سوى الانتصار لسادته الأجانب، هذا ولم تكن البلاد الأخرى بأقل شأناً من بلاد العرب، فقد كانت تسودها الفوضى والاضطرابات دينياً وخلقياً واجتماعياً .

فالامبراطورية الرومانية كانت في القرن السابع الميلادي متفككة الأوصال قسمت سنة ٣٩٥ م إلى امبراطوريتين: شرقية ـ عاصمتها القسطنطينية، وغربية ـ عاصمتها رومية، وقد ضعفتا بسبب تنازع الأحزاب السياسية والفرق الدينية واختلاف ولاة الأمر .

ولم تكن الامبراطورية الفارسية بأقل حظاً من جارتها قبيل البعثة في الفساد، فقد كانت في حروب دائرة داخلية وخارجية، وكانت تنافس

---

١) جزء من آية (١١٣) من سورة البقرة .

(٢) جزء من آية (٣٠) من سورة التوبة .

الامبراطورية الرومانية عبدة المسيح، وينهبون أموالهم ويأسرون رجالهم ويحملونهم إلى بلادهم، وأحياناً تدور الدائرة على الفرس فيغلبهم الروم ويقتلون منهم ويأسرون ويخربون ديارهم[1] .

ويصف بعض الباحثين العالم قبل الإسلام فيقول :

كان العالم قبل هذا النبي مملوءاً بغيوم الاضطرابات والفتن والقلاقل، ففي انجلترا كان (الأنجلو) ينازعون السكسونيين، وفي فرنسا كان أولاد (كلوفيس) متخاصمين متحاربين .

أما في إيطاليا فكان اسم الرومان وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد هيبته القديمة، وكانت روما هي رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم تترنح وتضطرب كلما ألمت بها طائفة من ذكريات عظمتها الراحلة .

أما في أفريقيا فكان اليونانيون والرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام دائبين على امتصاص دم مصر ساعين في جعلها كالجثة الهامدة لا حس فيها ولا حركة .

وخلاصة القول: كان العالم مضطرباً إلى حد كبير، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر والبطش أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير والإخاء . . .

أما الوثنيون فكانوا يمثلون السواد الأعظم من أهل البلاد، وكان لكل قبيلة منهم على اعتقادهم آلهة خاصة بهم، وكانت لهم آلهة من الملائكة والجن والكواكب، كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ويتوسلون بهم عنده، وكان منهم من يعبد الكواكب فكنعان كانت تدين للقمر، وكانت حمير تعبد الشمس، وكان بنو لحم يسجدون للمشتري . . . وهكذا، وكان العرب مغرمين بشرب الخمر ولعب الميسر،

---

(١) الاسلام ـ ظهوره وانتشاره ـ حامد عبد القادر ص ٧٢ ـ ٨٤ بتصرف ـ ط مكتبة نهضة مصر .

وكانت من عادتهم أن يتزوج الرجل بقدر ما تسمح به أحواله المعيشية والمالية.. وكانت الأرملة تعد من ضمن ميراث زوجها ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب، الأمر الذي حرمه الإسلام وعده زواجاً ممقوتاً، وكانت المرأة عندهم متاعاً يقتنى وسلعة تباع وتشترى، ولا يهم الرجل ما يصيب الأسرة من تفكك وانحلال وانهيار، وكان الزوج إذا بشر بالأنثى توارى عن أهله حياء وخجلاً(١).

وقد جاء الإسلام الحنيف فأصلح العالم في عقيدته، وفي سياسته وفي اجتماعه، وفي أخلاقه، ووفر له الأمن ودله على سبل الخير ونصر المظلوم، ووقف في وجه الظلمة المعتدين، ونشر ألوية الحق والعدل، وجعل من العرب الممزقين الآثمين اللاهين الضعفاء المنبوذين أمة قوية الجانب ذات إرادة صلبة وعزيمة قوية، وذات بنيان متين أسس على التقوى والتوحيد والعدل والعمل الصالح... فانطلقت بالإسلام شرقاً وغرباً تجاهد في سبيل الله وتنشر الحق وتفلق هام الباطل أنى وجدته فقضت على الوثنية العربية وعلى المجوسية الفارسية، وعلى الطغيان الصليبي الروماني، وأعادت إلى الناس الأمن وحققت فيهم العدل وأخرجتهم من الظلمات إلى النور، وما ذلك إلا بفضل الدعوة الاسلامية وإخلاص الدعاة في سبيل الله تعالى، هذه الدعوة التي أعادت للإنسان كرامته رجلاً كان أو امرأة، ودفعته إلى العمل النافع، فانطلق على هدى، يقيم المدنيات ويشيد الحضارات على أمتن الأسس وأفضلها.

هذه الدعوة التي حققت المجتمع الفاضل المتعاون على الخير والبر والمتحاب على التقوى والفلاح، والذي جعل مقياس الانسان فيه بالتقوى والعمل الصالح: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...﴾(٢)

---

(١) نبي الإسلام - عز الدين فراج ص ٥ - ٧.

(٢) جزء من آية (١٣) من سورة الحجرات.

والذي جعلت فيه المرأة ذات شأن خطير فكانت وظيفتها تربية لبنات الأمة والسهر على تنشئتها التنشئة الصالحة، وأسست النظم السياسية التي تحقق الأمن والعدل والحرية، والنظم الاقتصادية التي تحقق للناس التعاون على البر والتقوى لا على الربا والعدوان، والنظم الاجتماعية التي أقيمت على الالتزام بالحقوق والواجبات التي فرضها الإسلام بين الآباء والأبناء والأقارب والجيران، وبهذا صارت للإسلام أمته العظيمة التي نشرت العلم والعمل في كل مكان .

وإذا قارنا بين أحوال العالم قبل دعوة الإسلام وبين أحواله الآن في عالمنا الذي نعيش فيه وجدنا تقارباً كبيراً بين حالنا وحالهم .

فإلا يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمه بلبانها[1]

فكل ما ذكر عن العالم قبل الدعوة الاسلامية من الإضطرابات والانحلال والتقليد الأعمى والتباغض والتحاسد والاختلاف في النزعات الدينية وفساد الأخلاق الاجتماعية، وغير ذلك مما تقدم ذكره إذا قارنا بينهما وجدنا كل ما في ذلك موجوداً في عالمنا اليوم مما يؤكد الدعوة إلى الله تعالى ويبين شدة حاجة الناس إليها، لأن العالم اليوم ينقسم إلى أربعة أقسام: شيوعيين ملحدين، وأهل كتاب، ووثنيين، ومسلمين - فالأقسام الثلاثة الأول بغض النظر عن الوثني والشيوعي والكتابي الجميع كفار محتاجون إلى من يدعوهم إلى الله عز وجل لينقذهم من الظلمات إلى النور، فأهل الكتاب محتاجون إلى من يفهمهم أنهم ملزمون باتباع شريعة محمد ﷺ، وأن

---

(١) قائلة أبو الأسود الدؤلي يخاطب مولى له يشرب الخمر يندبه الى تركها ويخبره أن النبيذ يقوم مقامها فإن لم يكن خمراً فإنه أخوها .

انظر : شرح العيني للشواهد مع الأشموني جـ ١ ص ٧٧ - ٧٨ ط أولى - دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه .

تمسكهم بشرائع بني إسرائيل لا ينفعهم ويفهمهم بأسلوب حكيم أن من كفر بنبي واحد من أنبياء الله فقد كفر بجميع الرسل، ويوضح لهم أن هذه الكتب التي بأيديهم يعتمدون عليها ويقدسونها ليست من عند الله، وإنما هي من صنع البشر، لأن الكتب التي أنزلها الله على أنبيائهم ضاعت على أسلافهم وأضاعوا ما بقي منها بأيديهم، وحرفوه وبدلوا فيه واشتروا به ثمناً قليلاً ـ كما سيأتي إن شاء الله تعالى ـ والحاصل أنهم محتاجون إلى من يدعوهم إلى الدخول في دين الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة بحيث تدعوهم دعاة مهرة حذقون يعرفون ما يدعون إليه، وكيف يدعون يبينون لهم أولاً محاسن الإسلام وسماحته ومساواته للناس في الحقوق وما فيه من الحرية الحقيقية والمساواة الكاملة وما فيه من اللين والتيسير ورفع الآصار.. إلى غير ذلك من محاسنه التي لا تحصى فإذا عقلوا سماحة الإسلام ورأوا دعاة عاملين بما يدعون إليه يأتون ما يأمرون به ويتركون ما ينهون عنه هان عليهم عند ذلك الدخول في الإسلام إذا دعوا إليه، لأن الخلق مجبول بالطبيعة على العبادة والناس لا يتركون شيئاً كانوا يعبدونه إلا إذا عوضوا شيئاً يفضلونه عليه وأما الشيوعيون الملحدون فإنهم في أشد الحاجة إلى من يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم بطلان ما هم عليه برفق وسهولة ويقيم لهم الأدلة النقلية بعد العقلية على وجود الله تعالى، وأن هذا العالم ما خلق عبثاً ولا باطلاً وأنه لا بد له من موجد ولا يمكن وجوده صدفة ولا يمكن أن توجده الطبيعة لأن الطبيعة مخلوقة، والمخلوق لا يوجد المخلوق، كما يحتاجون إلى من يقيم لهم الأدلة على إحياء الأجساد بعد موتها، ويبين لهم ذلك بالأدلة العقلية بعد النقلية أيضاً ويوضح لهم أن القادر على البدء قادر على الاعادة من باب أولى ويخبرهم أن كل انسان كائناً من كان لا بد أن يلقى جزاء عمله بعد موته إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

أما الوثنيون فيحتاجون كذلك إلى الدعوة إلى الله ولا بد لهم من دعاة

علماء يبينون لهم حقائق الوثنية، وأن الله جل وعلا هو الذي يستحق أن يعبد وحده، وأن الأحجار والأشجار والبقر والكواكب لا تضر ولا تنفع، فإن من بيده الضر والنفع ـ وهو الله تبارك وتعالى ـ هو الذي يستحق العبادة وحده .

وأما المسلمون فإنهم أشد حاجة إلى الدعوة في نظري من الأقسام السابقة، وذلك أن الكثير من المسلمين انحرف عن طريق الاسلام والتخلق بأخلاقه والتعلم بتعاليمه والتأدب بآدابه إلا من رحم الله فالغالبية من المسلمين جهلاء بالإسلام لا يعرفون منه إلا اسمه، ولا يفهمون منه إلا بعض أشكاله وصوره، فهم بين عبدة أضرحة، وعبدة أشخاص موزعين بين طوائف شتى، وطرائق قددٍ، وبين عبدة أصنام آدمية ينحنون لها ويركعون، وبين أتباع ومقلدين لمشايخ وعلماء لا يتبعون ما صح في الدين ولا ما ثبت عن سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ـ فهذا حالهم: جهل وضلالة، وضعف وتأخر . أما مثقفوهم فإذا علموا شيئاً فعن غير الإسلام، وإذا اتبعوا شيئاً فهو ما يأتي به أعداء الإسلام من المستعمرين .

والكثير منهم اجتاحته الشيوعية الماركسية وصار يحسب على الإسلام والمسلمين وهو بعيد من ذلك بعد الشمس من اللمس .

وكثير اجتاحته الحضارة الغربية وصار يهزأ ويسخر من المسلمين المتمسكين بالدين الحنيف ويعدهم رجعيين متأخرين متزمتين .

هكذا حال الكثير من المسلمين، وهناك البقية المتمسكة بدينها الحنيف وبمبادئه القيمة وأخلاقه السامية، بيد أنه يخاف عليها وهي محاطة بهذه الأجواء الداكنة فتحتاج هي وغيرها احتياجاً ملحاً إلى الدعوة إلى الله ليرجع الجميع إلى دينهم الحنيف ويفهموا حقائقه ويعلموا أنه دين الحق ولا دين سواه: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ... ﴾[1] .

---

(١) جزء من آية (١٩) من سورة آل عمران .

إن المسلمين اليوم في حاجة إلى من يبصرهم بأمر أعدائهم وتآمراتهم ضدهم . . .

إذا علموا هذا كله تبينت لهم حقائق أعدائهم شرقيين كانوا أو غربيين، ومدى عداوتهم للإسلام والمسلمين، وعلموا أن الحضارة الغربية مادية بحتة تقوم على جمع المال من الربا والغش والدعارة وغير ذلك من الوسائل المذمومة وهي بعيدة كل البعد عن القيم الرفيعة والروحية الخالصة، وعلموا أن الشيوعية تقوم على الالحاد وانكار الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فعندئذ يقفون على كيدها وخداعها للإسلام .

وقد ظهر من هذا العرض السريع لأحوال العالم الآن وأحواله قبل الدعوة الإسلامية، وفي أولها أن حاجة الناس اليوم إلى الدعوة لا تقل عن حاجتها إليها حين قام بها نبينا محمد ﷺ والرعيل الأول من هذه الأمة بعده .

دفع شبهة :

يقول بعض المعاصرين إنه لا جدوى من الدعوة إلى الله اليوم بعد أن عم الفساد وامتلأت الحياة بالزور والآثام، وختم على قلوب الناس وأبصارهم فما عادوا يعرفون الحق، ولا تؤثر فيهم العظة ولا تستقبل قلوبهم النصيحة، فطبائعهم هي طبائعهم، وغرائزهم هي غرائزهم، ولا ينفع فيهم وعظ ولا تجدي فيهم دعوة .

ولا ريب أن هذه وجهة نظر خاطئة تنظر إلى الإنسان نظرة تشاؤم ولا تقوم على أسس صحيحة إذ أنه لو ترك الانسان على ما هو عليه من الشر والفساد لعم هذا الفساد والشر حتى يتحول العالم إلى غابات محترقة .

فالتوهين من أمر الدعوة هو سبيل الفساد والافساد، وسبيل هلاك الانسان والمجتمعات، وهو مخالف للدين الحنيف الذي أمر بالدعوة حتى قيام الساعة

ومخالف للواقع والتاريخ ، فلن يخلو العالم من احتياجه إلى الدعوتين : دعوة الإسلام ، والدعوة إلى الإسلام .

الفرق بين دعوة الإسلام والدعوة إلى الإسلام :

ولا شك أن هناك فرقاً كبيراً بين الجملتين (دعوة الإسلام) و (الدعوة إلى الإسلام) ، فالأولى هي مبادىء الإسلام ومحتوياته من العقيدة والشريعة والعبادات والمعاملات والنظم . . . الخ وهذه هي دعوة الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه يأتون الناس بالشرائع ويعلمونهم العقيدة ومبادىء الدين ويبينون لهم الحلال والحرام .

أما الدعوة إلى الإسلام فهي الدعوة إلى هذه المبادىء والعقائد والنظم والشرائع التي أسسها الإسلام على ألسنة الدعاة من الرسل .

فالأولى شرح وبيان وتفصيل للإسلام نفسه ، والثانية دعوة الناس إلى هذه المبادىء .

ولا ريب أن كل داعية إلى الإسلام يتعرض تلقائياً لبيان الإسلام وشرحه ، وإذاً فبين الجملتين تشابك وارتباط وثيقان ، وعليه فيجب على المسلمين أن ينهضوا خفافاً وثقالاً ويقيموا دعاة من خيار هذه الأمة علماء أتقياء نصحاء يدعون هذا العالم كله إلى دين الله .

يدعون أهل الكتاب للإهتداء بالقرآن الكريم الذي أمرتهم كتب أنبيائهم أن يتبعوه .

ويدعون الوثنيين إلى الدخول في الإسلام ويبينون لهم حقائق الجمادات وأنها لا تنفع ولا تضر .

ويدعون الشيوعيين الملحدين إلى التخلي عما هم عليه من الالحاد ولا ييأسوا من دعوة الجميع ولا يسأموا ، ويدعون المسلمين المنحرفين إلى

الرجوع إلى دينهم والانابة إليه والتوبة مما سلف منهم من الذنوب ويدعون المسلمين المتمسكين بدينهم الحنيف إلى العض عليه بالنواجذ حتى يأتي نصر الله .

ولا شك أن أحوال الناس تختلف بعد الدعوات الإصلاحية عما كانت عليه قبلها، كما أنه لا يشك أحد في ضعف العرب وشيوع المنكرات فيهم وعبادتهم الأوثان قبل الإسلام وأنهم قد تحولوا بالدعوة إلى الله عما كانوا عليه، وصاروا أمة قوية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وفي العالم المعاصر كذلك نقرأ ونسمع كثيراً مما هو واقع فعلاً عن أناس كثيرين تحولوا من دياناتهم التي كانوا عليها إلى ديانات أخرى وانسلخوا من مذاهبهم التي نشأوا عليها إلى مذاهب أخرى، فهناك دول يزيد عدد أهلها على مئات الملايين انتقلت من المسيحية إلى الشيوعية في أول هذا القرن كما حدث لروسيا المسيحية التي غزاها الإلحاد الشيوعي . . .

إن عالمنا المعاصر تجتاحه المادية العفنة ويملأ جوانبه الانحطاط الخلقي ويسوده التفاؤل البغيض والحروب المدمرة، فهل يترك على حاله دون تغيير(١) ؟ .

ومن نظر إلى حال العرب قبل الإسلام كما ذكرنا عنهم، ونظر إلى حالهم بعد دعوة الإسلام، وبعد أن هداهم الله برسالة محمد ﷺ ودعوته لهم رأى تبايناً كبيراً، فقد اجتمعوا على الاسلام وألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته اخواناً، كما نبههم تعالى على تلك النعمة في قوله : ﴿ . . . وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ

---

(١) الدعوة الى الله ـ للدكتور أبو المجد السيد نوفل ـ ص ٢٣ ـ ٢٥ .

إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ... ﴾[1] .

(1) جزء من آية (١٠٣) من سورة آل عمران .

٧ ـ أهداف الدعوة إلى الله تعالى

إن أهداف الدعوة إلى الله تعالى يمكن حصرها في هدف واحد وذلك الهدف هو الإيمان بالله جل وعلا وتوحيده لأنه ما من نبي من الأنبياء أرسله الله داعياً إليه إلا أمر قومه أولاً بالإيمان بالله وتوحيده قال جل وعلا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1]. وقد كان للدعوة أهداف أخرى، إلا أن جميعها تابع لهذا الهدف الأساسي الذي بدونه لا تمكن دعوة إلى الإسلام .

ويدخل في ذلك الإيمان بالرسل والملائكة والكتب المنزلة من عند الله والإيمان بالقدر خيره وشره وبالبعث يوم الجزاء، إذ كل من آمن بالله حق الإيمان وعبده حق عبادته لزمه الإيمان برسله كلهم وبملائكته لأنه لا تمكن معرفة الإيمان إلا عن طريق الرسل، ورسل الله جعل الله بينهم وبينه واسطة تأتيهم تلك الواسطة بالكتب من عند الله وهي الملائكة الكرام فالكتب التي تنزل من السماء تنزل بواسطة جبريل عليه السلام، فمن آمن بالله ورسله وكتبه لزمه الإيمان بالملائكة وإلا لم يكن مؤمناً قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

(١) آية (٢٥) من سورة الأنبياء .

﴿... وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ...﴾[1] .

وكذلك يلزم من الإيمان برسل الله الإيمان بالقدر خيره وشره وبالبعث يوم الجزاء لأن الرسل أخبرت بذلك، فقد ثبت في صحيح مسلم في حديث جبريل الطويل عن عمر بن الخطاب « .. قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت .. »[2]وسورة إبراهيم هذه التي نحن بصدد تفسيرها، وبيان الدعوة إلى الله فيها بينت ذلك كله كما ستقف عليه إن شاء الله في مواضعه منها .

ومن أهم أهداف الدعوة إلى الله حث المسلمين على العمل الصالح والعمل الصالح قرين الإيمان في القرآن الكريم فالغالب في القرآن أنه كلما ذكر الإيمان أردفه بالعمل الصالح، لأن الإيمان دون العمل لا ينفع، إذ الإيمان: قول واعتقاد وعمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾[3] .

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[4] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾[5] .

وقال تعالى: ﴿... وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾[6] .

---

(١) جزء من اية (٢٨٥) من سورة البقرة .
(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧ ـ ط/ دار الفكر بيروت .
(٣) آية (١٠٧) من سورة الكهف .
(٤) سورة العصر بكاملها .
(٥) آية (٧) من سورة البينة .
(٦) جزء من آية (٤٠) من سورة غافر .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

ولقد كان هذا هو الهدف الثاني من أهداف الدعوة في عهديها : المكي والمدني ، وكان هذا هو عمل الرسول ﷺ في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة ، حتى لحق بالرفيق الأعلى ، فكان يدعو أولاً إلى الإيمان بالله وبتوحيده ، ثم يدعو بعد ذلك إلى العمل الصالح .

والمراد بالعمل الصالح كل ما ينفع الإنسان في دينه وفي نفسه وأهله وفي مجتمعه . . . وكل ما يقوي المسلمين ويحقق قوتهم من البناء العلمي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والخلق . . على الأسس التي جاء بها الإسلام .

إن العمل الصالح في الإسلام هو الذي يجعل قوة المسلمين فوق كل قوة ، ورايتهم تعلو كل راية ، ولا يتحكم فيهم أحد : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . . ﴾[1]

ولا شك أن الخيرية هنا تشمل الخيرية في القوتين : الروحية والمادية .

فهدف الدعوة أن يتحول الناس من ضلالة إلى هدى ، ومن ضعف إلى قوة ، ولن يتحولوا إليها إلا بالعمل الصالح المنبثق من هدى الإسلام وعقيدته السَّمْحة ، وقد أخذت سورة ابراهيم بحظ وافر من هذا الهدف فقد دعت إلى العمل الصالح ، وإلى مكارم الأخلاق كما في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾[2] .

---

(١) جزء من الآية (١١٠) من سورة آل عمران .

(٢) آية (٣١) من سورة ابراهيم .

ومن أهداف الدعوة إلى الله تنبيه المسلمين إلى أعمال أعدائهم وإلى الخطر المحدق بهم، وتبصيرهم بطريق الوحدة واخراجهم مما هم فيه من التمزق والتفرق والحزبية، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ... ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[2].

والعمل على إبراز شخصية المسلم واستقلاله عن غيره واعتزازه بدينه لا بغرب ولا بشرق.

وإصلاح أمر المسلمين خاصة والعالم عامة بنشر الوعي الديني بين المسلمين، والدعوة إلى إظهار مساوي الجهل بالإسلام والآثار التي ترتبت على إهماله واهمال شريعته.

أما بالنسبة إلى غير المسلمين فبالتركيز على مهاجمة المادية التي تقوم عليها الحضارة الأوربية وبيان ضلالتها وزيفها ... وعلى مهاجمة الشيوعية الملحدة، وبيان ما يلاقيه العالم اليوم من آثار الحقد الصليبي، والعدوان الصهيوني، والشيوعية الهدامة ... من حروب ساخنة، وأزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية في كل مكان.

أهداف الدعوة في سورة إبراهيم:

وقد بدئت سورة ابراهيم بدعوة كافة الناس إلى الإيمان بالله تعالى

---

(١) جزء من آية (١٠٣) من سورة آل عمران.

(٢) آية (٤٦) من سورة الأنفال.

وتوحيده وذلك في قوله تعالى : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴾[1]

فإخراج العباد من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وهو توحيد الله تعالى بعينه .

وهذا هو الهدف الأساسي من أهداف الدعوة إلى الله .

وفي الآية الثانية منها أقيم الدليل على وحدانيته تعالى. حيث أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالذي يملك السموات والأرضين ويتصرف فيهما، هو الذي يستحق العبادة وحده .

كما تناولت السورة الكريمة الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام فقد ذكر فيها عدد من الرسل (كمحمد) ﷺ حيث خوطب في أولها، و (موسى) و (نوح) و (هود) و (صالح) ثم (إبراهيم) عليه السلام .

وكان الخطاب للنبي ﷺ فيها باخباره بأن الله أنزل إليه كتاباً، والإيمان بهذا الكتاب الذي هو القرآن يستلزم الإيمان بالكتب السماوية، لأنه أخبر بها وأبدى حقائقها، ثم بعد ذلك تناولت السورة اثبات وجود الله تعالى ودعم ذلك بالدليل في قوله جل وعلا : ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ... ﴾[2].

فقد تضمنت الآية أن وجود الله لا يحتمل الشك لظهور الأدلة عليه .

ومن أعظم الأدلة عليه كونه فاطر السموات والأرض أي مبدعهما وموجدهما من العدم، وقد أفردت تفسير هذه الآية بفصل مستقل أول فصول الباب الثالث من هذه الرسالة، بينت فيه الأدلة على وجود الله تعالى من القرآن

---

(١) آية (١) من سورة ابراهيم .

(٢) جزء من آية (١٠) من سورة ابراهيم

الكريم، وذكرت فيه عقيدة السلف، وبينت أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وعقيدة المسلمين اجمالاً وأركان الإيمان الستة، واعتقاد المسلمين في الرسل والكتب السماوية، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، ومعتقد أهل الكتاب في الألوهية والنبوات.

وقد تناولت السورة أيضاً البعث من القبور، وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾[1] لأن المراد بذلك اليوم يوم القيامة.

والسؤال في القبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[2].

ومن أهداف الدعوة في السورة: العمل الصالح والأخلاق الفاضلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ...﴾[3] كما تقدم.

والتباعد من الشرك بالله وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾[4] إلى غير ذلك مما تناولته سورة إبراهيم من أهداف الدعوة إلى الله مما سيقف عليه القارىء لهذه الرسالة إن شاء الله في حينه. وينشأ الآن سؤال:

هل هذه الدعوة عالمية؟ فيحق لها أن توجه إلى الناس كافة؟ وجواب ذلك في الفصل التالي.

---

(١) آية (٤٨) من سورة ابراهيم.
(٢) آية (٢٧) من سورة ابراهيم.
(٣) آية (٣١) من سورة ابراهيم.
(٤) آية (٣٥) من سورة ابراهيم.

الفصـــل الثانـي

في عموم الدعوة الإسلامية

وقد قسمته إلى قسمين:

الأول: خصوص الدعوات قبل دعوة محمد ﷺ وأدلة ذلك.

الثاني: عموم دعوة الإسلام وأدلة ذلك من الكتاب والسنة والاجماع.

وهذا الفصل ينطلق من أول هذه السورة الكريمة ـ سورة إبراهيم الخليل عليه السلام ـ والتي آن الأوان للبدء في تفسيرها، وذلك لأن هذه السورة افتتحت بما يدل على عموم رسالة نبينا محمد ﷺ،وذلك في قوله: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . . . ﴾[1] والآية الخامسة منها دلت على خصوصية رسالة موسى عليه السلام، وذلك في قوله: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . . ﴾[2].

فأول آية في السورة دلت على عموم الرسالة الإسلامية لأن القرآن وهو الكتاب المذكور فيها أنزل ليخرج به الرسول ﷺ الناس جميعاً من الظلمات إلى النور، والآية الخامسة منها دلت على خصوص رسالات الأنبياء السابقين، ولنبدأ أولاً بالخصوص قبل العموم تمشياً مع الترتيب الزمني للرسالات، وقد

---

(١) آية (١) من سورة ابراهيم.

(٢) آية (٥) من سورة ابراهيم.

اشتمل هذا القسم الأول على النقاط التالية :

١ ـ معنى العموم والخصوص .

٢ ـ استدلال العلماء على خصوصية رسالة موسى .

٣ ـ النصوص القرآنية الدالة على خصوص الرسالات قبل رسالة محمد ﷺ .

٤ ـ تفسير الآيات من ٥ إلى ٨ وذكر أقوال العلماء في ذلك .

٥ ـ الدعوة إلى الله في هذه الآيات .

القسم الأول

خصوص الدعوات قبل دعوة محمد ﷺ وأدلة ذلك

١ ـ معنى العموم والخصوص:

العموم في اللغة الشمول: يقال عم المطر الأرض إذا شملها من جميع النواحي، وعم الخصب جميع البلاد، ويقال عمهم الأمر يعمهم عموماً شملهم، ويقال عمهم بالعطية إذا شملهم عطاؤه.

والعامة خلاف الخاصة[١].

والخصوص في اللغة الافراد، يقال: خصه بالشيء يخصه خصاً وخصوصاً وخصوصية، والفتح أفصح، وخصيصي وخصصه واختصه أفرده دون غيره، ويقال: اختص فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد[٢].

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾[٣]

---

(١) انظر: لسان العرب جـ ١٥ ص ٣٢١ ط تصوير على طبعة بولاق المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.

(٢) لسان العرب جـ ٨ ص ٢٩٠ المصدر السابق.

(٣) آية (٥) من سورة ابراهيم.

إن المصدر الأول للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله هو القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها، وقد أخبرنا جل وعلا في هذا الكتاب أنه مصدق للكتب التي أنزلها على رسله قبل نبينا ﷺ ومهيمن عليها أي مؤتمن عليها وأمين وشاهد وحاكم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾[1] [2]

ولقد دلت هذه الآية الكريمة على خصوص رسالة موسى عليه السلام، كما دلت آيات أخر على خصوص رسالات باقي الأنبياء غير محمد ﷺ، وذلك أن الله أخبر فيها أنه أرسل نبيه موسى بآيات من عنده، وأمره بإخراج قومه خاصة، ولم يأمره باخراج غيرهم من الظلمات إلى النور، فكان الأمر لموسى بإخراج قومه خاصة. ومعنى أن أخرج: أي أخرج لأن أرسلنا فيه.

معنى القول: فتكون أن بمعنى أي التفسيرية، وقيل، إنها مصدرية، فتكون أن أخرج بمعنى باخراج، واختلف في المراد بالآيات هنا فقيل: إنها الحجج والأدلة القاطعة على صدق موسى فيما أخبر به عن ربه من الرسالة، روى هذا القول ابن جرير عن مجاهد، وقيل: إن المراد بالآيات: الآيات

---

(١) جزء من آية (٤٨) من سورة المائدة.

(٢) والكتاب اسم جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة المنزلة من عند الله فهذا الكتاب الذي هو القرآن عم على جميع الكتب، كما أن من أنزل عليه عمت رسالته جميع الخلق، والعموم بعد الخصوص أمر طبيعي جرت به العادة، فالاسلام أولاً بدأ في مكة المكرمة، ثم في المدينة المنورة، ثم انتشر في جزيرة العرب، ثم عم البلاد، والمطر يبدأ رشا، ثم طلا، ثم وبلا ثم يعم البلد، وهكذا الرسالات التي سبقت رسالة محمد ﷺ كانت خاصة بالأقاليم التي بيعت فيها ذلك الرسول لا تتجاوز رسالته الاقليم الذي بعث فيه بخلاف رسالة خاتم الأنبياء فقد عمت جميع الأزمنة والأمكنة ـ كما سترى إن شاء الله في القسم الثاني من هذا الباب، وضمنت للبشرية جميع متطلباتها في الحياتين بحيث لا تحتاج الى رسالة أخرى.

التسع المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ...﴾[1]

وفي قوله تعالى: ﴿... فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾[2]

رواه أيضاً ابن جرير عن مجاهد واقتصر عليه ابن كثير .

قلت: الظاهر أنه لا منافاة بين القولين لأن الحجج والبراهين الدالة على صدق موسى هي نفس الآيات التسع التي أيده الله بها، فهي براهين قطعية وحجج واضحة على صدقه .

وسأذكر إن شاء الله الآيات التسع التي أيد الله بها موسى في الباب الثاني من هذا الكتاب .

٢ ـ استدلال العلماء على خصوصية رسالة موسى من القرآن :

وقد استدل العلماء على خصوص رسالة موسى عليه السلام بهذه الآية وبغيرها من الآيات، قال أبو حيان في تفسيره لهذه الآية: وفي قوله: **﴿قومك﴾** خصوص لرسالته إلى قومه بخلاف **﴿لتخرج الناس﴾**[3] كما اختلف في المراد بقوله: **﴿قومك﴾** في الآية، فقال بعضهم: إن المراد بهم بنو إسرائيل، وهذا هو ظاهر كلام ابن جرير وابن كثير والزمخشري فانظرهم، وكذلك الألوسي في روح المعاني فإنه قال: والمراد من قوله عليه السلام كما هو الظاهر بنو إسرائيل من اخراجهم اخراجهم بعد مهلك فرعون من ظلمات الكفر والجهالات التي كانوا فيها، وأدت بهم إلى أن يقولوا يا موسى اجعل لنا

---

(١) جزء من آية (ص١٠١) من سورة الاسراء .

(٢) جزء من آية (١٢) من سورة النمل .

(٣) البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٠٤ ط دار الفكر .

إلهاً كما لهم آلهة [١] .

واستظهره أيضا أبو حيان حيث قال: والظاهر أن قومه هم بنو إسرائيل، وقيل: القبط، فإن كانوا القبط فالظلمات هنا الكفر والنور الإيمان، وان كانوا بني إسرائيل وقلنا انهم كلهم كانوا مؤمنين فالظلمات ذل العبودية والنور العزة بالدين وظهور أمر الله وان كانوا أشياعاً متفرقين في الدين قوم مع القبط في عبادة فرعون، وقوم على غير شيء فالظلمات الكفر، والنور الإيمان، قيل: وكان مبعوثاً إلى القبط وبني إسرائيل وقيل إلى القبط بالاعتراف بوحدانية الله والإيمان بموسى وإنه نبي وإلى بني اسرائل بالتكليف وبفروع شريعته إذ كانوا مؤمنين »[٢] انتهى كلامه [٣] .

---

(١) روح المعاني جـ ١٣ ص ٦٨ ط ادارة الطباعة المنيرية بمصر .

(٢) البحر المحيط جـ ٥ المصدر السابق نفسه .

(٣) قلت : كثر التعبير في القرآن الكريم عن بني اسرائيل بلفظة القوم مضافة الى موسى مما يؤيد أن المراد من قوله : أن أخرج قومك بنو اسرائيل ، قال تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار** .. ﴾ ـ جزء من آية ١٥٨ من سورة الأعراف ـ ومعلوم أن المراد بالقوم هنا بنو اسرائيل لأن هذا بعد اغراق فرعون ونجاة بني اسرائيل وذهاب موسى لميقات ربه لمناجاته ، وقال تعالى : ﴿ **واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا** ﴾ جزء من آية ١٥٥ من سورة الأعراف ـ والمراد بالقوم هنا بنو اسرائيل بلا شك ، وقال تعالى : ﴿ **ولما رجع موسى الى قومه غضبن أسفاً** ﴾ جزء من آية ١٥٠ من سورة الأعراف ـ وذلك في رجوعه من مناجاة ربه وكل ذلك بعد عبور بني اسرائيل للبحر واغراق فرعون وقومه ووردت آيات أخر تدل على أن القوم المراد اخراجهم من الظلمات الى النور فرعون وقومه فقد اخبر الله في غير ما آية أنه أرسل موسى الى فرعون وقومه فقال : ﴿ **انا أرسلنا اليكم رسولاً شهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول** ﴾ ـ آية ١٥ وجزء من آية ١٦ من سورة المزمل ـ وقال تعالى : ﴿ **ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا الى عباد الله أني لكم رسول أمين** ﴾ آيتي ١٧ ـ ١٨ من سورة الدخان ـ والقرآن كثر فيه التعبير عن الكفر بالظلمات ، وعن الايمان بالنور ، وعليه فيكون القول بأن القوم المذكورين بنو اسرائيل خاصة مخالف للغالب في القرآن اذا قلنا أنهم كانوا مؤمنين ، فإذا رأيت هذا فاعلم أن الله صرح بأنه أرسل موسى عليه السلام الى قوم فرعون ، كما قال : ﴿ **وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون** ﴾ ـ آية ـ ١ ـ ١١ من سورة الشعراء ـ وصرح بأنه أرسله الى =

وقد دلت آيات أخر على خصوصية رسالة موسى عليه السلام كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[2]

= ﴿ **فرعون إنه طغى**﴾! آية ١٧ من سورة النازعات ـ ومن المعلوم أن بني اسرائيل في ذلك الوقت الذي بعث فيه موسى الى فرعون تحت سيطرة فرعون وتحت حكمه، وقد أخرج الله بعضاً من قوم فرعون من ظلمات الكفر الى نور الإيمان مثل: آسية بنت مزاحم زوج فرعون التي قالت: ﴿ **رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين** ﴾ ـ جزء من آية ١١ من سورة التحريم ـ وكمؤمن آل فرعون الذي ذكر الله في سورة غافر في قوله: ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله** ﴾ ـ جزء من آية ٢٨ من سورة غافر، وكذلك خازن فرعون وامرأته أي امرأة الخازن والسحرة وقد ذكر المفسرون أن هؤلاء المذكورين هم الذرية التي أخبر الله أنها آمنت لموسى وذلك في قوله: ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون ....** ﴾ ـ جزمن آية ٨٣ من سورة يونس ـ وكونها من بني اسرائيل يبعده أن بني إسرائيل آمنوا كلهم أو جلهم.

وعلى هذا يتعين حمل الآية عندي على أن المراد بالقوم قوم موسى الذين بعث فيهم بما يشمل القبط وبني اسرائيل، لأن موسى تربى في أحضان فرعون حتى خرج من مصر الى أرض مدين ولا مانع من اطلاق قومه عليهم وإن لم يكن منهم نسباً.

وهذا القول قدمت عن أبي حيان أنه حكاه بصيغة التمريض (قيل) والأظهر عندي أنه هو الصحيح ويتعين حمل الآية عليه، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآيتنا الى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين** ﴾ ـ آية ٤٦ من سورة الزخرف ـ قال: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام أنه ابتعثه الى فرعون وملائه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني اسرائيل يدعوهم الى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه. اهـ. ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٩ ط دار احياء الكتب العربية.

(١) آية (١٠٣) من سورة الأعراف.

(٢) آية (٤٦) من سورة الزخرف.

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على خصوصية رسالة موسى عليه السلام، وأنها لا تتجاوز الزمان والمكان الذي بعث فيهما، وكذلك غيره من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه غير نبينا ﷺ.

الأدلة من السنة على خصوص الدعوات قبل دعوة محمد ﷺ :

لقد كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث محمد ﷺ لكافة الخلق الأحمر والأسود، كما ثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت الى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة**»[(١)] هذا لفظ مسلم.

٣ ـ نصوص القرآن تدل على خصوصية الرسالات قبل رسالة محمد ﷺ :

قدمنا قريباً بعضاً من الآيات الدالة على خصوص دعوة موسى عليه السلام، وإليك بعض النصوص الدالة على خصوص دعوة عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[(٢)]
أي ويجعله رسولاً إلى بني اسرائيل، أو يكلمهم في حال كونه رسولاً إلى بني إسرائيل، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ

---

(١) مسلم جـ ١ ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ ـ تعليق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الفكر ـ بيروت.
والبخاري في كتاب التيمم جـ ١ ص ٩١.

(٢) آية (٤٨)، وجزء من من آية (٤٩) من سورة آل عمران.

ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾[1]

فقد حكى القرآن الكريم عن عيسى أنه رسول إلى بني إسرائيل ولم يرد أنه أرسل إلى غيرهم، ولا يرد على هذا أن الرسول ﷺ أمر بانذار عشيرته الأقربين مع عموم رسالته كما يأتي، فإن النصوص الكثيرة دلت على عموم رسالته من الكتاب والسنة كما سيأتي إن شاء الله.

فعيسى عليه السلام قال لبني إسرائيل: إني رسول الله إليكم أي أنا مرسل إليكم أنتم وحدكم يا بني إسرائيل دون من سواكم في حال كوني مصدقاً لما بين يدي من كتاب موسى الذي جاءكم به وهو التوراة، ولم يقل إني رسول الله إليكم وإلى غيركم كما قال محمد ﷺ.

وقال تعالى في شأن خصوصية دعوة نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ ﴾[2]

وقال فيه أيضاً: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا.. ﴾[3].

وقال تعالى في شأن خصوصية دعوة هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[4]

وقال تعالى في شأن دعوة شعيب: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾[5].

---

(١) جزء من آية (٦) من سورة الصف.

(٢) آية (١) من سورة نوح.

(٣) جزء من آية (١٤) من سورة العنكبوت.

(٤) آية (٦٥) من سورة الأعراف.

(٥) جزء من آية (٨٤) من سورة هود.

وقال في شأن صالح : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾[1]

إلى غير ذلك من الآيات وذكر القرآن الكريم كيفية دعوة إبراهيم وأنه دعا أباه وقومه فقط فصرح لقومه بأنه رسول إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[2]

وقال في شأنه: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[3]

الى غير ذلك من الآيات الدالة على خصوص الدعوات السابقة لدعوة محمد ﷺ، فإن كل هذه النصوص التي ذكرنا تدل على رسالة أصحابها لأقوامهم ولم يرد نص في شرعنا يدل على أنهم أرسلوا إلى غير أقوامهم، بل ثبت في شرعنا التصريح بأن الأنبياء كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة كما قدمنا ذلك من حديث الصحيحين وكذلك لم يرد أن أحداً من الرسل ادعى أن دعوته عامة، بل ورد عنهم خلاف ذلك قولاً وتطبيقاً، فنبي الله نوح لما أرسل إلى قومه بادرهم بالانذار قائلاً: يقوم اني لكم نذير مبين، ولم يقل: يقوم اني نذير لجميع الخلق كما قال ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[4]

(فإن قيل) قال الله في حق محمد ﷺ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[5]

فالجواب : أن هذا مثل قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾[6]

وقد قدمنا أنه لا دليل فيه على خصوصية دعوة الإسلام لكثرة الآيات المصرحة

---

(١) جزء من آية (٦١) من سورة هود .

(٢) آيتي (٦٩) - (٧٠) من سورة الشعراء .

(٣) آيتي (٨٣ - ٨٥) من سورة الصافات .

(٤) جزء من آية (١٥٨) من سورة الأعراف .

(٥) جزء من آية (٤٦) من سورة سبأ .

(٦) آية (٢١٤) من سورة الشعراء .

بعمومها وشمولها لجميع أجناس المخلوقات، بخلاف دعوة غيره .

ولما أرسل صالح نادى في قومه فقط: يقوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره، وكذلك جميع الرسل كانت دعوتهم هكذا يقوم، يقومنا والدعوة العامة دعوة الإسلام تنادي الجميع: يا أيها الناس. . يا أيها الناس.

أما الرسل الذين ذكرهم الله في سورة يس في قوله: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1] فالصحيح أنهم رسل من الله تعالى لأهل تلك القرية، وقد أوضح ذلك ابن كثير في تفسيره، وابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .

وظاهر القرآن يدل على أنهم رسل من الله لا من قبل المسيح عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿عَزَّزْنا﴾ بضمير العظمة ظاهر في أن الارسال إلى هذه القرية واقع من الله تعالى، وما يقوله كثير من المفسرين من أنهم رسل من قبل عيسى إلى أهل أنطاكية وأنهم لما كانوا من قبل عيسى صح التعبير عنهم بضمير العظمة من الله، مع أن هؤلاء الرسل لو سلمنا بأنهم من قبل عيسى ودعوا أهل أنطاكية، فإن ذلك لا يخرج دعوة عيسى عن كونها خاصة لقرب أنطاكية من بيت المقدس وقد ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن أنطاكية هي أول قرية آمنت بالمسيح عليه السلام، وعزا ذلك لسعيد بن بطريق وغيره من مؤرخي أهل الكتاب والمسلمين، كما قرر أن الرسل من الله لا من قبل عيسى عليه السلام، ورد قول القائل بأنها أنطاكية المعروفة من وجوه عديدة فانظره[2] .

---

(١) آيتي (١٣ ـ ١٤) من سورة يس .

(٢) جـ ٣ ص ٥٦٩ ط عيسى البابي الحلبي وشركاه .

وقال ابن تيمية : والرسل المذكورون في سورة يس هم ثلاثة وكان في القرية رجل آمن بهم، وهذه وان كانت أنطاكية فكان هذا الارسال قبل المسيح ، والمسيح عليه السلام ذهب الى أنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلى السماء ولم يعززوا بثالث ولا كا ن حبيب النجار موجوداً إذ ذاك، وآمن أهل أنطاكية بالمسيح عليه السلام وهي أول مدينة آمنت به كما قد بسط في غير هذا الموضع . إهـ (١).

وإنما ذكرت هذا لئلا يقول قائل إن دعوة عيسى عمت حتى ذهب رسله إلى أنطاكية يدعون، فبينت أن أنطاكية وان بلغتها دعوة عيسى لا يخرجها ذلك عن كونها خاصة مع ما رأيت من أقوال العلماء أنها غير أنطاكية المعروفة وأن الرسل من الله لا من قبل عيسى والله أعلم .

فإن قيل قد قررتم أن دعوة الأنبياء غير نبينا ﷺ خاصة ونوح عليه السلام من جملتهم كما ذكرتم، وإذا كانت دعوته خاصة فلم عم الهلاك جميع الأرض؟ وأغرق من فيها الطوفان؟ والله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (٢)

ويقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ (٣).

على أن المعنى : أمرنا مترفيها بالطاعة على ألسنة الرسل فكذبوهم فحق عليهم القول فدمرناهم تدميراً، وفي الآية غير هذا من التفاسير، فالذي يقتضيه خصوص الرسالة أن الهلاك يقتصر على قوم نوح الذين أرسل اليهم وكذبوه

---

(١) انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ٣ ص ٢٠٩ ط مطابع المجد التجارية .

(٢) جزء من آية (١٥) من سورة الأسراء .

(٣) آية (١٦) من سورة الأسراء .

دون من سواهم ولم يعم جميع الأرض .

وقد ذكر ابن حلولو القيرواني جواباً على هذا الاشكال فقال إن عموم الدعوة وخصوصها إنما هو بحسب الشرائع والأمر بقتال من أرسل اليهم دون غيرهم، وأما الدعوة الى التوحيد فعامة من الكل الى الكل والخلق مأمورون بذلك عند دعوتهم ومعجزتهم إليهم فمن خالف استوجب العقاب، قال: وأشار إلى هذا ابن عطية، ويشهد له أن من الإيمان الذي كلف به جميع الخلق الإيمان بجميع رسل الله وبما أتوا به عن الله[1] .

وقد تكلم على هذا الاشكال أيضاً الحافظ ابن حجر في فتح الباري، قال عند شرحه لحديث: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي الحديث ما نصه:

ولا يعترض بأن نوحاً عليه السلام كان مبعوثاً الى أهل الأرض بعد الطوفان لأنه لم يبق إلا من كان مؤمناً معه، وقد كان مرسلاً إليهم لأن هذا العموم لم يكن في أصل بعثته وإنما اتفق بالحادث الذي وقع وهو انحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك سائر الناس، وأما نبينا فعموم رسالته من أصل البعثة فثبت اختصاصه بذلك .

وأما قول أهل الموقف لنوح كما صح في حديث الشفاعة: « أنت أول رسول الى أهل الأرض » - الحديث كما سيأتي - فليس المراد به عموم بعثته بل إثبات أولية إرساله، وعلى تقدير أن يكون مراداً فهو مخصوص بتنصيصه سبحانه وتعالى في عدة آيات على أن إرساله كان إلى قومه ولم يذكر أنه أرسل إلى غيرهم واستدل بعضهم لعموم بعثته بكونه دعا على جميع من في الأرض فأهلكوا بالغرق إلا أهل السفينة، ولو لم يكن مبعوثاً إليهم لما أهلكوا لقوله

---

(١) طالع شرح ابن حلولو لجمع الجوامع جـ ٣ ص ٢٩٤ .

تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[1] وقد ثبت أنه أول الرسل.

وأجيب بجواز أن يكون غيره أرسل إليهم في أثناء مدة نوح وعلم نوح أنهم لم يؤمنوا فدعا على من لم يؤمن من قومه ومن غيرهم فأجيب قال: وهذا جواب حسن لكن لم ينقل أنه نبىء في زمن نوح غيره، ريحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا ﷺ في ذلك بقاء شريعته الى يوم القيامة، ونوح وغيره بصدد أن يبعث نبي في زمانه أو بعده فينسخ بعض شريعته، ويحتمل أن يكون دعاؤه قومه إلى التوحيد بلغ بقية الناس فتمادوا على الشرك فاستحقوا العقاب، وإلى هذا نحا ابن عطية في تفسير سورة هود قال: وغير ممكن أن تكون نبوته لم تبلغ القريب والبعيد لطول مدته، ووجهه ابن دقيق العبد بأن توحيد الله تعالى يجوز أن يكون عاماً في حق بعض الأنبياء وإن كان التزام فروع الشريعة ليس عاماً لأن منهم من يقاتل غير قومه على الشرك، ولو لم يكن التوحيد لازماً لهم لم يقاتلهم، ويحتمل أنه لم يكن في الأرض عند ارسال نوح إلا قوم نوح[2]، فبعثته خاصة لكونها إلى قومه فقط وهي عامة في الصورة لعدم وجود غيرهم، لكن لو اتفق وجود غيرهم لم يكن مبعوثاً إليهم[3].

قلت: وهذا الاحتمال الأخير أظهر عندي لأننا لم يثبت لنا بنقل صحيح أن الأرض في ذلك الزمن كان معموراً منها غير بلاد قوم نوح وإذا ثبت بنقل صحيح أن غير ذلك المكان كان معموراً من الناس فحينئذ يرد الاشكال وترد الاحتمالات المذكورة التي ذكرها ابن حجر وإذا ورد الاشكال فجوابه أن

---

(١) جزء من آية (١٥) من سورة الأسراء.

(٢) قال عبد العزيز بن عبد الله بن باز في تعليقه على فتح الباري: هذا الاحتمال الأخير أظهر مما قبله لقول الله تعالى: ﴿ وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ﴾ جزء من آية ٣٦ من سورة هود، وقوله تعالى: ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ آية ٢٦ من سورة نوح. اهـ.

(٣) طالع فتح الباري جـ ١ ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ط السلفية.

نصوص القرآن والسنة مصرحة بأن عموم الرسالة مما خص به نبينا محمد ﷺ ويكون للاحتمالات التي ذكرها ابن حجر فائدة في الجواب، فأما أن تكون هي الجواب، وأما أن يكون هناك جواب غيرها لم نطلع عليه لأننا نقطع بأنه ما من نبي الا وبعث في قومه خاصة، ونبينا محمد ﷺ بعث إلى الأحمر والأسود، لأن نبينا أخبرنا بذلك في خبر صحيح صريح فوجب علينا الإيمان به، والله تعالى أعلم .

الأدلة على خصوص رسالة موسى وعيسى من العهدين القديم والجديد:

والمراد من وراء هذا العنوان افحام غير المسلم يهودياً أو نصرانياً، وهو فقط من باب وشهد شاهد من أهلها، والا فإن الاستدلال على ذلك من الكتاب والسنة كاف لدى كل مسلم، ومنه يعلم القصد من هذا الاستدلال .

أولاً : العهد القديم :

في ما يسمى التوراة التنصيص على عدم دخول شعوب أخرى في الديانة اليهودية، وهذا نصها « لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر، لا يدخل معهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد »[١] .

ثانياً: العهد الجديد:

في ما يسمى الأناجيل ما يثبت اقليمية دعوة عيسى عليه السلام، ففي انجيل متى ما نصه: « ثم خرج يسوع (عيسى) وانصرف الى نواحي صور وصيدا وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة: ارحمني يا سيد يابن داود ابنتي مجنونة جداً فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا فأجاب وقال: لم أرسل إلا الى خراف بني إسرائيل الضالة »[٢] .

---

(١) سفر التثنية الاصحاح ٢٣ فقرة ٣ .

(٢) انجيل متى الاصحاح ١٥ فقرة ٢٣ فما بعدها .

فهذان النصان الثابتان في التوراة والانجيل أو العهدين القديم والجديد يؤكدان خصوصية رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام .

فعيسى أخبر أنه لم يرسل إلا الى بني إسرائيل، والمسيحيون اليوم يخططون المخططات لادخال جميع الشعوب من مسلمين ووثنيين وغيرهم في الدين المسيحي وهم يثبتون في مصادرهم المعتمدة، بل المقدسة عندهم أن الرسول الذي يزعمون أنهم على شريعته ما أرسل إلا لبني إسرائيل دون من سواهم، بل الرسول الذي يزعمون أنه الرب يخبرهم أنه أرسل لبني إسرائيل فقط، فيا عجباً من هذه التناقضات . .

ويقول أحد الباحثين مفرقاً بين الدعوات السابقة ودعوة محمد ﷺ في شمولها وخصوص غيرها من الدعوات . . ويسير علينا بعد هذا الوصف المجمل للإسلام أن نرى فرقاً بين دعوته والدعوات التي سبقته .

إن الرسالات السابقة كانت محلية موقوتة محدودة الزمان والمكان جهد أصحابها - دون غمط - أو انتقاص - انقاذ قبيلة من الناس من جهالات أو ضلالات فشت فيهم وكادت تودي بهم .

فهم صلوات الله عليهم أطباء حاولوا أن يشفوا أقوامهم من علل غلاظ، وأقلهم استجيب له، وكثرتهم جحد حقها، ونكر فضلها، وهلكت أممهم صريعة بأدواء الكفر والعناد .

كذلك كان شأن (هود) في عاد، و (صالح) في ثمود و (شعيب) في مدين، و (لوط) في قرى المؤتفكة .

أما الرسالتان الكبيرتان اللتان نهض بهما موسى وعيسى فسرعان ما تسرب التحريف إليهما، وغلب الدخن الكثير على أصولهما وفروعهما .

هذا هو حصاد الماضي كله عندما نتأمل في مصاير النبوات الأولى

والدعوات السابقة .

أما الرسالة العظمى التي اطلع بها خاتم النبيين، خاتم الدعاة وسيد الهداة، فإن القادر الأعلى زودها بما حفظ عليها صلاحيتها المطلقة وأبقاها الى يوم الناس هذا، وإلى أن ينفخ في الصور، جماع الأشفية التي يتخلص بها العالم من سقامه، وينبوع الرحمة التي يستريح بها من آلامه وإن جحد الجاحدون[1] . . .

٤ ـ تفسير الآيات من ٥ إلى ٨ وذكر أقوال العلماء في ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾[2]

يأمر تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يذكر قومه بأيام الله واختلف في المراد بأيام الله في هذه الآية، فقيل: نعم الله عليهم وقيل: وقائعه ونقماته من أعدائه السابقين على قوم موسى، وذلك أن هذا اللفظ يطلق عند العرب على الوقائع التي سلفت، فكان الله يأمر موسى أن يخوف قومه بما وقع من الهلاك لقوم عاد وصالح وغيرهم من الأمم السابقة التي أهلكها الله ـ أي: حذرهم يا موسى وقائع الله ونقماته في الأمم الماضية، والعرب تقول فلان عالم بأيام العرب أي وقائعها وحروبها وملاحمها، روى هذا القول عن ابن عباس ومقاتل وابن زيد. قال الشاعر:

وأيامنا مشهورة في عدونا

أي وقائعنا، وعن ابن عباس أيضاً أن المراد بالأيام النعم التي أنعم الله عليهم بها[3] .

---

(١) مع الله للأستاذ محمد الغزالي ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) جزء من الآية ٥ من سورة ابراهيم .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان جـ ٥ ص ٤٠٦ دار الفكر للطباعة والنشر.

وعليه فيكون المعنى : ذكرهم بنعم الله التي سلفت في الأيام الماضية عليهم، وقال ابن جرير: يقول عز وجل: وعظهم بما سلف من نعمي عليهم في الأيام التي خلت فأجتزيء بذكر الأيام من ذكر النعم التي عناها لأنها أيام كانت معلومة عندهم أنعم الله عليهم فيها نعماً جليلة، أنقذهم فيها من آل فرعون بعدما كانوا فيما كانوا من العذاب المهين وغرق عدوهم فرعون وقومه وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

وكان بعض أهل العربية يقول: معناه خوفهم بما نزل بعاد وثمود وأشباههم من العذاب[١].

قلت : ذكر ابن جرير وأبو حيان والقرطبي وغيرهم في تفسير الأيام بالنعم أن المراد بها ما أنعم الله به على بني إسرائيل من إنزال المن والسلوى واغراق فرعون ونجاتهم من عذابه، إلى غير ذلك من نعم الله على بني إسرائيل، وهذا لا يتمشى إلا مع القول بأن المراد بالقوم في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾[٢].

بنو إسرائيل خاصة لأن القوم المأمور باخراجهم من الظلمات إلى النور: هم المأمور بتذكيرهم بأيام الله وقد قدمت أنه لا مانع من إطلاق قوم موسى على فرعون وملائه وأقمت الأدلة على ذلك ، وإذا كان المراد بالقوم فرعون وملأه كما هو محتمل فيكون ما ذكروه غير مناسب، وإذا كان المراد بالقوم فرعون وقومه وبني إسرائيل كما هو محتمل فإنهم يكونون قد تركوا نصيب فرعون وقومه من النعم وتركوا ترهيبه من وقائع الله بمن كفر برسله كعاد وثمود وغيرهم.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٢ ط دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت .

(٢) جز من الآية ٥ من سورة ابراهيم .

وقد أنعم الله على فرعون بنعم كثيرة يحتاج التذكير بها، منها: طول عمره، وصحة بدنه، وكثرة خدمه، وسعة ملكه، ونفوذ سلطانه، إلى غير ذلك، وعليه فلا مانع أن يكون التذكير بأيام الله على القول بأن المراد بها نعم الله يدخل فيه فرعون وقومه وبنو إسرائيل، وان كان قوله تعالى: في الآية التي بعدها: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ .... ﴾ (١) الآية.

فيه مايوحي بأن هذا امتثال من موسى لأمر ربه في قوله ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾(٢).

الا أن أخراج فرعون وقومه من الارادة بالتذكير بالنعم والتخويف بالنقم بعيد عندي والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ ﴾(٣)

أي أن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صابراً شكوراً، لأن الحال إما أن يكون حال محنة وبلية، أو حال منحة وعطية، فإن كان الأول كان المؤمن صابراً، وان كان الثاني كان شاكراً، وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب ألا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين، فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه كان مشغولاً. بالشكر وان جرى بما لا يلائم كان مشغولاً بالصبر، وخص أهل الصبر والشكر بالذكر لأنهم هم المنتفعون بتلك الآيات، فكأنها ليست آيات

---

(١) جزء من الآية ٦ من سورة ابراهيم.

(٢) جزء من الآية ٥ من سورة ابراهيم.

(٣) جزء من الآية ٥ من سورة ابراهيم.

الا لهم، أو لأن الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله إلا لمن كان صابراً شاكراً[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾[٢].

الظرف (إذ) متعلق بمحذوف تقديره اذكر يا محمد وقت قول موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون ـ أي اذكروا إنعامه عليكم وقت انجائه لكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب: أي يبغونكم ـ يقال: سامه ظلماً أي أولاه ظلماً، وسوء العذاب: مصدر ساء يسوء، والمراد: العذاب السيء من استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة.

ثم قال: ﴿وَيُذَبِّحون أبناءَكُمْ﴾[٣] بالواو العاطفة يذبحون على يسومون، وإن كان التذبيح من جنس سوء العذاب: إخراجاً له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدة. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ﴾[٤] أي يتركونهن حيات لإهانتهن وإذلالهن ﴿وَفي ذَلِكُمْ﴾ المذكور من أفعالهم بكم ﴿بلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عظيمٌ﴾ أي ابتلاء لكم.

قال الزمخشري عند تفسير هذه الآية: فإن قلت: في سورة البقرة يذبحون، وفي الأعراف يقتلون، وهاهنا ﴿وَيُذَبِّحونَ﴾ مع الواو فما الفرق؟.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي جـ ١٩ ص ٨٤ ط المطبعة البهية المصرية الأولى.

(٢) آية من سورة ابراهيم الآية ٦.

(٣) سورة ابراهيم الآية ٦.

(٤) طالع فتح القدير جـ ٣ ص ٩٦ ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر.

قلت: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه اوفى على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر[1].

ولم يتكلم على النكتة في التعبير بيقتلون في سورة الأعراف لا هو ولا الرازي حيث نقل كلامه، وقد تعرض للكلام عليها أبو حيان فقال: وحيث لم يؤت بالواو جعل الفعل تفسيراً لقوله يسومونكم، وحيث أتى بها دل على المغايرة وأن سوم سوء العذاب كان بالتذبيح وبغيره، وحيث جاء يقتلون جاء باللفظ المحتمل للتذبيح ولغيره من أنواع القتل[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾[3].

قيل: إن هذا الكلام من قول موسى لقومه، وهو معطوف على قوله: ﴿إِذْ أَنْجَيكُمْ﴾ أي: اذكروا نعمة الله عليكم في هذين الوقتين فإن هذا التأذن نعمة أيضاً.

وقيل: هو من قول الله سبحانه، وعليه فالمعنى: واذكر يا محمد إذ تأذن ربكم، واللام في لئن شكرتم موطئة لقسم، وقوله: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ساد مسد جواب الشرط والقسم، وكذلك اللام في لئن كفرتم موطئة أيضاً لقسم، وقوله: ﴿إِنَّ عَذابِي لَشديدٌ﴾ ساد مسد الجوابين أيضاً، والمعنى: والله لئن شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلاً مني، وقيل: لأزيدنكم في الطاعة، وقيل: لأزيدنكم من الثواب.

---

(١) طالع الكشاف جـ ٣ ص ٣٦٨.

(٢) البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧ ط الثانية ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣) سورة ابراهيم الآية ٧.

ولئن كفـرتم نعمتي وجحدتموها فإن عذابي شديد ولابد أن يصيبكم منه نصيب(١).

ومعنى ﴿تَأَذَّنَ﴾ أذن، ولابد في تفعل من زيادة معنى ويحتمـل أن تكون ﴿تَأَذَّنَ﴾ أجريت مجرى قال لأنه ضرب من القول(٢).

وقد ذكر ابن جرير إختلاف العلماء: هـل المراد بـالزيـادة الزيـادة من النعم، وذكر في ذلك آثاراً كثيرة عن السلف، أو المراد الزيـادة من الطاعـة، ورجح القول الأول، ورد القول الآخر، وقـال: إنه لا وجـه له لأن الطاعة لم يجـر لها ذكـر حتى يزاد منهـا، ثم قال: إلا أن يـراد لئن شكرتم فـأطعتموني بالشكر لأزيدنكم من أسباب الشكر ما يعينكم عليه، فيكون ذلك وجهاً(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾(٤).

هذا حكاية من الله تعالى لما قال موسى لقومه لما أمرهم بذكـر نعم الله عليهم وشـكرها حيث قال لهم: ان تكفـروا أيها القـوم فتجحدوا نعم الله التي أنعم بها عليكم ويفعل مثل فعلكم من في الأرض جميعاً فإن الله لغني عنكم وعنهم من جميع خلقه لا حاجة بـه إلى شكركم إيـاه على نعمه - حميـد ذو حمد إلى خلقه بما أنعم عليهم(٥).

قلت: يـدل لهذا التفسير ما ثبت في الصحيح من حـديث أبي ذر عن رسـول الله ﷺ فيما يـرويه عن ربـه أنه قـال «**يا عبـادي لو أن أولكم وآخـركم**

(١) انظر: فتح القدير جـ ٣ ص ٩٦ المصدر السابق.

(٢) انظر: الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٨ المصدر السابق.

(٣) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٤ - ١٢٥ ط دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.

(٤) سورة ابراهيم الآية ٨.

(٥) انظر الطبري أيضاً في المصدر السابق نفسه.

وإنسكم وجنكم كانوا علي أتقي قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر(١)، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»(٢)

وقال الزمخشري: وقال موسى: إن تكفروا أنتم يا بني إسرائيل والناس كلكم فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتوها الخير الذي لابد لكم منه وأنتم إليه محاويج، والله غني عن شكركم حميد مستوجب للحمد بكثرة أياديه وأنعمه وإن لم يحمده الحامدون(٣).

٥ ـ الدعوة إلى الله في هذه الآيات:

وإذا أنعمنا النظر في هذه الآيات السابقة وجدنا الدعوة إلى الله تعالى فيها على هذا النحو:

بينت خصائص الدعوة فهي أوضحت:

١ ـ خصوصية الدعوات غير دعوة الإسلام، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

---

(١) هذا ضرب مثل مبالغة ومعناه أن ما عنده لا ينقص شيئاً، لأن ما عند الله لا يدخله النقص، وبالغ في ضرب المثل لأن البحر من أعظم المرئيات، والابرة من أصغر الموجودات، فدل هذا على أن المراد عدم النقص أصلاً وإنما هو تقريب إلى الافهام. انظر: شرح النووي لمسلم جـ ١٦ ص ١٣٣ ط دار الفكر بيروت ـ لبنان.

(٢) صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٥ المصدر السابق.

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٨ المصدر السابق.

مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . . . ﴾[1]

وفي قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ . . . . ﴾[2].

ثانياً: بينت الآيات بعض أهداف الدعوة:

١ ـ إخراج الناس من الظلمات إلى النور وذلك في قوله تعالى: ﴿ . . . أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . . . . ﴾[3]

٢ ـ انجاؤهم من الشرور والآثام والعذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ . . . إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ . . . ﴾[4]

٣ ـ شكر الله وطاعته يستوجبان الزيادة من النعم، وذلك في قوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ . . . ﴾[5]

٤ ـ معصيته تعالى تستوجب عذابه، وذلك في قوله: ﴿ . . . وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[6]

ثالثاً: بينت الآيات بعض أساليب الدعوة وذلك فيما يلي:

١ ـ أسلوب الترغيب، وذلك في الاخراج من الظلمات إلى النور وفي قوله: ﴿ . . . لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[7]

٢ ـ أسلوب الترهيب وذلك في قوله: ﴿ . . وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[8]

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٥ .
(٢) سورة ابراهيم الآية ٦ .
(٣) سورة إبراهيم الآية (٥).
(٤) سورة إبراهيم الآية (٦).
(٥) سورة إبراهيم الآية ٧.
(٦) سورة إبراهيم الآية ٧.
(٧) سورة إبراهيم الآية ٧.
(٨) سورة إبراهيم الآية ٧ .

٣ ـ أسلوب التذكير، وذلك في قوله: ﴿... وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ...﴾[١].

٤ ـ أسلوب القصة، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾[٢] إهـ.

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٥ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٥ .

القسم الثاني

عموم دعوة الإسلام
وأدلة ذلك من الكتاب والسنة والإجماع

وفيه عدة مباحث

وقبل بيان هذا العموم لابد لنا من إلقاء بعض الأضواء على تفسير هذه الآيات :

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ : تركنا الكلام على البسملة لكثرة من تكلم عليها من العلماء، ولوجود الكلام عليها في أي كتاب من كتب التفسير وغيرها، فمن أراد الوقوف على ذلك فليراجع تفسير الفخر الرازي وابن كثير.

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ (٣) ﴾

المعنى الإجمالي للآيات :

يخبر الله تبارك وتعالى نبيّه محمداً ﷺ بأنه أنزل عليه هذا الكتاب الذي

---

(١) الآيات (١/ ٣) من سورة إبراهيم .

هو القرآن الكريم، وبين تعالى علة إنزاله لهذا الكتاب فأخبر أنه أنزله لتخرج به يا محمد الناس من بني البشر وغيرهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل بالله إلى نور العلم به، وأفاد آخر الآية أن الإخراج المذكور وان أسند اليك يا نبي الله لا يؤثر الا بتيسير من الله جل وعلا لخلقه إلى الهداية فإذا يسر تعالى لخلقه الهداية اهتدوا إلى صراط العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما من جميع المخلوقات ، وأفاد آخر الآية الثانية التهديد الشديد لمن لم يقبل دعوة الرسول ﷺ من المشركين الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة وصدوا الناس عن طريق الله المستقيم بعد أن صدوا عنه، ولم يأخذوه، وكانوا يبغونه عوجاً، وأوضح آخر الآية الثالثة أن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات في ضلال بعيد أي ذي بعد عن الحق.

هذا معنى الآيات مجملاً ومختصراً، وسوف أتكلم عليها تفصيلاً جملة بعد جملة إن شاء الله، وقد تبين لنا من عرض هذه الآيات ما يلي :

١ ـ أن هذا الكتاب المذكور هو القرآن الكريم .

٢ ـ أن هذا الكتاب معجز عجز جميع الخلق عن معارضته .

٣ ـ إثبات رسالة محمد ﷺ بالأدلة القطعية .

٤ ـ عمومها وشمولها لمصالح العباد في كل زمان ومكان بما في ذلك شمولها للملائكة والجن ويأجوج ومأجوج .

٥ ـ اشتملت هذه الآيات الثلاث على أعظم أهداف الدعوة إلى الله وأهمها وهو انقاذ الناس من الكفر إلى الإيمان كما اشتملت على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وأنه المتصرف في الكون وحده .

٦ ـ في الآية الثانية أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله وهو أسلوب الترهيب، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه الآيات الثلاث . قوله تعالى : ﴿الر﴾ اختلف العلماء في الحروف المقطعة في أوائل السور اختلافاً كثيراً ، أذكر

لـك ثلاثـة من أقـوالهم في المراد بهـا ظهرت لي قوتهـا، ثم أذكـر الأظهـر عندي من هذه الثلاثة.

١ ـ قال بعض العلماء: انها مما استأثر الله تعالى بعلمه، ويـروي هذا القـول عن الخلفاء الأربعة الراشدين وابن مسعود وغيرهم.

٢ ـ قيل انها أسماء للسور افتتحت بها، روى هذا القول عن عبد الـرحمن بن زيـد بن أسلم ومجاهـد وقتادة، وحكى الـزمخشري عليـه اطباق الأكثـر من العلماء، ويؤيده حديث الصحيحين عن أبي هريرة وابن عباس أنه ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ألم السجدة وهل أتى على الانسان[١].

كما يدل له قول الشاعر:

يـذكرني حـم[٢] والـرمـح شاجـر   فـهـلا تـلاحـم قـبـل الـتـقـدم

٣ ـ وهذا هو أرجح الأقوال في نظري وهو أن هذه الحروف ذكـرت مقطعـة في أوائل هذه السور بياناً لإعجـاز القـرآن، وأن الخلق عاجـزون عن معارضتـه مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وحكى هـذا القول عن المبرد وقطرب والفراء ونصره الزمخشري في كشافـه، وقال ابن كثير انه مذهب ابن تيمية والمزي.

ووجه ظهور هذا القول عندنا على القولين السابقين وغيـرهما أن القـرآن بطريق الاستقراء كلما افتتحت منه سورة بهذه الحروف المقطعة يذكر بعد هـذه الحروف دائماً الانتصار للقرآن وبيان إعجـازه بـأنه الحق الـذي لا شك فيـه ولا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة في باب مـا يقرأ في صـلاة الفجر يـوم الجمعة. ومسلم في كتاب الجمعة في باب ما يقرأ في يوم الجمعة.

(٢) قوله حم وأعرابه لها اعراب ما لا ينصـرف فيه دلالـة على أنها اسم للسـورة ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث اللفظي.

ريب، قال في سورة البقرة ﴿آلم﴾ ثم قال بعدها: ﴿ذَٰلِكَ الكِتَٰبُ لا رَيْبَ فيهِ...﴾.

وقال في سورة آل عمران ﴿آلم﴾ وأتبعها بقوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ.....﴾.

وقال في مطلع سورة هود: ﴿آلر﴾ وأتبعها بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.....﴾.

وقال في سورة فصلت: ﴿حم﴾ وأتبعها بقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ آيَٰتُهُ...﴾ إلى غَيرِ ذلك مما يطول ذكره.

فهذا الاستقراء التام للقرآن الكريم وأنه كلما ذكر سورة مفتتحة بهذه الحروف المقطعة أتبع ذلك بما يدل على أن القرآن حق، وأنه من عند الله، وأنه لا ريب فيه ولا شك، وهذا هو الاعجاز بعينه لأنه إذا ثبت أنه من عند الله استحالت معارضة الخلق له، وفي هذا التنبيه الواضح للمخاطبين على عجزهم عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف التي هي لغتهم التي يتخاطبون بها ليلاً ونهاراً[1].

وقوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾[2].

هذا أول هدف من أهداف الدعوة إلى الله تعالى في سورة إبراهيم خليل الرحمن، وهو الهدف الأساسي إذ كل هدف سواه تابع له: وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده وقد تقدم الكلام عليه في القسم الذي قبل هذا بما يغني عن إعادة الكلام عليه.

---

(١) انظر: أضواء البيان جـ٣ ـ ٤ ط المدني.

(٢) آية ١ من سورة ابراهيم.

والمعنى : هذا كتاب عظيم أنزله الله إليك يا محمد لتخرج به الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وإسناد الاخراج إليه عليه السلام تشريف له من حيث المشاركة في تحصيل الهداية بإنزاله تعالى القرآن ،وباخراجه عليه السلام إذ هو الداعي والمنذر، وإن كانت الهداية في الحقيقة لله تعالى، والناس عام إذ هو مبعوث إلى الخلق كلهم ، والظلمات والنور مستعاران للكفر والإيمان.

ولما ذكر تعالى علة الانزال التي هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور أخبر أن ذلك الاخراج لا يحصل الا بتسهيل مالكهم وخالقهم المتصرف فيهم ، فقال : ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتسهيله.

ولما كان قوله ﴿إلى النُّور﴾ فيه نوع من الابهام، أوضح ذلك بقوله: ﴿إلى صِراطٍ﴾.

ولما تقدم شيئان أحدهما إسناد إنزال هدا الكتاب إليه تعالى والثاني إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ناسب ذكر صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة، وذلك من حيث انزال الكتاب وصفة الحمد المتضمنة إستحقاقه الحمد من حيث الاخراج من الظلمات إلى النور، إذ الهداية إلى الإيمان نعمة عظمى يجب على العبد شكرها، وتقدمت صفة العزيز لتقدم ما دل عليها، ثم صفة الحميد لتلو ما دل عليها(١).

وهذا الكتاب المذكور في هذه الآية هو القرآن بلا شك، وإذا فلابد من الكلام على القرآن من عدة نواح ، بحيث يشمل ذلك تعريفه لغة واصطلاحاً، وأنه هو المعجزة العظمى التي قامت عليها الدعوة الاسلامية وإثبات كونه من عند الله، وبيان كونه معجزاً ، والقدر المعجز منه، وبيان حفظه من التغيير والتبديل.

---

(١) انظر : البحر المحيط لأبي حيان جـ ٥ ص ٤٠٣ ط الثانية دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

وذلك لأن القرآن الكريم هو أساس الدعوة إلى الله تعالى وأساس نجاح الداعية ، والدعوة إلى الله تعالى لا تنطلق إلا منه ابتداء ولا تستدل إلا به أولاً، ولا تستند إلا عليه على وجه اليقين والقطع ولا تنجح وتؤتي ثمارها إلا إذا حفلت بآيه، وتوجهت بتوجيهاته وكذلك الداعي لا يؤثر في مستمعيه ولا فيمن يدعوهم إلا به، لهذا كله كان لزاماً علي أن أتكلم عليه من عدة نواح .

كذلك دلت الآية الأولى من الآيات على عموم الدعوة الاسلامية فلابد من بيان ذلك في القسم إن شاء الله حسب الإمكان.

المبحث الأول

في تعريف القرآن

القرآن لغة : مصدر قرأ زيدت فيه الألف والنون كما زيدتا في الغفران والرجحان، وهذا المصدر بمعنى اسم المفعول، فمعنى القرآن : المقروء أي المتلو أو المظهر المبرز ، ومن الأخير قولهم :

ما قرأت الناقة : سلا أي ما أبرزت وأظهرت جنيناً من بطنها[١].

وقيل : إنه مصدر قرأ بمعنى جمع ، تقول العرب : قرأت الماء في الحوض أي جمعته فيه، فهو على هذا مصدر بمعنى اسم الفاعل فالقرآن بمعنى قارىء أي جامع لثمرات الكتب السماوية التي أنزلت قبله مع زيادته عليها، وعلى كلا المعنيين فهو مهموز، والهمزة فيه أصلية، ووزنه فعلان ، وذهب الشافعي إلى أنه غير مهموز وأن النون فيه أصلية ولم يؤخذ من قرأ، ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل وقال قوم : إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر . وقال الفراء : إنه مشتق من القرائن لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً فهي قرائن، وعلى هذين القولين فهو غير مهموز أيضاً. لكن يقول الزجاج : إن هذا سهو والصحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمز إلى الساكن قبله.

وقال قوم : إنه وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع وليس

---

(١) طالع الاتقان جـ ١ ص ٥١ وشرح الشيخ محمد الأمين الشنقيطي لمراقي السعود ـ مخطوط ص ٤٢ .

بمصدر[١] .

وعلى قول من قال إنه غير مهموز فوزنه على ذلك فعال[٢] .

ثم ان القرآن نقل في عرف الشارع من المصدر وجعل علماً على هذا المقروء المتعبد بتلاوته من اطلاق المصدر وارادة اسم المفعول ومما يدل على أنه مصدر، وروده بمعنى القراءة في قوله تعالى :﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾[٣] .

فقرآنه في الآيتين . . بمعنى قراءته[٤] .

أما القرآن في الاصطلاح فهو : كلام الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ، المعجز بلفظه ومعناه ، المتحدي بأقصر سورة منه ، المتعبد بتلاوته، المنقول الينا بطريق التواتر .

محترزات التعريف :

قولنا : كلام الله خرج به كلام غير الله، ودخل فيه جميع كلام الله كالتوراة والانجيل قبل تحريفهما، وغيرهما من سائر الكتب السماوية، وخرج

---

(١) انظر : الاتقان جـ ١ ص ٥١ .

(٢) والصحيح مذهب الجمهور وأنه مهموز والهمزة فيه أصلية ، والنون والألف زائدتان ، أما الشافعي رحمه الله فإنه يقرأ القرآن بحرف ابن كثير وعبد الله بن كثير يقرأ لفظة القرآن في جميع مواضعها بنقل حركة الهمزة الى الراء قبلها ، فيقرأ قرآن ، فلعل ذلك هو السر في قوله : أن النون أصلية ، ولكن الصحيح أن ذلك تخفيف للهمزة لا غير ، كقوله سلهم وأشباه ذلك مما خفف القراء فيه الهمزة بنقل حركتها الى الساكن قبلها .

طالع : كتاب الكشف عن وجوه القراآت السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفي سنة ٤٣٧ هـ ـ تحقيق الدكتور محيي الدين رمضان جـ ١ ص ١١٠ ط مجمع اللغة العربية بدمشق .

(٣) الآيات (١٦ ـ ١٧ ـ ١٨) من سورة القيامة .

(٤) مباحث في علوم القرآن للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ٣ ـ ٤ .

الجميع بقولنا : المنزل على محمد ﷺ، وقولنا : المعجز بلفظه ومعناه المتحدي بأقصر سورة منه خرج به الاحاديث القدسية على القول بأن ألفاظها منزلة من عند الله وأما على رأي من يرى أن معانيها من عند الله، وألفاظها من عند رسول الله ﷺ فقد خرجت بالقيد الأول.

وقولنا : المتعبد بتلاوته قيد ثالث خرجت به الآيات التي نسخت تلاوتها، وقولنا : المنقول الينا بطريق التواتر خرجت به القرآت التي نقلت الينا عن طريق الآحاد[1].

هكذا عرفوا القرآن في الاصطلاح[2].

---

(١) طالع : مباحث في علوم القرآن للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ٣ ـ ٤ .

(٢) والقرآن هو الكتاب بلا شك ، ومن ادعى أنه غيره كما ذكر ابن قدامة في روضة الناظر ص ٣٣ عن قوم فهو غلط ، قال : وقال قوم : الكتاب غير القرآن ، قال : وهو باطل ، واستدل على بطلانه بالقرآن ، قال : قال الله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه** . . . ﴾ آية (٢٩) وجزء من آية (٣٠) من سورة الأحقاف ، وقالوا : ﴿ **انا سمعنا قرآناً عجباً** . . . ﴾ جزء من آية (١) من سورة الجن .

ويظهر أن المراد عند القائلين بتغاير الكتاب والقرآن : تغاير المفهوم لا تغاير المصدوق ، فإنما يصدق عليه القرآن هو ما يصدق عليه الكتاب ، وهذا هو القرآن العظيم وإن كان التغاير حاصلاً في مفهومهما فإن مفهوم الكتاب هو اتصافه بأنه مكتوب ، ومفهوم القرآن هو اتصافه بأنه مقروء ، فهو شيء واحد موصوف بصفتين مختلفتين ، ومن هنا يظهر أن القرآن والكتاب شيء واحد باعتبار المصدوق ، وأن تغاير باعتبار المفهوم .

طالع : مذكرة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أصول الفقه ص ٥٥ .

المبحث الثاني

القرآن هو المعجزة العظمى

المعجزة هي : الأمر الخارق الذي عجز المتحدون عن الاتيان بمثله .

أو هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم عن المعارضة(١) .

ولقد قامت رسالة نبينا محمد ﷺ على معجزة القرآن وثبتت به ثبوتاً قطعياً، وإن كان قد أيد بمعجزات كثيرة فاقت الحصر إلا أن المعجزة الخالدة العامة إلى يوم القيامة هي القرآن الكريم وذلك لأنه أقام الله به الحجة على خلقه، ولا تقام عليهم الحجة به إلا إذا كان دالاً على صدق رسالة من أنزل عليه .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني .

فأما الذي يبين ما ذكرناه من أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليه سور كثيرة وأيات نذكر بعضها وننبه بالمذكور على غيره فمن ذلك قوله تعالى ؛ ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾(٢) .

فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٢ ص ١١٦ ط الثالثة الحلبي وشركاؤه بمصر .

(٢) آية ١ في سورة ابراهيم .

تكون الحجة إن لم تكن معجزة، وقال عز وجل : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[1] .

فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يوقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[2]

فأخبر أن علة إنزاله الانذارية ولا يصح به الإنذار إلا إذا كان حجة ولا يكون حجة إلا إذا كان معجزة. . . الخ[3] .

(١) جزء من آية (٦) من سورة التوبة .

(٢) الآيات (١٩٢ ـ ١٩٥) من سورة الشعراء .

(٣) اعجاز القرآن للباقلاني بهامش الاتقان جـ ١ ص ٨ ـ ١١ المصدر السابق .

المبحث الثالث

في الأدلة على إعجاز القرآن

إن إعجاز القرآن من الأمور التي لا تكاد تجد مخالفاً يخالف فيها فقد ثبت إعجازه ثبوتاً قطعياً بنصوص القرآن، وإن كان علماء الأمة سلفاً وخلفاً اختلفوا في وجه الاعجاز منه وفي القدر الذي يقع به الاعجاز. كان كل نبي يبعث في زمن اشتهر في ذلك الزمن علم تخصصت فيه جماعات من الناس بلغوا الغاية القصوى في معرفته، كالسحر زمن بعثه موسى عليه السلام، فقد اشتهر أهل مصر في ذلك الزمان بالسحر وبلغوا فيه القمة، ولذلك فإن سحرة فرعون لما رأوا المعجزة علموا أنها ليست من نوع تخصصهم لخبرتهم بالسحر فآمنوا في الحين، فكانت معجزة موسى من هذا النوع، وفي زمن عيسى عليه السلام اشتهر الناس بالطب وبلغوا فيه الحد الأقصى فجاءت معجزة عيسى من ذلك القبيل يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله .

وهناك رأي آخر في وجه معجزات عيسى عليه السلام، وهو أن اليهود كانوا في ذلك الزمان فرقاً، فرقة منهم مادية بحتة لا تؤمن بما وراء المادة فبعث الله نبيه عيسى يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ليعلموا أن هناك شيئاً غير المادة. وطائفة منهم تنكر البعث فكان بعض معجزات عيسى إحياء الموتى بإذن الله وكانت منهم طائفة تقول بتأثير الاسباب، في المسببات أي بلزوم المعلول عند وجود العلة فيقولون إن العالم يلزم وجوده من وجود الله لا عن قدرة ولا ارادة فجاء بعض معجزات عيسى

يرد ذلك المعتقد وهو إبراؤه الأكمه والأبرص بدون وجود سبب، هكذا قيل في توجيه معجزات عيسى عليه السلام[1].

وكانت بعثة نبينا محمد ﷺ بين قوم اشتهروا بالفصاحة والبلاغة فقد بعث بين فصحاء قريش، وكانت العرب تتحاكم في الفصاحة بين أيدي قريش إذ كانوا يجتمعون في أسواقهم، كعكاظ، والمجاز ويلقون الخطب والقصائد ويتفاخرون بالفصاحة ويتحاكمون لدى الحكماء هناك لهذا كانت قريش أفصح العرب لأن العرب يفدون إليها جميعاً فتأخذ من جميع لغاتهم الأفصح منها.

لهذا كانت معجزته ﷺ العظمى في القرآن المشتمل على جميع أنواع الفصاحة والبلاغة.

وقد تحدوا بجميع القرآن فعجزوا عن الاتيان بمثله وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[2].

فعجزوا عن ذلك وهم مجتمعون بمكة، وتحداهم فيها أيضاً بالاتيان بعشر سور مثله فعجزوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾[3].

ثم تحداهم بسورة واحدة من مثله وذلك في قوله جل وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ

---

(١) طالع محاضرات في النصرانية للاستاذ: الشيخ / محمد أبو زهره ص ٢٢ ط المدني الثالثة.
(٢) آية (٣٣ - ٣٤) من سورة الطور.
(٣) آية (١٣) من سورة هود.

ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]

كل هذه التحديات وقعت بمكة وفصحاء العرب موجودون، ثم وقع التحدي بالمدينة أيضاً بسورة واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[2].

ومع هذا فإنهم عجزوا عن الإتيان بمثله وعن الإتيان بعشر سور وعن الإتيان بسورة واحدة من مثله كما أخبرنا تعالى بذلك في قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[3].

وقال بعد التحدي بسورة واحدة ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ . . . ﴾[4].

فقد ثبت عجزهم عن معارضة القرآن ولجأوا إلى التضحية بالنفس فحاربوه ﷺ، ولو لم يكونوا عاجزين عن معارضة القرآن لما تركوا الأخف وعمدوا إلى الأصعب، فموت الرجال وسبى النساء أصعب من معارضة القرآن بكلام يتفق معه في الحروف، ولكنهم عجزوا عن ذلك إنهم تحدوا بذلك وطال التحدي به، ولما عجزوا لجأوا إلى الحرب فاستبيحت دماؤهم وأموالهم وسبيت ذراريهم، فلو كانوا يقدرون على الاتيان بمثله لفعلوا وتوصلوا إلى

---

(١) آية (٣٨) من سورة يونس .

(٢) آية (٢٣) من سورة البقرة .

(٣) آية (٨٨) من سورة الاسراء .

(٤) جزء من آية (٢٤) من سورة البقرة .

تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم بأمر معهود عندهم ومألوف من خطبائهم وبسطائهم، لا سيما القرآن مع هذا فند آلهتهم، وسفّه آراءهم، وأبطل ديانتهم وضلل آباءهم ومن المعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين لأمره وتكذيب لقوله، وتفريق لجمعه، وكان من صدق به يرجع على أعقابه ويعود في مذهب أصحابه فلما لم يفعلوا ذلك مع طول المدة، وكان أمره يتزايد وأمرهم يضمحل وعجزهم يتزايد علم أنهم عاجزون عن معارضته وأنه معجز[1] .

(١) ملخصاه من اعجاز القرآن للباقني من أول الكتاب الى ص ٣٠ المصدر السابق .

المبحث الرابع
في إثبات نص القرآن وحفظه من التغيير والتبديل

إن هذا القرآن المحفوظ في الصدور المتلو بالألسن المكتوب في المصاحف هو القرآن الذي نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ وتلاه على أصحابه وحفظوه عنه وكتبوه في حياته وجمعه خليفتاه من بعده أبو بكر وعثمان رضي الله عنهما، لم يدخله تحريف ولا تغيير ولا تبديل لا يستطيع أحد أن يغير فيه كلمة واحدة ولا أن يغير حرفاً مكان حرف، ولا يستطيع أحد أن يقدم فيه ولا يؤخر ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

قال الباقلاني . . . والطريق إلى معرفة ذلك: النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم الضروري به وذلك أنه قام به في الموقف وكتب به إلى البلاد وتحمله إليها عنه من تابعه وأورده على غير من لم يتابعه حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشتبه على أحد . . . حتى انتشر في بلاد العرب كلها، وتعدى إلى الملوك، كملك الروم والقبط والحبشة وغيرهم من ملوك الأطراف .

---

(١) آية (١٥) من سورة يونس .

ولما وقع ذلك مضاداً لأديان أهل ذلك العصر ومخالفاً لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر وقف جميع أهل الخلاف على جملته، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان به على جملته وتفاصيله وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير إذ كان عمدة دينهم وعلماً عليه والمفروض تلاوته في صلاتهم، والواجب استعماله في أحكامهم، ثم تناقله خلف عن سلف، ثم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله حتى انتهى إلينا ما وصفناه من حالة فلن يتشكك أحد ولا يجوز أن يتشكك مع وجود هذه الأسباب في أنه أتى بهذا القرآن من عند الله[1] .

وإنما ساق القاضي أبو بكر هذا الكلام ليبين أن نص ا لقرآن ثبت بطريق تفيد العلم الضروري، لأنه لا يثبت إلا عن طريق التواتر الذي يفيد العلم اليقين وهذا مصداق قوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[2] .

فالله جل وعلا أخبر أنه هو الذي نزل هذا القرآن على نبيه محمد ﷺ وأنه حفظه من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، وحفظه من الشيطان بخلاف غيره من الكتب المتقدمة فإنه تعالى لم يتكفل بحفظها بل قال: إن الربانيين والأحبار استحفظوها، وذلك في قوله : ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ...﴾[3] .

ولذلك وقع فيها الاختلاف، وحفظه إياه دليل على أنه من عنده تعالى، إذ لو كان من قول البشر لتطرق إليه ما تطرق لكلام البشر[4] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ

(١) اعجاز القرآن للباقلاني جـ ١ ص ١٩ ـ ٢١ المصدر السابق .

(٢) آية (٩) من سورة الحجر .

(٣) جزء من آية (٤٤) من سورة المائدة .

(٤) طالع البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٦ المصدر السابق .

لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[1]

فهاتان الآيتان تكفيان في الدلالة على حفظ القرآن الكريم من تغيير أهل السوء وتبديلهم وكيدهم فقد أخبرنا بحفظه من كل ناحية يتطرق إليها من التبديل والتغيير والتحريف .

(١) جزء من آية (٤١) ، وآية (٤٢) من سورة فصلت .

المبحث الخامس

القرآن من عند الله

تقدم فيما مضى أن القرآن معجزة، وأنه هو المعجزة العظمى التي قامت عليها الدعوة الإسلامية، وتقدم أنه وصل إلينا عن طريق التواتر، وأثبتنا أنه محفوظ من التغيير، والتبديل، والآن سوف أبين لك أنه كلام الله لا دخل لمخلوق فيه بأي نوع لم تتطرق إليه أفكار المخلوقين بتغيير ولا تبديل كما قدمنا ، فالقرآن أنزله الله على نبيه محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام فهو من عند الله حقاً، ومن قال إنه من كلام البشر وأنه دونه رسول الله ﷺ من شدة ذكائه وفصاحته فقد أعظم الفرية على الله تعالى وسوف يصليه سقر .

الآيات الدالة على أن القرآن من عند الله :

قال تعالى : ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾﴾(1)

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ..﴾(2) .

---

(١) آية ١ - ٢ - ٣) من سورة فصلت .

(٢) آية (١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤) من سورة الشعراء .

وقال تعالى : ﴿ وانه لكتاب عـزيز لا يـأتيه البـطل من بين يديـه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] .

وقـال تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ . . . ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[3] .

إلى غير ذلك من الآيـات الكثيرة التي دلت على أن القـرآن من عند الله تنـزيل العزيز الرحيم .

---

(١) تقدمت .

(٢) جزء من آية (٥١) من سورة العنكبوت .

(٣) آية (٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣) من سورة الحاقة .

المبحث السادس

في وجه الإعجاز في القرآن الكريم

لما قامت الأدلة على اعجاز القرآن وكونه من عند الله لزم الاهتمام بمعرفة وجه الاعجاز والقدر المعجز منه، وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافاً كثيراً، وسبب ذلك أن القرآن لا يتكلم في مسألة من مقاصد الشرع إلا ظهر في تلك المسألة نوع من اعجازه إما في تأليفه، وإما في اخباره بالمغيبات المستقبلة، وإما في اخباره بقصص الأمم الماضية وإما في أحكامه إلى غير ذلك، فلهذا اختلف رأى العلماء في وجه الاعجاز فيه بعد اجماعهم على أنه معجز.

١ ـ قال بعضهم إن وجه الاعجاز فيه هو: ما تضمنه من الأخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين فقد حكاها حكاية من شاهدها وحضرها كقصة صالح وناقته وقصة موسى ومناجاته، وكقصة يوسف مع أهل مصر، وقصة إبراهيم مع النمرود، وبنائه البيت، وهمه بذبح ولده وقصة عيسى وأمه إلى غير ذلك.

٢ ـ وقال قوم إن وجه الاعجاز فيه ما أخبر به عن الغيوب المستقبلة ولم يكن ذلك من شأن العرب فوقعت كما هي كقوله تعالى ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾[1].

(١) آية (١ ـ ٢ ـ ٣) وجزء من آية ٤ من سورة الروم.

وكقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اخباره بالمغيبات المستقبلة[٢] .

٣ ـ قيل إن وجه الاعجاز هو: ما فيه من النظم والتأليف، والترصيف وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، ومباين لأساليب خطابتهم، فله أسلوب يختص به، ويتميزه في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. . . ولهذا لم تمكنهم معارضته ولا سبيل إلى معرفة اعجاز القرآن من أصناف البديع التي أودعوها في الشعر لأنه ليس مما يخرق العادة[٣] .

٤ ـ وقال الإمام فخر الدين الرازي إن وجه اعجاز القرآن هو: الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب .

٥ ـ وقال ابن عطية: الصحيح الذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه[٤] .

٦ ـ وقال النظام إن اعجاز القرآن بالصرفة أي أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات، وله قول آخر في وجه الاعجاز وهو أنه يرى أن إعجازه إنما كان من حيث الاخبار عن الأمور الماضية والآتية[٥] .

---

(١) جزء من آية (٢٧) من سورة الفتح .

(٢) انظر الاتقان جـ ٢ ص ١١٨ المصدر السابق .

(٣) طالع اعجاز القرآن للباقلاني جـ ١ ص ٥١ المصدر السابق .

(٤) طالع الاتقان جـ ٢ ص ١١٩ المصدر السابق .

(٥) انظر اعجاز القرآن للرافعي ص ١٤٤ ط دار الكتاب العربي بيروت .

وقد رد السيوطي القول بالصرفة كما رده غيره، قال: وهذا قول فاسد بدليل. . . . . الخ .

فانظره إن شئت .

٧ ـ قال القاضي عياض إن وجوه الإعجاز تنحصر في أربعة .

أولها : حسن تأليفه والتئام كلمه، وفصاحته ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحكم مالم يخص به غيرهم من الأمم . . .

الوجه الثاني : إن من أوجه إعجازه صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آياته وانتهت فواصل كلماته إليه ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم وتدلهت[1] دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نظم أو نثر، أو سجع أو رجز، أو شعر .

الوجه الثالث : هو ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات، ومالم يكن ومالم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر كقوله تعالى: ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ ﴾[2] .

وقوله: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ . . . لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ . . . ﴾[4] .

---

(١) أي ذهبت القاموس مادة (دله) .

(٢) جزء من الآية ٢٧ من سورة الفتح .

(٣) جزء من الآية ٣ من سورة الروم .

(٤) جزء من آية (٩) من سورة الصف .

وقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾[١] .

وقوله : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾[٢] .

فكان جميع هذا كما قال .

الوجه الرابع : ما أخبر به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده النبي ﷺ على وجهه ويأتي به على نصه . . . وقد علم أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بدراسة ولم يتغيب عنهم ولا جهل أحد منهم حاله . . .[٣] ثم قال بعد كلامه هذا إن هذه الوجوه بينة لا نزاع فيها ولا مرية، وفيه أوجه أخرى عدد منها كثيراً .

منها أنه آية باقية لا يعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه، ومنها أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الاكباب على تلاوته يزيده حلاوة وترديده يوجب له محبة . . . الخ .

٨ ـ وقال الجاحظ إن وجه الأعجاز في القرآن : كونه في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها[٤] وقد حكى العلماء أوجهاً كثيرة غير ما ذكرت يطول ذكرها والذي أختاره من جميع ما وقفت عليه من أوجه الاعجاز ما ذكره الزركشي في البرهان فإنه قال بعد أن ذكر الكثير من الأقوال في وجه الاعجاز : إن أهل التحقيق على أن الاعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد

(١) جزء من آية (٥٥) من سورة النور .

(٢) آية (١) من سورة النصر .

(٣) انظر الشفا للقاضي عياض جـ ١ ص ٢١٢ ـ ٢٢٣ مختصراً منه .

(٤) اعجاز القرآن للرافعي ص ١٤٦ المصدر السابق .

منها على انفراده، فإنه جمع ذلك كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مالم يسبق. . الخ كلامه[1] لأن هذا هو الذي يناسب شأن القرآن، لأنه ضم جميع ما ذكر، فما من قول قيل إلا ووجه الاعجاز فيه ظاهر إلا القول بالصرفة فإنه ليس بظاهر عندي كما تقدم عن السيوطي رده، وهذا لا ينافي أن بعضه يحصل به الاعجاز لأن القرآن سور كثيرة اختلفت فيها الأساليب وأنواع القصص، ووردت فيها أخبار القرون السالفة، وفيها أخبار المغيبات المستقبلة وفيها ذكر الوعد والوعيد، وذكر التشريع والعقائد، فكل طريقة سلكها القرآن ظهر اعجازه فيها، ولا يقال على هذا إن الاعجاز وقع بمجموعه بل يقال إنه وقع بجميعه .

---

(١) البرهان في علوم القرآن بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي جـ٢ ص ١٠٦ الثانية دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

المبحث السابع

في القدر المعجز من القرآن

تقدم لك فيما مضى إثبات اعجاز القرآن، وذكر اختلاف العلماء في أوجه الاعجاز وبيان المختار من ذلك، والآن سأذكر لك الخلاف في القدر المعجز من القرآن .

قال بعض العلماء :

إن الاعجاز وقع بمجموعه، وقد قدمت أن هذا القول غير صحيح لأن التحدي وقع بسورة واحدة منه، وهذا القول لبعض المعتزلة .

وقال آخرون : إن الاعجاز يقع بسورة طويلة منه أو قصيرة .

وقال آخرون : يقع بسورة أو قدرها من الكلام .

وقال قوم إن الاعجاز يقع بقليل القرآن وكثيره .

وقالت طائفة إنه لا يقع بأية واحدة .

قال السيوطي في الاتقان : تنبيهات .

الأول : اختلف في القدر المعجز من القرآن فذهب بعض المعتزلة إلى أنه متعلق بجميع القرآن، والآيات السابقة ترده[1]، وقال القاضي يتعلق

---

(١) يشير بذلك الى ما قدمه في قصة اسلام جبير بن مطعم لما سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخلقون** . . . ﴾ الى قوله ﴿ **المصيرون** ﴾ . آيات (٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧) نت سورة الطور .

الإعجاز بسورة طويلة كانت أو قصيرة تشبثاً بظاهر قوله (بسورة)، **وقال في موضع آخر** يتعلق بسورة أو قدرها من كلام يتبين فيه **تفاضل قوى البلاغة قال: فإذا** كانت آية بقدر حروف سورة، وإن كانت كسورة الكوثر **فذلك معجز قال: ولم** يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر - وهذا القول هو الذي ذكرته في الحد حيث قلت المعجز بأقصر سورة منه - لأنه أقرب الأقوال عندي في الحد .

وقال قوم : لا يحصل الاعجاز بآية، بل يشترط الآيات الكثيرة.

وقال آخرون : يتعلق بقليل القرآن وكثيره لقوله: ﴿ **فليأتوا بحديث مثله** ﴾ .

قال القاضي: ولا دلالة في الآية لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة إهـ [١].

---

(١) انظر الاتقان جـ ٢ ص ١٢٣ المصدر السابق .

المبحث الثامن

في تحريف العهدين وتبديلهما وتناقضهما

لما أثبتنا حفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل والضياع والتحريف بالأدلة القاطعة: وكان القرآن الكريم هو المصدر الأول لهذه الشريعة الاسلامية التي نسخت جميع الشرائع المتقدمة عليها كان لزاماً علينا أن نثبت أن التوراة والانجيل اللذين هما مصدرا التشريع عند اليهود والنصارى كما يزعمون محرفان ومغيران ومبدل فيهما، وذلك بنصوص كتابنا الذي أثبتنا أنه حق من عند الله ومحفوظ من كل تغيير وتبديل .

وبنصوص التوراة والانجيل. بما فيهما من التناقضات والاختلافات وغير ذلك مما لا يدع مجالاً للشك في أن هذا التناقض والتخالف من وضع البشر لا من وضع خالق البشر .

النصوصُ القرآنية تدل على تحريف مصادر دين أهل الكتاب

إن الله تبارك وتعالى أخبرنا في غير ما آية من كتابه عن تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم لكتابهم الذي أنزل على موسى عليه السلام، قال الله تعالى﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ . . ﴾[1] .

---

(١) جزء من آية (٤٦) من سورة النساء .

وقال تعالى : ﴿ ... وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾[1] .

وقال تعالى في شأنهم : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[2] .

ذكر العلماء عند تفسير هذه الآية أنها نزلت في ناس من اليهود كانوا يكتبون كتباً يبيعونها للناس ويقولون لهم إنها من عند الله[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[4] .

والمراد بالكتاب الذي نبذوه التوراة أي طرح طائفة من اليهود الكتاب الذي كان بأيديهم وهو التوراة وراء ظهورهم أي تركوا العمل بما فيها لما فيها من البشارة ببعثة محمد ﷺ كأنهم لا يعلمون ما فيها، فاليهود لما جاءهم الرسول ﷺ بالقرآن مصدقاً لما بين أيديهم من التوراة عارضوه وخاصموه فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت

---

(١) جزء من آية (٤١) من سورة المائدة .

(٢) آية (٧٩) من سورة البقرة .

(٣) انظر تفسير ابن كثير عند الآية .

(٤) الآية (١٠١) من سورة البقرة .

وماروت فلم يوافق ذلك القرآن فذلك قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال قتادة معنى قوله لا يعلمون: أنهم كانوا يعلمون ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به[١] .

أما الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ . . . ﴾[٢] .

فقال بعض العلماء أنها نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً وقالوا تعالوا نتحاكم إلى محمد فإن حكم بالدية فاقبلوا، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه .

والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وكانوا أعني اليهود قد بدلوا وحرفوا كتاب الله الذي بين أيديهم من رجم المحصن فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على جلد مائة والتحميم والاركاب على حمار مقلوبين وقد روى البخاري ومسلم أنهم قالوا بعد مجيء الرسول ﷺ إلى المدينة تعالوا نتحاكم إلى هذا الرجل فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه، وجاءوه فقال لهم: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم قالوا نفضحهم ويجلدون، وكان هذا بعد إسلام عبد الله بن سلام فقال أي عبد الله: كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما ﷺ فرجما[٣]

وقال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ

---

(١) طالع تفسير ابن كثير عند تفسير الآية .

(٢) جزء من الآية (٤١) من سورة المائدة .

(٣) أخرج الحديث البخاري في كتاب الحدود في باب أحكام أهل الذمة وأحصانهم إذا زنوا ورفعوا الى الامام . ومسلم في كتاب الحدود في باب رجم اليهود وأهل الذمة في الزنا جـ ٣ ص ١٣٢٦ ط أحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه تعليق محمد فؤاد عبد الباقي .

﴿ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1] .

قال ابن كثير إن محمد بن إسحاق روى عن بعض أهل العلم أن هذه الآية حكاية عن قوم من اليهود سألوا موسى أن يسمعهم كلام الله حين يكلمه فطلب موسى ذلك من الله فأمره أن يأمرهم أن يتطهروا ويطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا وخرجوا معه إلى الطور فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا فوقعوا سجداً وكلمه ربه فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل فلما جاءوهم حرف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبني اسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله، إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل لهم، قال: وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه. قال: هي التوراة حرفوها[2] والآيات بمثل هذا كثيرة شاهدة بأن اليهود حرفوا كتابهم، وجعلوا فيه ما يوافق هواهم وتركوا منه مالا يوافق .

ونحن معاشر المسلمين نعتقد أن الله تبارك وتعالى أنزل على موسى كتاباً ونؤمن بهذا الكتاب كما نؤمن بغيره من الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله كإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم، وزبور داود، وغير ذلك .

فكما نؤمن بجميع الرسل لا نفرق بين أحد منهم، نؤمن بجميع الكتب السماوية لا نفرق بينها، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[3] ولكننا نقطع بأن هذه التوراة الموجودة والأناجيل فيهما تحريف كثير وتغيير

---

(١) آية (٥٤) من سورة البقرة .

(٢) طالع تفسير ابن كثير عند هذه الآية .

(٣) جزء من آية (٢٨٥) من سورة البقرة .

وتبديل كما أثبتنا ذلك بالأدلة القرآنية .

وقد ثبت في السنة أن أهل الكتاب حرفوا في كتبهم وبدلوا وغيروا ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: (يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل عليكم[1] .

التناقضات في العهدين:

بعدما تبين لك أن القرآن من عند الله وأنه محفوظ من التغيير ومن التناقضات، لا بد أن أبين لك أن في هذين الكتابين: التوراة والانجيل الموجودين حالياً ما يثبت أنهما محرفان اذ فيهما ما لا يصح أن ينسب للمخلوق فكيف بالخالق .

١ ـ التوراة فيها ما لا يصح أن ينسب لموسى ففيها ما نصه: (فمات موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فغور، ولم يعرف انسان قبره إلى هذا اليوم[2]

وهل يعقل أن يقول موسى عن نفسه أنه مات في موضع كذا؟ ولم يعرف أحد موضع قبره .

٢ ـ وفيها أيضاً على لسان موسى عليه السلام ما نصه: (وهؤلاء هم الملوك

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : كل يوم هو في شأن ، وفي كتاب الاعتصام في باب قول النبي ﷺ ، لا تسأهلوا أهل الكتاب عن شيء .

(٢) سفر التثنية الاصحاح ٣٤ فقرة ٥ ـ ٧ .

الـذين ملكوا في أرض أدوم قبـل مـا ملك ملك لبني إسـرائيـل)[1] وهـذا الكلام يدل على أنه انما قيل بعد موسى بزمن لأن ملوك بني إسرائيل بدؤا من بعد موسى بزمن طويل .

٣ - ورد في أسفـار العهد القـديم ما يلي : (مفتقـد أثم الآبـاء في الأبنـاء، وفي أبناء الأبناء حتى الجيل الثالث أو الرابع[2] وفيها أيضاً : أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يغضبونني)[3] .

ويوجد في سفر حزقيال ما يناقض هذا ففيـه : (النفس التي تخطىء هي تموت الابن لا يحمل من اثم الأب ، والأب لا يحمـل من أثم الأبن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون[4] فانظر الى هذا التناقض الـذي لا يمكن الجمع بينه بحال من الأحوال مما لا يدع مجالاً للشك أن هـذا الكتـاب الذي أنـزله الله على مـوسى لعبت به أيـدي العابثين الجـاهلين فكتبوا فيه أشياء ما أنزل الله بها من سلطان .

ثانياً العهد الجديد :

مما يجب الإيمان به أن الله أنزل على نبيـه عيسى عليه الصـلاة والسلام انجيلاً كما أخبرنا الله بذلك في الكتاب العزيـز في آيات كثيـرة منه نحـو قولـه تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ . . ﴾[5].

---

(١) سفر التكوين : الاصحاح ٣٦ فقرة ٣١ .
(٢) سفر الخروج الاصحاح : ٣٤ فقرة ٧ .
(٣) سفر التثنية الاصحاح ٥ فقرة ٩ .
(٤) سفر حزقيال الاصحاح ١٨ فقرة ٢٠ .
(٥) جزء من آية (٤٦) من سورة المائدة.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ..﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات.

وتشهد بذلك الأناجيل نفسها التي في أيدي النصارى اليوم فإنها تثبت أن الله أنزل على عيسى إنجيلاً، فالمسلمون والمسيحيون مجمعون على وجود انجيل في زمن عيسى عليه السلام، وهو المصدر الحقيقي للمسيحية ولكن أين ذلك الانجيل؟

إن ذلك الانجيل مفقود، والأناجيل الموجودة بأيدي المسيحيين لا تنسب إلى عيسى وإنما تنسب إلى أصحابها فيقال: انجيل متى، انجيل مرقس، انجيل يوحنا، انجيل برنابا، وفي انجيل مرقس ما يثبت انجيل عيسى عليه السلام ففيه ما يلي: -

(وبعدما أسلم يوحنا جاء (يسوع) الى الجليل يكرز[2] ببشارة الملكوت ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل[3].

وفي رسالة بولس الى أهل رومية: (أولاً: أشكر إلهي يسوع من جهة جميعكم أن إيمانكم ينادى به في كل العالم فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي، كيف بلا انقطاع أذكركم دائماً متضرعاً في صلواتي[4].

فهذه النصوص أثبتت أن لعيسى إنجيلاً.

---

(١) جزء من آية (٢٧) من سورة الحديد.

(٢) يبشر.

(٣) انجيل مرقص الاصحاح الأول فقرة ١٥.

(٤) رسالة بولس الى أهل رومية الاصحاح الأول فقرة ٨.

ولكي تكون المسيحية صحيحة لا بد أن يكون هذا المصدر المجمع على نزوله موجوداً الآن فإذا سألنا أين هذا المصدر؟ فلا نجد جواباً، وبناء عليه يثبت ضياع الانجيل الحقيقي، وتكون المسيحية بلا سند مما يؤدي الى رفضها كديانة سماوية[1].

واليك التناقض في نصوص هذه الأناجيل .

١ - ورد في انجيل يوحنا أن المسيح ابن الله، وورد فيه انه غير الله، وورد فيه أنه هو الله، (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله . .)[2] .

٢ - وفي انجيل مرقس ما يفيد أن المسيح ابن الله[3] وفيه أيضاً ما يفيد أنه ابن انسان (فقام رئيس الكهنة في الوسط وسأل يسوع قائلاً أما تجيب بشيء، ماذا يشهد به هؤلاء عليك، أما هو فكان ساكتاً ولم يجب بشيء فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له أنت المسيح ابن المبارك؟ فقال له يسوع أنا هو وسوف تبصرون ابن الانسان جالساً عن يمين القوة وآتيا في سحاب السماء[4] .

٣ - وفي انجيل لوقا ما يدل على أن المسيح نبي «فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد خرج فينا نبي عظيم »[5] .

وغير هذا كثير مما يدل على أن هذه الأناجيل من صنع البشر لا من كلام الله تعالى ولا صلة لها بالوحي بتاتاً .

---

(١) الدعوة الى الله الدكتور أبو المجد السيد نوفل ص ١٥٩ .

(٢) انجيل يوحنا الاصحاح الأول : فقرة ١ .

(٣) انجيل مرقص الاصحاح الأول فقرة (١) .

(٤) انجيل مرقص الاصحاح ١٤ فقرة ٦٠ - ٦٣ .

(٥) انجيل لوقا الاصحاح ٧ فقرة ١٦ .

زد على ذلك أن أصحاب هذه الأناجيل والرسائل غير معروفين على الحقيقة وكذلك أناجيلهم لا يعرف لتأليفها زمن معين، فيوحنا، وهو صاحب الانجيل المسمى به مختلف في شخصيته، والكثير من كتاب المسيحية يؤكدون أن هذا الانجيل ليس من كتابة يوحنا الحواري، وانما هو ليوحنا آخر.

وفي دائرة المعارف البريطانية ما يلي:

أما انجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه به مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما: القديسان يوحنا ومتى.. وزمن تأليف هذه الأناجيل غير محقق، وما جاء في ذلك من روايات إنما هي لا سند لها كما يقول أحد العلماء المحققين من أهل الكتاب[1].

فظهر مما ذكرت أن الديانتين: المسيحية واليهودية لا يوجد لهما مصدر حقيقي مقطوع به وأن الموجود من مصادرهما إنما هو أفكار بشرية لا تستند هذه الأفكار إلى وحي سماوي، ويظهر بذلك زيفهما وبطلانهما.

يقول رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي في كتابه اظهار الحق ما نصه:

وإذا كان الأمر كذلك فلا نعتقد بمجرد اسناد كتاب من الكتب إلى نبي أو حواري أنه الهامي، أو واجب التسليم، وكذلك لا نعتقد بمجرد ادعائهم بل نحتاج إلى دليل، ولذلك طلبنا مراراً من علمائهم الفحول: السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين الى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة، وتفحصنا في كتب الاسناد

(١) انظر الدعوة الى الله الدكتور أبو المجد السيد نوفل ص ١٦١ - ١٦٢.

لهم فما رأينا فيها شيئاً غير الظن والتخمين، يقولون بـالظن ويتمسكـون ببعض القرائن[1] .

وقبل أن أتكلم على عموم رسالة نبينا محمد ﷺ لا بد من اثبات الرسالة أولاً بـالأدلة القـاطعة من الكتـاب والسنة فـإذا أثبتناهـا تكلمنا بعـد ذلـك على عمومها .

إن اثبات رسالة نبينا ﷺ أمـر معلوم عند المسلمين وغيـرهم ولم ينكرهـا إلا المعـاندون الجـاحدون الـذين يعلمون ثبـوتها ويجحـدونها مستيقنـة بذلـك أنفسهم سواء في ذلك اليهود والنصارى وغير ذلك .

وقد صرح القـرآن الكريم بـاثباتهـا في آيات كثيـرة كما صـرحت بذلـك السنة النبوية، وشواهد ذلك من المعجزات واضحة .

---

(١) اظهار الحق لرحمة الله بن خليل الرحمن الهندي جـ ١ ص ٣٣ ط العلمية سنة ١٣١٥ هـ .

المبحث التاسع

في دلالة القرآن والسنة والاجماع على رسالته ﷺ

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[4].

---

(١) آية (٢٥٢) من سورة البقرة .

(٢) آية (٥٢) من سورة الشورى .

(٣) جزء من آية (٤٥) ن سورة القصص.

(٤) آية (١ - ٢ - ٣) من سورة يس .

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ . . ﴾[1]

فقد تضمنت هذه الآيات إثبات رسالة نبينا ﷺ وذلك حيث قص علينا أخبار الأمم الماضية كقصة شعيب مع أهل مدين، وغيرها من قصص الأمم الماضية ولم يكن حاضراً، ولا تلقى ذلك عن أحد لأنه لا يقرأ ولا يكتب فدل هذا الاخبار الصحيح الموافق للواقع على أنه من عند الله، كما قص علينا قصة مريم عليها السلام وذلك في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]

فهو ﷺ لم يكن حاضراً للقرعة بين زكريا عليه السلام وبين بني إسرائيل أيهم يكفل مريم ولم يكن حاضراً حين اختصموا ولكن ذلك الذي أخبر به من شأنهم وحي من الله، والآيات بمثل هذا أكثر من الحصر.

ثبوتها بالسنة:

ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون »[3] وقال ﷺ: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلت لي

---

(١) جزء من آية (١) من سورة المنافقون.

(٢) آية (٤٤) من سورة آل عمران.

(٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧١ كتاب المساجد ومواضع الصلاة دار احياء الكتب العربية تعليق محمد فؤاد عبد الباقي. وخرجه الترمذي جـ ٣ ص ٥٦ وقال حسن صحيح ط السلفية.

الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة »[1] وفي مسند الإمام أحمد عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: « **فضلت بأربع جعلت الأرض لأمتي مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الناس كافة، ونصرت بالرعب من مسيرة شهر يسير بين يدي، وأحلت لي الغنائم** »[2] .

فهذه النصوص وإن دلت على عموم الرسالة فإنها دلت كذلك على ثبوتها بالأولى فمحل الشاهد منها عندنا الآن قوله ﷺ: أرسلت، أرسلت، وستأتي هذه الأحاديث إن شاء الله في أدلة عموم الرسالة .

فرسالته ﷺ ثبتت من طريق القرآن، وثبتت من طريق السنة الصحيحة وأجمع المسلمون عليها لم يخالف في ذلك مسلم واحد، ومن خالف فيه من المسلمين فقد كفر وخرج عن نطاق الإسلام .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه جـ ١ ص ٩١ كتاب التيمم ومسلم في المصدر السابق نفسه .

(٢) المسند للامام أحمد جـ ٥ ص ٢٥٦ ط المكتبة الاسلامية .

المبحث العاشر

في الكلام على عمومها بعد ثبوتها

أما عموم رسالة محمد ﷺ فإنه ثابت بالكتاب والسنة واجماع المسلمين كما سترى إن شاء الله، ولا يرد على عمومها اختلاف العلماء، فيها هل شملت الملائكة أولا، فقد اتفقوا بلا شك على شمولها لنبي البشر حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهذا لم يثبت لغيرها من الرسالات، وسيتضح لك إن شاء الله ما في ذلك كله وما هو الحق عندنا في ذلك، كما سترى الرد على بعض الشبه التي أوردها أهل الكتاب على عدم شمولها لهم وأنها خاصة بالعرب الذين بعث فيهم ونزل عليه كتابه بلسانهم، وأن فكرة عالميتها طرأت بعد وفاته ﷺ.

القرآن يثبت عموم دعوة الإسلام:

إن الآيات الدالة على عموم رسالة نبينا محمد ﷺ كثيرة جداً ومعظم هذه الآيات من السور المكية، وذلك مما يبطل القول بأن عالميتها فكرة طارئة، وسوف أذكر بعضاً من هذه الآيات معظمه من السور المكية، وأترك آيات كثيرة دلت على العموم تنبيهاً بما ذكر على ما لم يذكر، وسوف أتكلم على هذه الآيات بعض الكلام وأبين محل الدلالة على العموم منها دون إطالة إن شاء الله.

قال تعالى في شأن القرآن من سورة الأنعام وهي مكية ﴿.. قُل لَّآ

﴿ ... أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٠ ﴾[1]

فمعنى الآيـة أن النبي ﷺ لا يطلب أجـراً يأخـذه على القرآن، أو على تبليغـه الدعوة لأمته، وما القرآن إلا تذكيـر للعالمين عـامة[2] فـلا يختص به قـوم دون آخرين، قال الألوسي واستدل بالآية على عموم بعثته ﷺ[3].

وقال أبو حيان (إن هو إلا ذكرى للعالمين) إن القرآن إلا ذكرى وموعظة للعالمين[4].

وقـال تعـالى في سـورة الأنعـام أيضـاً: ﴿ .. وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[5]

والمعنى: وأوحي إلى هـذا القرآن لأنـذركم به أي وأبشـركم أيها المخـاطبـون فحذف المعطوف لـدلالة المعنى عليـه و (من) في موضـع نصب عطفـاً على مفعول أنذر وفاعل أنذر ضمير يعود على القرآن أي ومن بلغـه هو أي القـرآن، والعائد على من الموصولة محذوف وهو المفعول لبلغ، وتقدير الكلام: أوحى إلي بهـذا القرآن لأنـذركم به وأبشـركم أيها المخـاطبون، وأنـذر بـه من بلغـه القرآن، قال مقـاتل من بلغـه من العرب والعجم، وقيـل من الثقلين، وقيل من بلغـه الى يوم القيـامة[6]، وعن سعيـد بن جبير: من بلغـه القرآن فكـأنمـا رأى محمداً ﷺ[7] وفي الحديث من بلغه القرآن فأنا نذيره[8] وروى ابن جـرير هنـا

---

(١) جزء من آية (٩٠) من سورة الانعام .

(٢) سيأتي الكلام على معنى العالمين .

(٣) روح المعاني جـ ٧ ص ٢١٨ .

(٤) البحر المحيط جـ ٤ ص١٧٦ المصدر السابق .

(٥) جزء من آية (١٩) من سورة الانعام .

(٦) طالع البحر المحيط عند الآية .

(٧) روى هذا الأثر ابن جرير عند تفسير هذه الآية .

(٨) رواه ابن جرير أيضاً في المصدر نفسه .

أيضاً عن محمد بن كعب في قوله: لأنذركم به ومن بلغ قال: من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا وكيع قال حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن حسن بن صالح قال: سألت ليثاً هل بقي أحد لم تبلغه الدعوة قال: كان مجاهد يقول: حينما يأتي القرآن فهو داع وهو نذير، ثم قرأ لأنذركم به ومن بلغ، ثم قال ما نصه: فمعنى الكلام لأنذركم بالقرآن أيها المشركون، وأنذر من بلغه القرآن من الناس كلهم، وروى عن قتادة أنه قال في قوله لأنذركم به ومن بلغ، أن النبي ﷺ قال: بلغوا عن الله فمن بلغه آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله[1] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾[2] وهذه الآية مكية أيضاً لأنها من سورة الأعراف.

ومعنى الكلام: قل يا محمد للناس كلهم إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون بعض كما كان من قبلي من الرسل مرسلاً الى بعض الناس دون بعض، فمن كان منهم أرسل كذلك فإن رسالتي ليست الى بعضكم دون بعض ولكنها إلى جميعكم[3] وسيأتي زيادة الكلام إن شاء الله على هذه الآية في الرد على الشبه الواردة حول عموم الرسالة فقوله في الآية الأولى: (العالمين) لفظ عام يشمل جميع العالم كما سيأتي، وقوله في الآية الثانية (ومن بلغ) يدل على العموم لأن (من) من صيغ العموم كما هو معلوم عند كل أحد.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) جزء من آية (١٥٨) من سورة الأعراف.

(٣) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص٥٩ المصدر السابق.

﴿ ... اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]

فالله جل وعلا أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقول للناس والناس لفظ عام يعم جميعهم ـ قد جاءكم الحق من ربكم أي القرآن فمن اهتدى بهديه فنفع هداه إليه، ومن أعرض عنه وضل فوبال اعراضه عنه راجع إليه، ومحل الشاهد لفظة الناس فإنها اسم جمع معرّف بأل وذلك من صيغ العموم كما هو مقرر في كتب أصول الفقه، كما أن دلالة العموم في آية الأعراف المتقدمة في قوله: (جميعاً) لأن جميع من صيغ العموم قال صاحب مراقي السعود معدداً صيغ العموم في مبحث العام:

صيغه كل أو الجميع ... وقد تلا الذي التي الفروع
أين وحيثما ومن أي وما ... شرطا ووصلاً وسؤالاً أفهما
وما معرفا بأل قد وجدا

فذكر من صيغ العموم (جميع) و (من) و (المعروف بأل) كل هذا يدل على العموم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾[2]

فالله جل وعلا يقول لنبيه: لا تسأل من بلغتهم القرآن أجراً عليه، وأتى بالنهي بصيغة النفي لأن ذلك أبلغ، ثم أخبره أن القرآن ما هو إلا ذكر للعالمين وموعظة لهم عامة[3].

(١) آية (١٠٨) من سورة يونس.
(٢) آية (١٠٤) من سورة يوسف عليه السلام.
(٣) البحر المحيط جـ ٥ ص ٣٥١ المصدر السابق.

وقال الألوسي : ما هو إلا تـذكير وعـظة من الله تعالى للعـالمين كافـة[1] ومحل الشاهد لفظة (العالمين) وقد قدمنا قـريباً أنهـا من صيغ العمـوم ، وقال تعـالى في مطلع سـورة إبراهيم وهي مكيـة أيضاً كسـورة يوسف: ﴿آلـر كِتَابٌ أَنْزَلْنَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور . . ﴾ فالناس لفظ عـام يشمل جميـع الناس في كل زمان ومكان .

قـال الألوسي : والمـراد من الناس جميعهم أي أنـزلناه إليـك لتخـرجهم كافة بما في تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله . . . الخ كلامه[2] .

وقال تعالى في سورة إبراهيم أيضاً : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾[3] والنـاس لفظ عـام ، والمعنى أن هـذا القـرآن بـلاغ للنـاس أبلغ الله بـه إليهم الحجة ، وأعذر إليهم بما أنزل فيـه من مواعـظه وعبره ، ولينـذروا به عقـاب الله ويحذروا به نقماته[4] وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[5] أخبر تعالى في هذه الآية أنه أرسل نبيه محمداً ﷺ رحمـة للعالمين كلهم فمن قبـل هذه الـرحمة سعـد في الدنيـا والآخرة ، ومن ردهـا وجحدهـا خسر دنيـاه وأخراه[6] .

وقـال تعالى في مـطلع سورة الفـرقان وهي مكيـة : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾[7]

---

(١) روح المعاني جـ ١٣ ص ٥٩ .

(٢) روح المعاني جـ ١٣ ص ١٦٢ المصدر السابق .

(٣) جزء من آية (٥٢) من سورة ابراهيم .

(٤) انظر ابن جرير جـ ١٣ ص ١٦٩ المصدر السابق .

(٥) آية (١٠٧) من سورة الأنبياء .

(٦) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٠١ ط الحلبي وشركاؤه .

(٧) آية (١) من سورة الفرقان .

والمعنى أنه تعالى نزل الفرقان أي القرآن على محمد ﷺ ليكون به نذيراً للعالمين، ولفظة العالمين تشمل كل ما سوى الله تعالى على الصحيح الذي اختاره القرطبي وغيره من المفسرين عند قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾[1]

فالله جل وعلا خص محمداً ﷺ بهذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء[2]، وقال الشوكاني: ليكون للعالمين نذيراً فإن النذارة هي الغرض المقصود من الانزال، والمراد محمد ﷺ أو الفرقان، والمراد بالعالمين هنا الإنس والجن لأنه ﷺ مرسل إليهما ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلاً إلى الثقلين[3] وقال أبو حيان ما نصه: وللعالمين عام للإنس والجن ممن عاصره، أو جاء بعده، وهذا معلوم من الحديث المتواتر وظواهر الآيات، وقرأ ابن الزبير للعالمين للجن والإنس، وهذا تفسير للعالمين[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢ ﴾[5]

وهذه مكية أيضاً وقد أخبر الله فيها أن القرآن ذكر للعالمين وبيان لهم وأدلة وتنبيه لهم على ما في عقولهم من أدلة التوحيد، وقد قدمنا أن العالمين كل ما سوى الله[6]. فتصريح الله جل وعلا بأن هذا القرآن ذكر للعالمين جميعاً دليل قاطع على عموم الدعوة الاسلامية ورد على من زعم أنها خاصة بأناس دون آخرين، أو بمكان دون آخر، أو بزمان دون آخر، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ

---

(١) آية (١) من سورة الفاتحة .

(٢) انظر ابن كثير جـ ٣ ص ٣٠٨ المصدر السابق .

(٣) فتح القدير جـ ٤ ص ٦٠ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

(٤) البحر المحيط جـ ٦ ص ٤٨ المصدر السابق .

(٥) آية (٥٢) من سورة القلم .

(٦) انظر الفخر الرازي جـ ٣ ص ١٠١ ط أولى .

﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[١].

قال الفخر الرازي في تفسيره: وما أرسلناك إلا كافة: فيه وجهان أحدهما: كافة أي إرسالة كافة أي عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الإنقياد لها، والثاني: كافة أي أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر، والهاء للمبالغة على هذا الوجه، بشيراً أي تحثهم بالوعد ونذيراً أي تزجرهم بالوعيد ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم[٢] هكذا قال الفخر الرازي[٣].

---

(١) آية (٢٨) من سورة سبأ .

(٢) تفسير الفخر الرازي جـ ٢٥ ص ٢٥٨ المصدر السابق .

(٣) قلت كافة اسم فاعل من كف وهي : أما أن تكون حالاً من الكاف في أرسلناك ويكون المعنى ، وما أرسلناك الا جامعاً للناس في الابلاغ والهاء للمبالغة كما في علامة وراوية ، وأما أن تكون حالاً من الناس وتقدم الحال على صاحبها المجرور موضع خلاف بين النحاة ، والصحيح جوازه ، وما ذكره الزمخشري من أنها لا يصح أن تكون حالاً من المجرور المتأخر عنها رده أبو حبان وقال : أن جواز ذلك هو الصحيح ، وقال به بعض متقدمي النحاة نحو أبي علي وابن كيسان وابن برهان، وبعض متأخريهم كابن مالك، كما رد قول الرازي جعلها صفة لمصدر محذوف تبعاً للزمخشري حيث قال كل منهما : الا ارسالة كافة فانظر البحر المحيط جـ ٧ ص ٢٨١ المصدر السابق . وعلى كل حال سواء على قول الزجاج أن كافة بمعنى جامعاً والتاء للمبالغة ، أو على قول الزمخشري والرازي بأنها صفة لمصدر محذوف تقديره ارسالة ، أو كانت حالاً من الكاف ، أو من المجرور (للناس) .

فالكل هذا يفيد عموم الرسالة وذلك المقصود عندنا . مع أن قول الزمحشري الذي رده أبو حبان لا شك أنه قول جمهور النحاة . ولكنهم محجوجون بكثرة السماع عن العرب ، فقد ورد عن العرب مجيء الحال متقدمة على صاحبها المجرور كما سترى قريباً ان شاء الله وقد ذكر ابن مالك في خلاصة هذه المسألة وقال أنها جائزة لورودها عن العرب قال في باب الحال :

وسبق حال ما بحرف جر قد ... أبو ولا أمنعه فقد ورد

فترى ابن مالك يقول : أنه لا يمنع هذه الصورة لورودها عن العرب ، وقال الأشموني في شرحه لهذا البيت: ولا أمنعه أي بل أجيزه وفاقاً لأبي علي، وابن كيسان وابن برهان لأن المجرور بالحرف مفعول به في المعنى فلا يمتنع تقديم حال عليه كما لا يمتنع تقديم حال المفعول به، وأيضاً =

وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1]

= فقد ورد السماع به: من ذلك قوله تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾.

وقول الشاعر:

تسليت طراعنكم بعد بينكم   بذكراكم حتى كأنكم عندي..

ومحل الشاهد قوله: (طرا) حيث وقع حالا من قوله: عنكم، وقول كثير عزة:

لئن كان برد الماء هيمان صادياً   الي حبّبا أنها الحبيب..

ومحل الشاهد قوله هيمان صاديا حيث وقعا حالين من الضمير المجرور في قوله: اليّ

وقول الآخر:

غافلاً تعرض المنية للمر   فيدعى ولات حين أباء

محل الشاهد قوله: غلافاً حيث وقع حالاً من قوله للمراء.

وقول الآخر:

فان تك أذواد أصبن ونسوة   فلن يذهبوا فرغاً[1] بقتل حبال

ومحل الشاهد قوله فرغاً حيث وقع حالاً من الجار والمجرور عبعده.

وقول الآخر:

مشغوفة بك قد شغفت وانما   حسم الفراق فما اليك سبيل

ومحل الشاهد قوله مشغوفة حيث وقع حالا من قوله بك.

وقول الآخر:

اذا المرء أعيته المروءة ناشئاً   فمطلبها كهلاً عليه عسير

ومحل الشاهد قوله: كهلاً حيث وقع حالاً من قوله: عليه. لكنه قال بعد هذا كله: والحق أن جواز ذلك مخصوص فانظره جـ ٢ ص ١٧٧ ـ ١٧٨ ط دار احياء الكتب العربية.

وأني لأعجب كل العجب من النحاة حيث يبنون تارة قاعدة على بيت واحد سمعوه عن العرب، وربما كانوا يعرفون قائله، وتارة يستفيض لهم السماع عن العرب ويقعدون قواعدهم على خلافه، ويعدونه من الشاذ فهم على هذا يؤمنون ببعض كلام العرب دون بعض.

وإذا تقرر ما ذكر من كون كافة حالاً من قوله: للناس ثبت العموم فتكون بمعنى قوله: ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ جميعاً ﴾.

(١) جزء من آية (٦٩) وآية (٧٠) من سورة يس.

قرىء تنذر وعليه يكون الخطاب للنبي ﷺ، وقرىء لينذر وعليه يكون المراد: القرآن.

قال الفخر الرازي: ويحتمل وجهين أحدهما أن يكون المراد من كان حياً في علم الله فينذره به فيؤمن، وهذا دليل على العموم.

الثاني: أن يكون المراد لينذر به من كان حياً في نفس الأمر أي من أمن فينذره بما على المعاصي من العقاب، وبما على الطاعة من الثواب[1] وقال أبو السعود: لينذر أي القرآن أو الرسول من كان حياً أي عاقلاً متأملاً فإن الغافل بمنزلة الميت، أو مؤمناً في علم الله تعالى، فإن الحياة الأبدية بالإيمان، وهذا هو كلام الكشاف[2].

وعلى كل سواء كان الانذار من رسول الله ﷺ أو بالقرآن فالمقصود عندنا صيغة العموم (من) ومعلوم أن الرسول ﷺ لا ينذر إلا بالقرآن ونحوه، لأن الله يقول له: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[4]

يخبر تعالى في هذه الآية أنه أرسل محمداً ﷺ بالهدى الذي هو التوحيد، أو القرآن، أو بيان الفرائض، ودين الحق الذي هو الاسلام كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ .. ﴾[5]

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٢٦ ص ١٠٦ المصدر السابق.

(٢) تفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٥١٨ ط مكتبة الرياض الحديثة تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

(٣) جزء من آية (٤٥) من سورة الأنبياء.

(٤) آية (٣٣) من سورة التوبة.

(٥) جزء من آية (١٩) من سورة آل عمران.

ليظهره أي الرسول، أو الدين على الأديان كلها أي ليعليه على جميع الأديان، وقد ظهر دين الله على جميع الأديان، فظهر على دين اليهود والنصارى وأبطلهما وبين معايب اليهود، وأخرجهم المسلمون من الجزيرة، وظهر على دين النصارى فقد ظهر المسلمون عليهم في بلاد الشام والمغرب، وظهروا على المجوس، وقهروا عباد الأصنام وسائر الأديان .

قال الشافعي رحمه الله : قد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق، وما خالفه من الأديان باطل[1] وهذا مما يدل على عموم رسالة محمد ﷺ بلا شك، لأن ظهور دينه على جميع الأديان، وبيان أنه الدين الذي لا يقبل الله ديناً غيره دليل واضح على عموم رسالته ﷺ ونسخها لجميع الشرائع التي قبلها ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[2] قيل إن معنى الآية: هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى أي القرآن ودين الحق ليظهره على الدين كله أي بالحجة والبراهين، وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها روى هذا القول عن ابن عباس[3] وقيل إن الضمير في ليظهره راجع إلى الدين، ومعنى ليظهره ليعليه على سائر الأديان فالدين الإسلامي يعلو على جميع الأديان بحيث لا يبقى أهل دين الا دخلوا فيه، وذلك عند نزول عيسى عليه السلام[4] وهذا التفسير يدل على العموم .

---

(١) البحر المحيط جـ ٥ ص ٣٣٣ المصدر السابق .

(٢) آية (٩) من سورة الصف .

(٣) انظر القرطبي جـ ٨ ص ١٢١ المصدر السابق .

(٤) طالع تفسير الخازن والبغوي معا جـ ٣ ص ٤٨ ـ ٤٩ ط الحلبي وأولاده بمصر .

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[1].

فقوله تعالى: يا أيها الناس خطاب لجميع بني آدم، كقوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[2] قال الخازن:

يا أيها الناس خطاب للكافة فهو كقوله (يا بني آدم)[3] وهذا دليل على عموم الرسالة حيث خاطب النبي ﷺ كافة الناس بالأمر بتقوى الله تعالى بأمر من الله عز وجل. قال أبو حيان والظاهر في الناس العموم لأن الألف واللام فيه تفيده وللأمر بالتقوى وللعلة إذ ليسا مخصوصين بل هما عامان[4] وقال الألوسي في تفسيره لهذه الآية: يا أيها الناس خطاب يعم المكلفين من لدن نزل إلى يوم القيامة على ما مر تحقيقه[5] قلت: ويقال هذا القول وهو أن يا أيها الناس خطاب يعم المكلفين من لدن نزل إلى يوم القيامة في سائر النداءات يا أيها الناس في كتاب الله، ويؤيده ما قاله أبو السعود في تفسير مطلع سورة الحج: يا أيها الناس اتقوا ربكم.. فإنه قال: يا أيها الناس خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة[6] فترى أبا السعود والألوسي صرحا بأن لفظة الناس عامة تشمل الموجودين المكلفين، والموجودين القاصرين عن التكليف في ذلك الوقت، كما تشمل كل من وجد إلى يوم القيامة، وهذا يثبت العموم.

---

(١) جزء من آية (١) من سورة النساء.

(٢) جزء من آية (٣١) من سورة الأعراف.

(٣) تفسير الخازن جـ ١ ص ٤٧٢ المصدر السابق.

(٤) البحر المحيط جـ ٣ ص ١٥٣ المصدر السابق.

(٥) روح المعاني جـ ٤ ص١٨٠ ظ احياء التراث العربي.

(٦) أنظر أبا السعود جـ ٤ ص ٢ المصدر السابق.

وبهذا يرد قول من قال: ان المراد بالناس في القرآن المكي: أهل مكة، والمراد بها في القرآن المدني سائر الناس لأن هذه التفرقة لا دليل عليها، فالقرآن خاطب الخلق وناداه في سوره المكية والمدنية بما يقتضي العموم ويؤيد هذا مطلع السورتين المتقدمتين: سورة النساء وسورة الحج لأنهما مدنيتان على خلاف في سورة الحج وكل منهما مطلعها يا أيها الناس.

ويرد احتمال العموم المراد به الخصوص لأن الآيات الكثيرة المصرحة بصيغ العموم التي لا تحتمل غير الشمول لجميع المكلفين تمنع من ارادة الخصوص بصيغة العموم نحو: ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً...﴾ فالاتيان بلفظ جميعاً ينفي ارادة الخصوص، لأن المعنى يا أيها الناس إني رسول الله إليكم في حال كونكم جميعاً لم يخرج منكم أحد عن رسالتي إليه فجميعاً حال من الضمير (إليكم)[1] وهذا النوع من التوكيد ينفي عدم ارادة الشمول. وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[2]

قال القرطبي: ان هو إلا ذكر يعني القرآن للعالمين من الجن والانس، وقال أبو السعود: للعالمين أي الثقلين كافة[3] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[4]

---

(١) ويصح أن تكون صيغة توكيد حذف منها الضمير استغناء بنية الاضافة كما هو مذهب الفراء والزمخشري أنظر الأشموني عند قول ابن مالك: وكلا اذكر في الشمول وكلا: كلتا جميعاً جميعاً بالضمير موصلاً

(٢) آية (٨٧) من سورة ص

(٣) أبو السعود جـ ٤ ص ٥٩٣ المصدر السابق.

(٤) آية (٨١) من سورة آل عمران.

قال ابن كثير: قال ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول علي وابن عباس [1].

محل الدلالة على العموم:

ومحل الدلالة على العموم في الآية من وجوه:

١ ـ أن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الأنبياء مع أنهم أنبياء أن يؤمن كل واحد منهم بمحمد ﷺ إن أدركه وينصره، مهما بلغ من النبوة والفضل لا يغنيه ذلك عن الإيمان به فمن باب أولى اتباع أولئك الأنبياء إذا بعث رسول الله وهم موجودون، كرسالة محمد ﷺ بين أظهر اليهود والنصارى.

٢ ـ أن عبد الله بن عباس وعلي بن أبي طالب فسرا هذه الآية بأن الله أخذ الميثاق على كل نبي، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته بذلك، فإما أن يكونا سمعا تفسيرها من النبي ﷺ، أو يكونا فهما أنه هو المراد بالآية، وهما من أعلم الناس بمعاني كتاب الله.

٣ ـ ماذكره الشوكاني عن الكسائي أنه قال: يجوز أن يكون المعنى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) بمعنى: وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين، ويؤيده قراءة ابن مسعو [2] وعليه فتكون الآية عامة في أمم الأنبياء السابقين.

السنة تثبت عموم رسالة محمد ﷺ:

قد تقدمت الأحاديث التي تدل على عموم رسالته ﷺ: من ذلك ما ثبت

---

(١) طالع ابن كثير عند تفسير الآية جـ ١ ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ ط دار أحياء الكتب.

(٢) فتح القدير جـ ١ ص ٣٥٦ ط دار احياء الكتب العربية.

في صحيح مسلم والترمذي من قوله: ﷺ **«فضلت على الأنبياء بست: اعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»**.

وحديث الصحيحين «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة».

وقد تقدم تخريج الحديثين في إثبات الرسالة[1].

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: **«فضلت بأربع جعلت الأرض لأمتي مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الناس كافة ونصرت بالرعب من مسيرة شهر يسير بين يدي وأحلت لي الغنائم»**.

وقد تقدم أيضاً، وأخرج البخاري في تاريخه، والبزار والبيهقي، وأبو نعيم عن ابن عباس قال:

قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي من الأنبياء: جعلت الأرض مسجداً وطهوراً، ولم يكن أحد من الأنبياء يصلي حتى يبلغ محرابه، ونصرت بالرعب مسيرة شهر يكون بين يدي إلى المشركين فيقذف الله الرعب في قلوبهم، وكان النبي يبعث إلى خاصة قومه، وبعثت

---

(١) قال النووي: قوله ﷺ: وبعثت الى كل أحمر وأسود وفي الرواية الأخرى: الى الناس كافة: قيل المراد بالأحمر الأبيض من العجم وغيرهم، وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم، وغيرهم من السودان، وقيل المراد بالأسود: السودان، وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم، وقيل: الأحمر الأنس والأسود الجن، والجميع صحيح فقد بعث الى جميعهم جـ ٥ ص ٥ المصدر السابق.

أنا إلى الجن والإنس، وكانت الأنبياء يعزلون الخمس فتجيء النار فتأكله، وأمرت أنا أن اقسمه بين فقراء أمتي، لم يبق نبي إلا أعطي مسؤله ، وأخرت أنا دعوتي شفاعة لأمتي[1] ذكر السيوطي هذه الآثار تحت عنوان» :

(باب) اختصاصه ﷺ بعموم الدعوة للناس كافة وبأنه أكثر الانبياء تابعاً، وبارساله إلى الجن بالاجماع، وإلى الملائكة في قول، وبإيتائه الكتاب وهو أمي لا يقرأ.

وقال السيوطي أيضاً : وأخرج ابن سعد عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ : «**أنا رسول من أدركت حيا ومن يولد بعدي**».[2]

وقال الدكتور محمد خليل هراس في تعليقه على هذا الأثر ما نصه: وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة أن رسالته باقية إلى يوم القيامة.

الإجماع على عموم رسالته ﷺ :

الإجماع لغة معناه الاتفاق، يقال أجمعوا على كذا: أي اتفقوا عليه[3].

معناه في الاصطلاح :

هو: الاتفاق من مجتهدي أمة محمد ﷺ بعد وفاته في أي عصر من العصور على أي أمر كان.

شرح التعريف :

الإجماع لا يصح إلا بعد وفاة الرسول ﷺ لأنه في حياته هو المشرع

---

(١) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي جـ ٣ ص ١٣٤ ط دار الكتب الحديثة تحقيق الدكتور محمد خليل هراس .

(٢) الخصائص الكبرى للسيوطي جـ ٣ ص ٣٦ المصدر السابق .

(٣) القاموس مادة جمع .

وَهو المرجع للأمة عندما تختلف في أمر، والمراد بالأمة في الحد أمة الإجابة لا أمة الدعوة لأن غير المسلم لا يعتبر في الاجماع بلغ ما بلغ من العلم والدهاء، فلا يعتبر فيه الا علماء المسلمين المجتهدون خاصة دون العامة من المسلمين ودون العلماء من غير المسلمين، قال القرافي في حد الاجماع: وهو اتفاق أهل الحل والعقد من هذه الأمة في أمر من الأمور، ثم قال: ونعني بالاتفاق الاشتراك إما في القول، أو الفعل أو الاعتقاد، وبأهل الحل والعقد المجتهدين في الأحكام الشرعية، وبأمر من الأمور: الشرعيات والعقليات، والعرفيات إهـ [1] وقد نوزع في انعقاد الاجماع في العقليات فخالفه فيه إمام الحرمين، والقاضي عبد الوهاب، والقاضي أبو بكر الباقلاني على تفصيل يقف عليه من طالع كتبهم، وليس هذا محل بسطه. وقد انعقد الاجماع على أنه ﷺ أرسل رسالة عامة إلى الناس جميعاً لم يخالف في ذلك أحد من المسلمين لا من عامتهم ولا من مجتهديهم، ومستند هذا الاجماع الآيات القرآنية التي قدمنا، والأحاديث الصحيحة الصريحة، وقد عقد السيوطي في خصائصه الكبرى فصلاً لهذه المسألة فقال:

فصل: الإجماع على أنه ﷺ مبعوث إلى جميع الانس والجن، وأما بعثته للملائكة فاختلف فيها، والذي رجحه السبكي اليهم، ويستدل له بما أخرجه عبد الرزاق عن عكرمة قال: (صفوف أهل الأرض على صفوف اهل السماء. فإذا وافق أمين في الأرض أمين في السماء غَفَرَ للعبد)[2] فالمسلمون مجمعون على رسالته إلى الثقلين: الانس والجن. ومختلفون في إرساله إلى الملائكة، وقد رأيت حكاية السيوطي الاجماع على رسالته إلى الجن، وذكره الخلاف في الملائكة وسأبين ذلك إن شاء الله وأذكر منه ما ترجح عندي.

---

(١) شرح تنقيح الفصول للقرافي ص ٣٢٢ ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.

(٢) طالع الخصائص الكبرى للسيوطي جـ ٣ جـ ١٣٧ المصدر السابق.

المبحث الحادي عشر

في رسالته ﷺ إلى الجن

إن رسالة نبينا محمد ﷺ إلى الجن ثابته بالكتاب والسنة والإجماع. وقد أطبق جل المفسرين على أن المرادَ بالعالمين في قوله تعالى: ﴿تَبارَكَ الذَّي نَزَّلَ الفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ الانس والجن. قال الشوكاني: والمراد بالعالمين هنا الانس والجن لأنه مرسل اليهما ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلاً إلى الثقلين، وتقدم هذا الكلام، وقال أبو حيان: وللعالمين عام للإنس والجن ممن عاصره أو جاء بعده، وهذا معلوم من الحديث المتواتر، وظواهر الآيات، وقرأ ابن الزبير للعالمين: للجن والانس، وهذا تفسير للعالمين، وتقدم هذا الكلام، وكذلك القرطبي قال هذا عند قوله تعالى: ﴿إنّ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمين﴾ وابن كثير وغيرهم.

وقد حكى السيوطي الاجماع على ارساله للجن كما تقدم.[1].

وقال النووي في شرح مسلم: قوله ﷺ وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وفي الرواية الأخرى إلى الناس كافة: قيل المراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان.. وقيل الأحمر الإنس والأسود الجن والجميع صحيح فقد بعث إلى جميعهم[2].

وقال الطحاوي: (وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطي جـ ٣ ص ٣٦ المصدر السابق.

(٢) شرح النووي لمسلم جـ ٥ ص ٥ المصدر السابق.

والهدى وبالنور والضياء).

وقال شارح الطحاوية: إن آيات الأحقاف، وآيات الجن الآتية دلت على رسالته إلى الجن، وحكى عن مقاتل أن الله لم يرسل رسولاً إلى الإنس والجن قبل محمد ﷺ[1].

القرآن يثبت شمول رسالة الإسلام للجن:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾[2]

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[3].

ولست أريد أن أذكر جميع الروايات التي أوردها المحدثون، والمفسرون عند تفسير هذه الآيات، وإنما أريد أن أثبت منها أن رسول الله ﷺ أرسله الله إلى الجن، وقرأ عليهم القرآن، وأنهم آمنوا به، وذهبوا يدعون أقوامهم إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ. وينذرونهم أن لم يؤمنوا

---

(١) شرح الطحاوية ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٢) آية (١ - ٢) من سورة الجن.

(٣) آية (٢٩ - ٣٠ - ٣١) من سورة الأحقاف.

بالعذاب ويبشرونهم أن آمنوا بالثواب، سواء كان ذلك في سفره ﷺ إلى الطائف يدعو أهله إلى الله أو خرج اليهم من مكة قاصداً دعوتهم، وسواء تكررت القصة أو لم تتكرر، كان عدد الوافدين إليه منهم سبعة ، أو اثنا عشر ألفاً، أو خمسة عشر، أو غير ذلك .

فالمقصود إثبات اجتماعه بهم، وسماعهم القرآن ، وإيمانهم به، وسواء كان لم يرهم بعينه كما قال ابن عباس ، أو رآهم وقرأ عليهم كما هو الصحيح لإمكان الجمع بين الروايات كما سأبينه ان شاء الله، لأن الجمع بين النصوص واجب إذا أمكن إذ إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما وإعمال الاخر ، وسواء كان عبد الله بن مسعود حاضراً أولا كما قيل بكل من ذلك .

قال الفخر الرازي في تفسيره: اعلم أن قوله تعالى: ﴿قل﴾ أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في واقعة الجن وفيه فوائد.

إحداها: أن يعرفوا بذلك انه عليه السلام كما بعث إلى الإنس قد بعث إلى الجن.

وثانيها : أن يعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول.

وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالأنس. . . إهـ (١).

قلت: إن القرآن صرح بأن الجن سمع نفر منهم كتاب الله وآمنوا به، وولوا إلى قومهم منذرين لهم دعاة مخوفين ، فالقرآن بلغهم بلا شك، .

أما النفر الذين سمعوه من رسول الله ﷺ فأمرهم واضح، وأما أقوامهم فإن النفر الذين سمعوه من رسول الله ﷺ قد بلغوه لهم ، والله جل وعلا يقول:

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ٨ ص ٣١٨ ط قديمه بهامشها تفسير أبي السعود .

﴿... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ....﴾ ورسول الله ﷺ يقول:

(ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل الغائب أن يكون أوعى من السامع[1]) وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿يا قَوْمَنا أَجيبوا داعيَ اللّهِ...﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلوات الله عليه إلى الثقلين: الانس والجن، حيث دعاهم إلى الله وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم، ووعدهم ووعيدهم، وهي: سورة الرحمن[2] وبهذا تثبت رسالة محمد ﷺ إلى الجن، وقد قدمنا قول ابن كثير أنه ﷺ خص بهذه الرسالة لكل من يستقل على الغبراء ويستظل بالخضراء، وقول مقاتل، لم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ.

السنة تدل على إرساله ﷺ إلى الجن:

ثبت في صحيح البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:

(انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا مالكم؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء الا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق

---

(١) المسند جـ ٥ ص ٤١ ط المكتب الاسلامي بيروت.
ورواه البخاري في كتاب الأضاحي ص جـ ٧ ص ١٣٠ المصدر السابق.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٠ ط دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

عكـاظ، وهو يصلي بـأصحابـه صلاة الفجـر، فلما سمعـوا القرآن استمعـوا له فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا يا قومنا انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، فأنزل الله على نبيه ﷺ: قل أوحي إلى وإنما أوحي إليه قول الجن) هذا لفظ البخاري .

وصدر حديث مسلم : عن ابن عباس: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، وهذه الكلمات قريبة في المعنى من لفظ البخاري (وإنما أوحي إليه قول الجن) وباقي حديث مسلم يوافق البخاري[1].

وروى مسلم في صحيحه قال: (حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى عن داود عن عامر قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ، قال علقمة أنا سألت ابن مسعود فقلت هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن قال: لا ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في والأودية والشعاب فقلنا : استطير[2] أو أغتيل قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء قال فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم، فقال

---

(١) صحيح البخاري جـ ١ ص ١٩٥ . ١٩٦ ط دار احياء التراث العربي ، وصحيح مسلم جـ ١ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ في باب الجهر بالقرآن في الصبح والقراءة على الجن ط عيسى البابي الحلبي وشركاؤه . كما رواه أحمد في المسند جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٢) استطير أي طارت به الجن ، ومعنى اغتيل قتل خفية . مصحح صحيح مسلم محمد فؤاد عبد الباقي .

رسول الله ﷺ: فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم)[1] وروى أيضاً من حديث علقمة أن عبدالله بن مسعود قال: (لم أكن ليلة الجن مع رسول الله ﷺ ووددت أني كنت معه)[2].

وروى البخاري ومسلم أيضاً من حديث معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال: أي معن سمعت أبي يعني عبد الرحمن، قال سألت مسروقاً من أذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن قال: حدثني أبوك يعني عبد الله أنه آذنته بهم شجرة[3] فهذه الاحاديث الصحيحة أثبتت رسالته ﷺ إلى الجن حيث جاءه داعيهم وذهب معه، وقرأ عليهم القرآن، وآمنوا به.

قلت: لم يبق مجال للشك في شمول رسالته ﷺ للجن بعد ما ثبت عنه ﷺ، وعن أصحابه من بلوغهم القرآن وإيمانهم به. قال ابن كثير عند تفسير آيات الأحقاف بعد أن ساق الطرق التي تدل على أنه ذهب إلى الجن ودعاهم وقرأ عليهم ما نصه: فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الجمع بين الروايات:

أما ما ظاهره التعارض بين أحاديث عبد الله بن عباس التي ثبت فيها أنه ﷺ ما رأى الجن ولا قرأ عليهم، وبين أحاديث عبد الله بن مسعود التي ثبت فيها أنه أتاه داعي الجن وذهب معه، وقرأ عليهم القرآن.

فقد جمع الحافظ البيهقي بين الروايات فقال ما نصه:

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٣٢ المصدر السابق.

(٢) مسلم جـ ١ ص ٣٣٣ المصدر السابق.

(٣) البخاري جـ ٥ ص ٥٨ ومسلم جـ ١ ص ٣٣٣ المصدر السابق.

وهذا الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة النبي ﷺ، وعلمت بحاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود، ورأى آثارهم، وآثار نيرانهم والله أعلم انتهى منه[1] وبهذا يجمع بين الأدلة ويزول التعارض والجمع بين الأدلة واجب إذا أمكن.

وأما التعارض الذي وقع بين أحاديث عبد الله بن مسعود حيث ثبت في الصحيح عنه كما قدمنا أنه سئل هل صحب أحد منهم رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال: ما صحبه منا أحد، ولكنا فقدناه . . . الخ الحديث ، ووردت أحاديث في السنن والبيهقي ، والمسند ، ورواها ابن جرير في تفسيره تدل على أن عبد الله بن مسعود كان مع النبي ﷺ تلك الليلة ، وردت بهذا أحاديث كثيرة ، وقد حاول البيهقي الجمع بين هذه الروايات فقال:

والأحاديث الصحاح تدل على أن عبد الله بن مسعود لم يكن مع النبي ﷺ ليلة الجن، وإنما كان معه حين انطلق به وبغيره ليريهم آثار الجن، وآثار نيرانهم، وقد روى من وجه آخر أنه كان معه ليلتئذ، ثم ساق سنده إلى عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وهو بمكة من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل فلم يحضر منهم أحد غيري. . . الحديث. ثم قال بعد انتهاء الحديث، قلت : يحتمل قوله : في الحديث الصحيح ما صحبه منا أحد: أراد به في حال ذهابه لقراءة القرآن عليهم (ـ يعني كأنهم كانوا معه ولكن عندما خرج عنهم ليلتقي بالجن لم يذهب معه أحد ـ) إلا أن ما روي في هذا الحديث من إعلامه أصحابه بخروجه اليهم يخالف ما روي في الحديث الصحيح من فقدانهم اياه حتى قيل: اغتيل، استطير، الا ان يكون المراد بمن فقده غير الذي علم بخروجه والله أعلم[2] هكذا حاول

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ٢ ص ١٢ ـ ١٣ ط المكتبة السلفية.

(٢) دلالة النبوة للحافظ البيهقي جـ ٢ ص ١٤ المصدر السابق .

البيهقي الجمع بين الروايات.

قلت إذا أمكن الجمع بين هذه الروايات فبها ونعمت كما حاول البيهقي والشوكاني والا فإن صرنا إلى الترجيح ترجحت أحاديث عدم حضوره فإنها لا تقاومها الروايات الأخرى لأنها في الصحيح، والمعروف عند أهل الحديث أن من المرجحات أن يكون الحديث في الصحيحين، أو في أحدهما لأن وجود الحديث فيهما أو في أحدهما قرينة على صحته، وقد فطن البيهقي لهذا حيث قال: والأحاديث الصحاح تدل على أن عبد الله بن مسعود لم يكن مع النبي ﷺ ليلة الجن - وإنما كان معه حين انطلق به وبغيره ليريهم آثار الجن وآثار نيرانهم ثم قال بعد ذلك في محاولته الجمع: قلت: يحتمل قوله: في الحديث الصحيح: ما صحبه منا أحد الخ كلامه، فكل ما مر بحديث مسلم الذي ينفي الحضور حكم عليه بالصحة، ولم يتعرض لغيره فمن تأمل كلام البيهقي علم ما قلته والله أعلم.

وقال الشوكاني: والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعتا منه ﷺ احداهما حضرها ابن مسعود، ولم يحضر الأخرى.

وقد روت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة وأخذوا عنه الشرائع[1]

هل أرسل الله من الجن رسلاً؟

لما دار الحديث بنا حول شمول رسالة الاسلام للجن لابد أن نتطرق إلى الجن من ناحية أخرى وهي: هل أرسل الله اليهم رسلاً قبل رسالة الإسلام من جنسهم أولا؟ وهل مؤمنوهم بهذه الرسالة الخاتمة للرسالات يدخلون الجنة، أوْ ثوابهم أنهم يجارون من النار؟ اختلف العلماء هل أرسل الله

---

(١) فتح القدر جـ ٥ ص ٢٨ ط الحلبي وأولاده بمصر.

إلى الجن رسلاً منهم قبل رسالة نبينا ﷺ فقيل لا، وقيل نعم، وممن نصر القول الأول ابن كثير في تفسيره حيث قال عند تفسير آية الأحقاف المتقدمة ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ . . .﴾، واستدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر وليس فيهم رسل، ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾(١)

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٢).

وقال: عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾(٣).

فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته، فأما قوله تعالى في الأنعام. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ . .﴾(٤).
فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما، وهو الانس كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾(٥).
أي أحدهما هكذا ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً

---

(١) جزء من اية (١٠٩) من سورة يوسف .
(٢) جزء من آية (٢٠) ص سورة الفرقان .
(٣) جزء من آية (٢٧) من سورة العنكبوت .
(٤) جزء من آية (١٣٠) من سورة الأنعام .
(٥) آية (٢٢) من سورة الرحمن .

من الجن . . إلى قوله منذرين﴾ .

وذكر هذا الكلام الشوكاني بالحرف في فتح القدير عند تفسير الآية فلعله نقله منه .

وأقول: إن هذا القول فيه عندي نظر، فالقطع بأن الله تعالى لم يرسل إلى الجن رسلاً منهم يخالف ظواهر نصوص القرآن الكريم، والعدول عن ظواهر القرآن لا يجوز الا بعد وجود دليل يجب الرجوع إليه ، وما استدل به أهل هذا القول من الأدلة غير ناهض في نظري . أما النصوص التي ظاهرها أن الله أرسل من الجن رسلاً إلى أقوامهم فمنها قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

وقول ابن كثير هنا أي وما من أمة خلت من بني آدم الا وقد بعث الله تعالى اليهم النذر وأزاح عنهم العلل غير متجه لأن لفظة ﴿ أمة ﴾ هنا نكرة في سياق النفس لأن ﴿ان﴾ بمعنى ما النافية، والنكرة في سياق النفي تعم بلا شك كما هو معلوم، وهذا العموم تدخل فيه الأمم من الجن ، ولا تخرج الا بمخصص يقصر هذا العام على بعض أفراده دون بعض، وقد ذكر ابن كثير نفسه عن قتادة أن الجن أمة . قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم . . . ﴾[2].

قال هنا : وقال قتادة : الطير أمة، والانس أمة ، والجن أمة، وعليه فإن الجن أمة ، والله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فيها نَذيرٌ﴾وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾[3]

---

(١) جزء من آية (٢٤) من سورة فاطر .

(٢) جزء من آية (٣٨) من سورة الأنعام .

(٣) جزء من آية (٧) من سورة الرعد .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1]

فالله جل وعلا صرح بأنه بعث في كل أمة رسولاً، وقد ثبت أن الجن أمة وعليه فيكون الله قد بعث فيهم رسلاً.

أما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ القُرى﴾ فليس عندي دليل في هذا: لأن الجن معلوم أنهم فيهم الذكور والاناث يتناسلون ويتناكحون وقد حجبهم الله عنا فقال: ﴿.. إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ..﴾[2].

فما دمنا لم نر الجن لا مانع أن تكون لهم قرى يرسل الله منها رجالاً إلى أقوامهم كما أرسل إلى الإنس رجالاً من قراهم إلى أقوامهم.

وكذلك الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ...﴾[3]

فليس في هذا دليل لأن الجن يأكلون الطعام بلا شك كما تقدم في الأحاديث الصحيحة أنهم لما التقوا برسول الله ﷺ وآمنوا بالقرآن طلبوا الزاد فأعطاهم كل عظم ذكر اسم الله عليه، وأخبرهم أنه يكون أوفر ما كان أولاً وهذا دليل على أنهم يأكلون الطعام ،وإذا كانوا أمماً وكانت لهم قرى فما المانع أن تكون لهم أسواق تمشي فيها رجالهم؟ ومن تتبع قضايا الجن وما يحكى عنهم علم أن لهم قرى وأسواقاً، وأن فيهم المسلم والكافر، وفيهم الصالحين والفسقة مثل الانس، ولسنا بحاجة إلى تتبع أخبار الجن.

---

(١) جزء من آية (٣٦) من سورة النحل .

(٢) جزء من آية (٢٧) من سورة الأعراف .

(٣) جزء من آية (٢٠) من سورة الفرقان .

وأما الأستدلال بقوله تعالى: ﴿..وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ..﴾ يعني إبراهيم عليه السلام فليس فيه دليل أيضاً، وذلك أن الله أخبر أنه حصر أنبياء بني إسرائيل من لدن إسحاق عليه السلام في ذريته كما جعل محمداً ﷺ من ذرية إسماعيل، ولكن هذا لا يقتضي عدم إرسال رسل إلى الجن لأن الجن ليسوا من جنس البشر، وإنما هم أمة مستقلة فحصر الرسالة من بعد إبراهيم في ذريته إنما هو بعد وجود إبراهيم، والجن كانوا موجودين قبل إبراهيم بلا نزاع، وظاهر السياق يدل على أن المحصور إنما هو رسالة البشر لا رسالة غيره لأن السياق في الأنس لا في الجن فتكون هذه الآية في السياق مثل الآية التي ذكر الله فيها أن ذرية نوح هي الباقية على وجه الأرض بعد الطوفان وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[1]

فالآية هنا لم تتعرض للجن بذكر مع أنها حصرت الباقين عن الهلاك في ذرية نوح، والجن في ذلك الوقت موجودون، ولا تجمعهم مع نوح صلة نسب ومع هذا فإنهم من الباقين في ذلك الزمن إلى الآن، كذلك قصة إبراهيم أخبر الله أنه آمن به ابن أخيه لوط، وهاجر إلى ربه نحو بلاد الشام، وأن الله وهب له إسحاق ويعقوب، وأنه جعل النبوة في ذرية إسحاق وإسماعيل من أولاده، ولم تتعرض لغير جنس البشر، قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ..﴾[2].

---

(١) آية (٧٥ - ٧٦ - ٧٧) من سورة الصافات.

(٢) آية (٢٦) وجزء من آية ٢٧ من سورة العنكبوت.

وأما القول بأن آية الأنعام التي تقدمت: ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ..﴾ الآية لا تدل على ارسال رسل من الجن إلى قومهم فإن ذلك محل نظر أيضاً لأن الله جل وعلا خاطب الانس والجن منادياً لهم، ومسائلاً لهم سؤال تقريع وانكار هل آتتهم رسل منهم تتلو عليهم آياته وتنذرهم لقاءه يوم القيامة، وشهدوا على أنفسهم أنها أتتهم، وأنهم اغتروا بالحياة الدنيا وكفروا.

قال الزمخشري: واختلف في أن الجن هل بعث إليهم رسول من جنسهم لأنهم به آنس وله آلف، وقال آخرون: الرسل من الانس خاصة إلى آخر كلام ابن كثير والشوكاني[1] وكذلك الاستشهاد بآية الرحمن ﴿يَخْرُجُ مِنْهُما اللؤلؤ وَالمَرْجان﴾ حيث قالوا ان المراد الجنس الصادق بأحدهما، وهوالملح دون العذب، وأن العذب لا يخرج منه اللؤلؤ أو المرجان، فإن هذا الاستدلال لا يصح لأنه مخالف لظاهر القرآن ان لم يكن مخالفاً لنصه الصريح، والمراد عندي بالنص: النص الذي لا يحتمل الا معنى واحداً، وقد رد الشيخ محمد الأمين في أضواء البيان هذا الاستدلال وقال: انه مخالف لصريح القرآن حيث قال ما نصه:

واعلم انما ذكره الحافظ ابن كثير وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية من أن قوله ﴿يخرج منهما اللؤلؤ أو المرجان﴾ يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط لا يجوز القول به لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ..﴾[2]

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥١ المصدر السابق.

(٢) آية (٥٣) من سورة الفرقان.

ثم صرح باستخراج اللؤلؤ أو المرجان منهما جميعاً بقوله ﴿.. وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ..﴾[١]
والحلية هي: اللؤلؤ أو المرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحاً كما ترى انتهى كلامه[٢]

فظهر مما ذكرنا أن ما استدل به القائلون بعدم وجود رسل من الجن إلى قومهم قبل بعثة نبينا محمد ﷺ لا ينهض منه دليل واحد كما رأيت، وظهر أن عمومات النصوص تدل على أنهم أرسلت إليهم رسل من جنسهم وقامت عليهم بهم الحجة في زمنهم، وأن رسول الله ﷺ أرسل اليهم وقامت عليهم الحجة برسالته كغيرهم من سائر الخلق: والله اعلم، ويؤيد ما قلت: ما في ابن جرير الطبري عند تفسير آية الأنعام: : ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ والانس....﴾ الآية قال: واختلف اهل التاويل في الجن هل أرسل منهم اليهم ام لا؟ فقال بعضهم قد ارسل اليهم رسل كما أرسل الى الانس منهم رسل، ثم ساق بسنده إلى الضحاك أنه سئل عن الجن هل كان فيهم نبي قبل أن يبعث محمد ﷺ؟ فقال:

ألم تسمع قول الله﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالانْسِ...﴾ إلى قوله. بلى، وقال آخرون لم يرسل اليهم رسول منهم، وإنما ارسل من الانس، ومن الجن النذر، ثم ذكر أن ابن عباس فسر آية الأنعام هذه بأن رسل الجن المذكورين فيها إنما هم رسل من طرف الانس إلى قومهم من الجن، وأما رسل الانس فرسل من الله فيكون معنى الآية يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم، أما رسل الجن فرسل رسل الله من بني آدم، وهم الذين سمعوا القرآن منه ﷺ، وولوا إلى قومهم منذرين، وأما رسل الانس فرسل من الله. ثم قال:

---

(١) جزء من آية (١٢) من سورة فاطر.

(٢) أضواء البيان جـ ٢ ص ١٨٨ ط المدني.

وأما الذين قالوا بقول الضحاك فإنهم قالوا ان الله أخبر أن من الجن رسلاً أرسلوا إليهم كما أخبر أن من الانس رسلاً أرسلوا إليهم، ولو جاز أن يكون عن رسل الجن بمعنى أنهم رسل الانس ، جاز أن يكون خبره عن رسل الأنس بمعنى انهم رسل الجن، قالوا وفي فساد هذا المعنى ما يدل على أن الخبرين جميعاً بمعنى الخبر عنهم أنهم رسل من الله لأن ذلك هو المعروف في الخطاب دون غيره إ هـ[1].

هل مؤمنوا الجن يدخلون الجنة أولا ؟

اختلف العلماء في مؤمني الجن هل يدخلون الجنة أولا يدخلونها ؟ فقال بعضهم: إنهم يدخلون الجنة كمؤمني الانس لا فرق بين مؤمنهم ومؤمن الانس.

وقال آخرون إنهم لا يدخلون الجنة، وإنما يجيرهم الله من العذاب بالنار وقد روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

حجة من قال بأنهم لا يدخلون الجنة :

احتج قائلوا هذا القول بما حكى الله عنهم في كتابه لما أتوا قومهم منذرين، من قولهم ﴿ . . . **يا قَوْمَنَا أجيبوا داعيَ الله وَآمنوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ويُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أليم** ﴾ قالوا إن هذا المقام مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان غيره لذكروه .

قال ابن كثير هنا: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حدثت عن جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يدخل مؤمنوا الجن الجنة لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة، ثم قال أي

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٨ ص ٢٧ ـ ٢٨ المصدر السابق .

ابن كثيـر، والحق أن مؤمنيهم كمؤمني الانس كما هـو مـذهب جمـاعـة من السلف .

وقال الشوكـاني : وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الإنس في الثواب والعقاب والتعبد بـالأوامر والنـواهي . وقـال الحسن ليس لمؤمني الجن ثـواب غير نجـاتهم من النار وبـه قال أبـو حنيفة، والأول أولى وبـه قـال مالك والشافعي وابن أبي ليلى، وعلى القول الثاني فقال القائلون به بأنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم كونوا تراباً كما يقال للبهائم والثاني أرجح[1] .

حجة من قال انهم يدخلون الجنة

احتـج أهل هـذا القول بـأدلة قـوية منهـا ما هـو منقـول، ومنهـا مـا هـو معقول .

الأدلة النقلية أولاً :

قالوا إن الله تبارك وتعالى وعد المؤمنين بدخول الجنة في آيات كثيرة من كتـابه،ولن يخلف الله وعـده،قال تعـالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[2] .

وقـال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) فتح القدير جـ ٥ ص ٢٦ المصدر السابق .

(٢) آية (٧٢) من سورة التوبة .

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾[2]

وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[3] .

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسيره آية الرحمن هذه ما نصه: وهذه الآية عامة في الانس والجن فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان، فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

احتجاجهم بالمعقول .

ثانياً: قالوا إن الله تعالى إذا كان يجازي كافرهم بالنار بعدله فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة بفضله بطريق الأولى والأحرى، وقالوا انه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة .

قال ابن كثير: ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر من الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وأن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به والله أعلم وهذا القول هو الصحيح إن شاء الله .

وهو الذي تؤيده ظواهر النصوص وهو الذي عليه الجمهور والله أعلم .

---

(١) آية (٧ ـ ٨) من سورة البينة .

(٢) آية (١٠٧ ـ ١٠٨) من سورة الكهف .

(٣) آية (٤٦) من سورة الرحمن .

وقد ذكر القرطبي عن الحسن وأبي حنيفة أن جزاءهم في الآخرة إنما هو إجارتهم من العذاب، وأنهم يقال لهم: كونوا تراباً كالبهائم، وحكي عن مالك والشافعي وابن أبي ليلى والضحاك أنهم يدخلون الجنة، ثم قال: قال القشيري: والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشيء والعلم عند الله[1].

قلت: ما ذكره القرطبي والشوكاني عن أبي حنيفة من القول بعدم دخول مؤمني الجن الجنة: ظاهر كلام أبي حيان في البحر المحيط أنه رجع عنه فإنه قال عند تفسير آية الأحقاف هذه: وظواهر القرآن تدل على الثواب، وكذا قال ابن عباس: لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنة، ويزدحمون على أبوابها، وقيل لا ثواب لهم إلا النجاة من النار وإليه كان يذهب أبو حنيفة[2] فقوله: وإليه كان يذهب أبو حنيفة يدل على أنه رجع عن هذا القول إلى القول الصحيح في رأي، وذلك لأن الله أخبر في كتابه أن الخلق يوم القيامة فريقان فريق منهم يذهب إلى الجنة وفريق يذهب إلى السعير، وليس هناك فريق ثالث قال تعالى: ﴿ ... وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ ﴾[3].

أفكار الفلاسفة في وجود الجن والملائكة:

إن الجن مع ما تواتر من الآيات القرآنية بذكرهم، والأحاديث الصحيحة الواردة في شأنهم وأنهم يأكلون الطعام كما تقدم في اجتماعهم معه ﷺ وإيرائه آثارهم وآثار نيرانهم لأصحابه، مع هذا كله لم يزل في الوجود من ينكر وجودهم، ولكن أكثر هؤلاء المنكرين هم الفلاسفة وربما نما بعض علماء

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٦ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ المصدر السابق.

(٢) البحر المحيط جـ ٨ ص ٦٨ المصدر السابق.

(٣) جزء من آية (٧) من سورة الشورى.

المسلمين إلى ما يؤيد مذهبهم .

قال الفخر الرازي في تفسيره :

اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت الجن ونفيه، فالنقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة انكاره، وذلك لأن أبا علي بن سينا قال في رسالته في حدود الأشياء: الجن حيوان هوائي متشكل بأشكال مختلفة، ثم قال: وهذا شرح للإسم فقوله: وهذا شرح للإسم يدل على أن هذا الحد شرح للمراد من هذا اللفظ، وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج .

وأما جمهور أرباب الملل والمصدقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجود الجن، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ويسمونها بالأرواح السلفية(١) .

وقد تكلم الأستاذ الشيخ محمد عبد على قضية الملائكة والشياطين حيث قال: ... والواجب على المسلم في مثل الآية : يعني قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾(٢) . الإيمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على أنها حكاية تمثيل، ثم الاعتبار بالنظر في الحكم التي سيقت لها القصة إلى أن قال: فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكاً، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعاني: القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الامكان إلا ما هو طبيعة، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة، والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه: هو أن في باطن الخلقة أمراً هو مناطها، وبه قوامها ونظامها لا يمكن لعاقل أن ينكره، وإن أنكر

---

(١) تفسير الفخر الرازي عند قوله تعالى : ﴿ قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن ﴾ .

(٢) جزء من آية (٣٢) من سورة البقرة .

غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية، أو ناموساً طبيعياً لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع، فالحقيقة واحدة...... الخ فإذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه، ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خصص به.

خلق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير..[1] نقل هذا الكلام الشيخ رشيد رضا وعزاه للشيخ محمد عبد.

فتراه عبر عن الملائكة والشياطين بالقوى الطبيعية، وتارة بالقوى الروحانية، وتارة قال: إن الآية تحمل على أنها حكاية تمثيل. والظاهر أن هذا التعبير الذي كثر على لسانه، وأيده الشيخ رشيد رضا لم يكثر من علماء المسلمين، ولهذا ذكر هو نفسه أن معاصريه من العلماء أنكروا عليه هذا القول، ورد عليهم هنا في صفحة ٢٧٠ من هذا الكتاب بما ليس فيه اقناع في نظري، وأيد تلميذه الشيخ رشيد رضا كلامه الأول كما أيد رده على منتقديه.

وأقول: إني لفي كفة المنتقدين لهذا التعبير الذي يوهم عدم وجود الملائكة والجن وإن كنت لا أسيء الظن بالشيخين البتة، ولكني لا أرى هذا التعبير إلا مؤيداً لمذهب الفلاسفة، وإن كانا لا يقصدان ذلك.

وإنما قلت هذا الكلام لما ثبت في السنة الصحيحة أن النبي ﷺ رأى

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٢٦٧ ـ ٣٦٩ ط الرابعة.

جبريل بعينه على صورته التي خلقه الله عليها، وكما تقدم في شأن الجن من لقياهم للنبي ﷺ وإيمانهم بالقرآن، فلا عبرة بعد هذا بقول من قال إنهم غير موجودين، أو أنهم مجرد قوى طبيعية أو قوى روحانية تارة توسوس بالشر فتكون شياطين، وتارة تزين الخير فتسمى ملائكة .

وقد ثبت في صحيح البخاري عن مسروق قال: (قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت: لقد قَفَّ شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حد تكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[1] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ . .﴾[2] .

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿ . . . وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . .﴾[3]

ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ . . .﴾ الآية[4] ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين)[5] .

فهذا الحديث يدل على أن جبريل له صورة محسوسة خلقه الله عليها

---

(١) آية (١٠٣) من سورة الأنعام .

(٢) جزء من آية (٥١) من سورة الشورى .

(٣) جزء من آية (٣٤) من سورة لقمان .

(٤) جزء من آية (٦٧) من سورة المائدة .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في سورة: والنجم إذا هوى.

وليس مجرد قوى طبيعية، أو قوى روحانية وليس شيئاً معدوماً. وروى أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « **رأيت جبريل وله ست مائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل**[1] **من الدر والياقوت** »[2].

قال ابن كثير وهذا اسناده جيد قوي. ورويت عن ابن مسعود أحاديث عدة في هذا المعنى كلها أسانيدها جيدة أو حسنة كما قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾[3].

---

(١) الأشياء المختلفة الألوان.

(٢) المسند جـ ١ ص ٤٦٠ المصدر السابق.

(٣) آية (١٣) من سورة النجم.

المبحث الثاني عشر

هل رسالته عليه السلام تشمل الملائكة أولا ؟

اختلف العلماء في هذه المسألة فقال بعضهم: إن الملائكة لا تدخل في عموم رسالته ﷺ وأنها مقصورة على الانس والجن.

وقال بعضهم إنها تشمل الملائكة كما تشمل الانس والجن. وسوف أذكر لك من أقوال الفريقين ما يناسب ذكره في هذه الرسالة .

حجة من قال بدخولهم

إن القائلين بدخول الملائكة في عموم رسالة نبينا محمد ﷺ تمسكوا بظواهر نصوص من الكتاب والسنة دلت على شمول الرسالة للملائكة .

قالوا ان الله جل وعلا قال في محكم كتابه : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالمين** ﴾ قالوا إن عبارات المفسرين تفيد أن معنى العالمين في قوله تعالى : ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴿٢﴾ ﴾[1].
كل ما خلق الله جل وعلا، والملائكة من جملة ما خلق الله فيكون صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة لهم كغيرهم .

وقال تعالى : ﴿ **تَبارك الَّذي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكونَ لِلْعَالَمِينَ نذيراً** ﴾ .

---

(١) آية (١) من سورة الفاتحة .

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيد ﴾ قالوا والملائكة هم أخوف خلق الله من وعيده، وأمثال هذه النصوص كثيرة في القرآن .

السنة

كما تمسكوا أيضاً بظاهر حديث مسلم الثابت في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « **فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون** »[1] قالوا فالرسول ﷺ صرح بأنه أرسل إلى الخلق كافة، والملائكة من جملة الخلق. إلى غير ذلك مما استدلوا به .

أقوال العلماء

قال ابن السبكي في خاتمة كتابه (جمع الجوامع) ما نصه: (وخص محمد ﷺ بأنه خاتم النبيين المبعوث إلى الخلق أجمعين) قال ابن حلولو القيرواني: وقول المصنف إلى الخلق أجمعين يتناول الجن والملائكة أما دخول الجن فمجمع عليه، وظواهر الشرع قاطعة بذلك، وأما الملائكة فذكروَليُّ الدين في دخولهم خلافاً، وحكى المخلي عن الفخر الاجماع على أنه عليه السلام لم يكن رسولاً إليهم[2] . وقد ذكر السيوطي في كتابه الحاوي أدلة أيد بها إرساله إلى الملائكة بعد أن رجح في كتابيه: التقريب في شرح الحديث، وشرح الكوكب الساطع في الأصول أنه غير مرسل إليهم، والقاعدة المعروفة في علم الأصول أن المجتهد إذا روي عنه قولان متعاقبان أي أحدهما بعد الآخر يقدم قوله الأخير على الأول ويكون بمثابة الناسخ له .

---

(١) مسلم جـ ١ ص ٣٧١ المصدر السابق .

(٢) الضياء اللامع شرح جمع الجوامع جـ ٣ ص ٢٩٤ .

قال صاحب مراقي السعود مشيراً إلى هذه المسألة : وقول من عنه روى قولان . . مؤخر إذ يتعاقبان . .

فقوله : مؤخر خبر عن قوله : قول. أي يعتمد قوله الأخير ويلغي الأول وقال أي السيوطي إن الأدلة التي استدل بها، ورجح بها كون النبي ﷺ مرسلاً إلى الملائكة بعضها يدل على ذلك بطريق العموم وبعضها يدل عليه بطريق الخصوص، ومن الأدلة على ذلك بطريق العموم قوله تعالى : ﴿ تبارك الَّذي نـزَّلَ الفُرقانَ على عَبْدِهِ لِيكونَ لِلْعالَمِينَ نَذيرًا ﴾ قال: والعالمون شامل للملائكة كما هو شامل للإنس والجن، وقد أجمع المفسرون على أن قوله تعالى : ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمين ﴾ شامل لهؤلاء الثلاثة فكذلك هذا، والأصل ابقاء اللفظ على عمومه حتى يدل الدليل على اخراج شيء منه، ولم يدل هنا دليل على إخراج الملائكة، ولا سبيل إلى وجوده لا من القرآن ولا من السنة، وقد نوزع من ادعى الاجماع على أن المراد بالعالمين الانس والجن فقيل له أين المخصص .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمين ﴾ شامل للملائكة أيضاً، وأورد حديثاً ذكره القاضي عياض في الشفا: أن النبي ﷺ قال لجبريل هل أصابك من هذه الرحمة شيء قال نعم كنت أخشى العاقبة فآمنت لثناء الله علي في القرآن بقوله : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[1] ولكنه اعترف بأن هذا الحديث لا سند له .

وأما ما يدل على ارساله إلى الملائكة بطريق الخصوص فقد قال انه استنبط لذلك أدلة عدها واحداً واحداً، وقال إنه لم يسبق إليها، وقال إن من أقواها دلالة على الموضوع قوله تعالى :

---

(١) آية (٢٠) من سورة التكوير .

١ ـ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾[١].

ثم قال: **﴿ومن يقل منهم اني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾**[٢] وذكر عن أبي حاتم وابن المنذر أن المراد بقوله: **﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾** الملائكة، وذكر أن ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في دلائل النبوة أخرجوا عن ابن عباس أنه قال: إن الله قال لأهل السماء: **﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾** فهذه الآية انذار للملائكة على لسان محمد ﷺ في القرآن الذي أنزل عليه، وقد قال تعالى: **﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...﴾** فثبت بذلك ارساله إليهم لأن القرآن بلغهم.

٢ ـ الدليل الثاني هو: ما أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن عكرمة قال: (صفوف أهل الأرض على صفوف أهل السماء فإذا وافق امين في الأرض آمين في السماء غفر للعبد) وهذا يدل على أن الملائكة في السماء تصلي بصلاة أهل الأرض.

ويدل لهذا: الحديث الذي أخرجه الأئمة الستة ومالك والشافعي: «**إذا أمن الامام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٣].

---

(١) الآيات (٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧) من سورة الأنبياء.

(٢) جزء من آية (٢٨) من سورة الأنبيا.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان في باب جهر الامام بالتأمين ومسلم في كتاب الصلاة جـ ١ ص ٣٠٧ المصدر السابق.

٣ ـ ومن جملة ما ذكره من الأدلة وهو دليله الخامس حسب ترتيبه. ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي في سننه عن سلمان موقوفاً، والبيهقي من وجه آخر عن سلمان مرفوعاً:

(إذا كان الرجل في أرض فأقام الصلاة صلى خلفه ملكان، فإذا أذن وأقام الصلاة صلى خلفه من الملائكة ما لا يرى طرفاه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ويؤمنون على دعائه)[١]. إلى غير ذلك مما ذكره من الأدلة التي لا تنهض في نظري وجملتها ستة.

أدلة المانعين:

القائلون بعدم دخول الملائكة في رسالة نبينا ﷺ خلق كثير منهم:

الفخر الرازي، والبيهقي، وأبو السعود، والنسفي، وغيرهم. وقد استدل الفخر الرازي على ذلك بما حكاه من الاجماع حيث قال.. ثم قالوا هذه الآية تدل على أحكام:

الأول: أن العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والانس والملائكة، لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن مرسلاً إلى الملائكة فوجب أن يكون رسولاً إلى الجن والإنس ويبطل بهذا قول من قال إنه مرسل إلى البعض دون البعض.

الثاني: أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على أنه رسول للخلق إلى يوم القيامة فوجب أن يكون خاتم الأنبياء والرسل إ هـ[٢].

قلت: قوله: فدلت الآية على أنه رسول للخلق إلى يوم القيامة يناقض

---

(١) انظر الحاوي للسيوطي جـ ٢ ص ١٤١ ـ ١٤٣ ط دار الكتاب العلمية.

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي عند مطلع سورة الفرقان.

قوله بعدم شمول الرسالة للملائكـة . كذلك أبو السعود في تفسيره كلامه يفيد أنه إنما أرسل إلى الجن والإنس فقط دون الملائكة فانظره[١] .

وممن قال بأنه غير مرسل إلى الملائكة أيضـاً البيهقي قال في آخـر كلام له طويل في شأن إعجـاز القرآن وأنه غير مخلوق . . . وإنمـا وقع التحـدي عليه الجن والإنس دون المـلائكـة ، وفي ذلك ما أبـان أن نظم القـرآن ليس من عند جبـريل ، ولكنـه من عند اللطيف الخبيـر ، وهـذا معنى كـلام الحليمي رحمـه الله[٢] وكذلك قال بهذا القول : الإمام علي بن أحمد الواحـدي المتوفى سنـة ٤٦٨ هـ في تفسيره المسمى : الوجيز في تفسير القرآن العزيز ، والنسفي ، وغير واحد كالبيضاوي وخلق كثير لا يحصى منهم القـرطبي والنيسابـوري وابن كثير والشوكاني . والمحلي في شرحه لجمع الجوامع ، قال عند قول صاحب جمع الجوامع (وخص محمد ﷺ بأنه خاتم النبيين ، المبعوث الى الخلق أجمعين) كمـا قـال تعـالى : ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَـاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ المبعـوث إلى الخلق أجمعين كمـا في حديث مسلم . (أرسلت إلى الخلق كـافـة) وفسـر بـالإنس والجن كمـا فسـر بهمـا ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ في قـولـه : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـذَا الْقُـرْآنُ لِأُنْـذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي بلغـه القـرآن ، و (العـالمين) في قـولـه ﴿لِيَكُـونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ وصرح البيهقي والحليمي أنه لم يرسل الى الملائكة[٣] .

وقال البناني في حاشيته على المحلي قوله : (لم يرسل إلى المـلائكة) الصحيح أنه لم يرسل إليهم رسالة تكليف ، بل رسالة تشريف[٤] .

وذكـر السيـوطي أن العـراقي في نكتـه على ابن الصـلاح قـال : إن

---

(١) تفسير أبي السعود في مطلع سورة الفرقان .

(٢) شعب الايمان للبيهقي الباب الرابع الجزء الأول : ص ١٢٥ ط أولى هندية .

(٣) أنظر شرح المحلي لجمع الجوامع مع حاشية البناني جـ ٢ ص ٤١٥ ـ ٤١٦ .

(٤) طالع حاشية البناني على المحلي عند النص المتقدم والصفحة .

الرسول ﷺ لم يرسل إلى الملائكة. والذي رأيته في النكث لم يكن فيه التصريح بعدم ارساله إليهم ولكنه يفهم منه فقد قال في آخر كلام طويل في حد الصحابي: وأما الأنبياء الذين رأوه في السماوات ليلة الاسراء الذين ماتوا منهم كإبراهيم ويوسف وموسى وهارون ويحيى: لا شك أنهم لا يطلق عليهم اسم الصحابة.. إلى أن قال: وأما رؤية عيسى له في السماء فقد يقال: السماء ليست محلاً للتكليف ولا لثبوت الأحكام الجارية على المكلفين انتهى محل الغرض من كلامه[1].

هذا وقد رأيت أقوال المانعين لدخول الملائكة في عموم رسالة محمد ﷺ ورأيت أنهم لم يأتوا بأدلة مقنعة إلا ما حكاه الرازي من الاجماع، وقد توزع في ذلك الاجماع، كما رأيت.

قلت إن من أصرح الأدلة على دخول الملائكة في عموم رسالة نبينا ﷺ حديث مسلم الذي تقدم فيه... وأرسلت إلى الخلق كافة.

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾.

فإذا وجد مخصص يخرج الملائكة من هذا العموم وجب العمل به، وإلا فإن العمومات من الوحي يجب التمسك بها حتى يرد مخصص، والصحيح عند أكثر الأصوليين أنه لا يجب البحث عن المخصص ولا يتوقف العمل بالعام على البحث عن مخصص له.

والحاصل أننا ذكرنا لك اختلاف العلماء في ارسال النبي ﷺ إلى الملائكة وعدم إرساله إليهم، ولا شك أن القائلين بتناول الرسالة للملائكة لديهم أدلة قوية من عمومات الكتاب والسنة تفيد صيغ العموم منها شمول

---

(١) انظر التقييد والايضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للعراقي ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

الرسالة النبوية للملائكة كما تفيد دخول الإنس والجن وغير ذلك، وقد تقدم من النصوص ما يكفي كمطلع سورة الفرقان، وحديث مسلم الذي تقدم غير مرة، وكقوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كما تقدم ذلك كله، والملائكة من أشد خلق الله خوفاً منه وعليه فيكونون ذكروا بالقرآن لأن الله أمر نبيه محمداً ﷺ أن يذكر بالقرآن كل من يخاف الوعيد، والملائكة يخافون الوعيد بلا شك، والتذكير يشمل الانذار والتبشير كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾(1)

والله جل وعلا شهد لنبيه أنه بلغ حيث قال له: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾(2).

الراجح عندي:

والذي ترجح عندي في هذه المسألة أن صيغ العموم من نصوص القرآن والسنة شملت الملائكة، وأنهم خرجوا من هذا العموم بمخصص منفصل، والسؤال المطروح الآن هو: ما هو المخصص الذي خرجت به الملائكة بعدما أثبت أنهم داخلون في العموم؟ والجواب أن المخصص هنا الذي أخرج الملائكة من هذا العموم هو: (العقل) لأن العقل نص الأصوليون على أنه من المخصصات المنفصلة. قال ابن السبكي في جمع الجوامع: (يجوز التخصيص بالحسّ والعقل خلافاً لشذوذ، ومنع الشافعي تسميته تخصيصاً وهو لفظي) ومثل شراحه للتخصيص بالعقل بخروج ذات الله تعالى وصفاته من عموم قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾(3)

---

(1) آية (٩٧) من سورة مريم .

(2) آية (٥٤) من سورة الذاريات .

(3) جزء من آية (٦٢) من سورة الزمر .

قالوا لأن التأثير لا يكون إلا في الممكنات، والله تعالى واجب الوجود[1] .

وقال المحلى عند شرحه للنص المذكور آنفاً (والعقل) كما في قوله تعالى : ﴿اللّه خَلَقَ كُلّ شَيْءٍ . .﴾ فإننا ندرك بالعقل ضرورة أنه تعالى ليس خالقاً لنفسه، خلافاً لشذوذ من الناس في منعهم التخصيص بالعقل قائلين إنما نفى العقل حكم العام عنه لم يتناوله العام لأنه لا تصح ارادته، ومنع الشافعي رحمه الله تسميته تخصيصاً نظراً إلى أن ما تخصص بالعقل لا تصح ارادته بالحكم وهو: أي الخلاف لفظي أي عائد إلى اللفظ والتسمية للاتفاق على الرجوع الى العقل فيما نفى عنه حكم العام، وهل يسمى نفيه لذلك تخصيصاً؟ فعندنا نعم وعندهم لا[2] .

وقال في مراقي السعود معرفاً المخصص المنفصل :

وَسَمِّ مستقله منفصلاً للحسّ والعقل نماه الفضلا

وقال شارحه : وعقلي كما في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فليس خالقاً لنفسه لاستحالته عقلاً، فالتخصيص بالعقل هو: أن يكون العقل مانعاً من ثبوت الحكم لذلك المخصوص أي المخرج من العام إ هـ محل الغرض من كلامه[3] .

وبيان كون العقل خرج الملائكة أن الملائكة منذ خلقهم الله تعالى قبل رسالة محمد ﷺ. وقبل نبوة آدم، بل وقبل خلقه، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فهم كانوا قبل وجود أي نبي من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه على هداية من ربهم يمتثلون أوامره،

---

(١) طالع الضياء اللامع على جمع الجوامع جـ ٢ ص ٣٩ ـ ٤٠ ط حجرية مغربية .
(٢) شرح المحلى لجمع الجوامع جـ ٢ ص ٢٥ المصدر السابق .
(٣) نشر البنود شرح مراقي السعود جـ ٢ ص ٣٩ ـ ٤٠ المصدر السابق .

ويتجنبون نواهيه لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحو ن الليل والنهار لا يفترون .

فنصوص الوحي دلت على أنهم مكلفون لثبوت الأحاديث بصلاتهم وتسوية صفوفهم، وورود الآيات القرآنية بذكرهم وتسبيحهم، وامتثالهم الأوامر واجتنابهم النواهي . ولكننا لا ندري هل هذه التكاليف تلقوها من الله بلا واسطة رسول، أو بواسطة رسل من الملائكة أرسلهم الله اليهم، فلهذا خرجوا من عموم رسالته ﷺ إذ لم يحتاجوا الى شيء من قبل وجود الرسالات وأثناء الرسالات وبعدها والله تعالى أعلم إ هـ .

المبحث الثالث عشر

في شمول دعوة الاسلام يأجوج[1] ومأجوج

لما تطرفنا في هذا البحث إلى شمول الرسالة النبوية للملائكة والجن لا بد وأن نتطرق لشمولها ليأجوج ومأجوج لأنهما أمتان عظيمتان من ذرية آدم عليه السلام موجودتان زمن دعوة الإسلام وقبلها وموجودتان الآن، كما صرحت بذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

الأدلة على أنهم من ذرية آدم:

ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك ربنا وسعديك فينادي بصوت ان الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار قال يا رب وما بعث النار؟ قال من كل ألف ـ أراه ـ قال تسع مائة وتسعة وتسعين فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم** »، فقال النبي ﷺ: من يأجوج ومأجوج تسع مائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وأني لأرجو أن

---

(١) واختلف في اشتقاقهما فقيل من أجيج النار ، وهو التهابها ، وقيل من الأجة بالتشديد وهي : الاختلاط ، وقيل من الأج وهو سرعة العدو ووزنهما يفعول ومفعول على قراءة عاصم وعلى قراءة غيره أيضاً إن كانت الألف مبدلة من الهمزة للتخفيف وجميع ما ذكر مناسب لحالهم فتح الباري جـ ١٣ ص ١٠٦ ط السلفية .

تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال: شطر أهل الجنة فكبرنا قال أبو أسامة عن الأعمش ترى الناس سكارى وما هم بسكارى، قال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين، وقال جرير وعيسى بن يونس وأبو معاوية «سكرى وما هم بسكرى»[1] ففي هذا الحديث التصريح بأن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم، وقال بعض العلماء: هؤلاء أي يأجوج ومأجوج من نسل يافث أبي الترك وقال: إنما سمي هؤلاء تركاً لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة والا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة[2] .

الأدلة على وجودهم الآن:

ثبت في صحيح مسلم في الحديث الطويل في قصة الدجال وصفته (فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: اني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم فحرز[3] عبادي الى الطور فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[4] .

فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل عليهم نغفاً[5] في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة فيهبط عيسى وأصحابه إلى الله عز

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في باب . وترى الناس سكارى وهذا لفظه هنا وأخرجه في مواضع أخرى ، وأخرجه مسلم في آخر كتاب الايمان جـ ١ ص ٢٠١ المصدر السابق . والترمذي جـ ٥ ص ٦ في كتاب التفسير مع اختلاف في اللفظ .

(٢) طالع ابن كثير جـ ٣ ص ١٠٤ المصدر السابق .

(٣) أي ضمهم واجعله لهم حرزاً يقال أحرز الشيء اذا حفظه وصانه عن الأخذ .

(٤) جزء من آية (٩٨) من سورة الأنبياء .

(٥) النغف دود يكون في أنوف الأبل والغنم وأحدته نغفه القاموس مادة نغف .

وجل فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله . . .)[1] .

وروى الإمام أحمد أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: إنكم تقولون لا عدو لكم وانكم لا تزالون تقاتلون حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون صهب الشعاف[2] من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة[3] وقد روى في هذا المعنى أحاديث كثيرة .

وقال النووي في شرح مسلم: إن بعض الناس يقول: إن يأجوج ومأجوج من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا منه، وعليه تكون صلتهم بالبشر من جهة آدم لا من جهة حواء[4] وقال ابن كثير إن هذا القول غريب جداً ولا دليل عليه من عقل ولا من نقل[5] وقال القرطبي وفي هذا نظر لأن الأنبياء لا يحتملون، وانما هم من ولد يافث .

الدليل على وجودهم زمن النبي ﷺ

أما الدليل على وجودهم زمن الرسالة النبوية: ما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ قال: « **لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الابهام والتي تليها** »، فقالت زينب بنت جحش يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون، قال نعم إذا كثر الخبث[6] وإنما أثبتنا وجود يأجوج

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ٢٢٥٣ المصدر السابق .

(٢) أي شعورهم صهب القاموس جـ ٣ ص ١٦٤ ط دار التعاون بمكة .

(٣) المسند جـ ٥ ص ٢٧١ المصدر السابق .

(٤) شرح النووي لمسلم جـ ٣ ص ٩٨ .

(٥) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ المصدر السابق .

(٦) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢٢٠٨ في كتاب الفتن واشتراط الساعة . المصدر السابق . والبخاري في كتاب بدء الخلق في باب قول الله تعالى ﴿ **ويسألونك عن ذي القرنين** ﴾ .

ومأجوج قديماً وحديثاً لما يتشدق به أعداء الإسلام اليوم من إنكارهم وقولهم إن الأرض لم يبق منها شيء إلا اكتشف وأنهم ليسوا موجودين، وإنهم ربما كانوا السوفيات أو الصين فإن هذا كله محاربة للإسلام وتشكيك فيه ورد لآيات القرآن والأحاديث النبوية، قال تعالى في قصة ذي القرنين: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾[1]

فهذا القرآن الكريم يخبر عن وجود يأجوج ومأجوج في زمن ذي القرنين[2] قبل

---

(١) اية (٩٣ - ٩٤) من سورة الكهف .

(٢) ذو القرنين هو: الاسكندر المتقدم، وليس الاسكندر المتأخر اليوناني لأن اليوناني قريب من زمن عيسى عليه السلام، والأول في زمن ابراهيم وبين ابراهيم وعيسى أكثر من ألفي سنة، وقد لقب الاسكندر المتأخر بذي القرنين تشبيهاً بالمتقدم لسعة مسلكه لما ملك الروم والفرس فلقب ذا القرنين لذلك، والذي قص الله خبره في القرآن هو المتقدم والفرق بينهما من وجوه (١) ما روي عن ابن عباس وغيره من كبار التابعين أن ذا القرنين التقى بابراهيم في المسجد الحرام (٢) ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره أن ذا القرنين المذكور في القرآن كان نبياً، وكان الاسكندر، الأخير كافراً، وكان معلمه (أرسطاطاليس وهو كافر بلا شك) (٣) ذو القرنين من العرب ويشهد لذلك كثرة وروده في أشعارهم، والعرب من ولد سام بن نوح، واليونان من ولد يافث بن نوح، وشبهة من قال أنه هو حديث ضعيف فيه ابن لهيعة: أن النبي ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال: كان من الروم فأعطى ملكاً فصار الى مصر وبني الاسكندرية، فلما فرغ أتاه ملك فخرج به فقال: انظر ما تحتك ... وقد جعل لك في الأرض سلطاناً فعلم الجاهل وثبت العالم، واختلف في نبوة ذي القرنين وظاهر القرآن يدل على ذلك، وروى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، وقيل أنه عبد صالح، طالع فتح الباري جـ ٦ ص ٣٨٢ - ٣٨٣ ط السلفية.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: والصحيح أنه كان ملكاً من الملوك العادلين، وقيل كان نبياً، وقيل كان رسولاً، وأغرب من قال: كان ملكاً مع الملائكة كما حكى عن عمر بن الخطاب، وروى ابن عساكر عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أدري أتبع كان لعيناً أم لا ؟ ولا أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا ؟ ولا أدري ذو القرنين كان نبياً أم لا** » ... =

عشـرات المئات من السنين، والسنـة تخبـر بـوجـودهم في زمن النبي ﷺ وبوجودهم في آخر الزمان فلا سبيل لانكارهم، ولا للقول بأنهم ممن هو ظاهر على الأرض الآن. بل هم مستورون في علم الله دونهم سد جعله الله حجاباً عليهم إلى أن يأتي الوقت المحدد لظهورهم آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه السلام والعلم عند الله.

وبما ذكرنا في شأن يأجوج ومأجوج يتضح أنهم كفار وأنهم غير معذورين لاخباره ﷺ في الحديث الصحيح أنهم معذبون في النار وهو لا ينطق عن الهوى وإنما يوحى إليه وحي،، وقد أخبر قومه أن الله جل وعلا يوم القيامة يجعل تسعة وتسعين من بعث أهل النار من يأجوج ومأجوج فهذا نص في أنهم غير معذورين.

وقال الأبيّ في شرحه لصحيح مسلم: إنه لم يوجد نص يدل على كفرهم غير هذا كما سيأتي له. إن شاء الله.

قلت: وفي هذا النص كفاية لأن الحديث إذا ثبت عن النبي ﷺ عن طريق النقلة الاثبات العدول يكفي في اثبات الأحكام إلا إذا ثبت نسخه، أو وجد ما هو أرجح منه عند التعارض، وعند انفراده يكفي في ثبوت الأحكام واقامة الحجة.

هل الدعوة الإسلامية بلغت يأجوج ومأجوج أولا؟

لم تزل هذه القضية موضع تساؤلات وهي: هل النبي ﷺ بلغ يأجوج

= واختلفوا في سبب تسميته ذا القرنين فقيل: أنه كان في رأسه شبه القرنين من نحاس وقال بعض أهل الكتاب لأنه ملك الروم وفارس، وقيل: لأنه بلغ قرني الشمس شرقاً وغرباً وملك ما بينهما من الأرض، وروى عن علي بن أبي طالب أنه سئل عنه فقال: كان عبد اناصح الله فناصحه، دعا قومه الى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه الى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمي ذا القرنين... طالع البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ ط الثانية مكتبة المعارف. بيروت.

ومأجوج الدعوة، أو أرسل إليهم رسلاً يبلغونهم رسالة الإسلام؟ وبم قامت عليهم الحجة حتى عذبوا؟ والله جل وعلا يقول: ﴿ . . . **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴾ وغيرها من الآيات .

وقد تكلم الأبيّ في شرحه لمسلم الذي قال في مقدمته إنه ضمنه ملخص أربعة شروح لمسلم وزاد عليها وهي: شرح الإمام المازري، وشرح القرطبي، وشرح القاضي عياض، وشرح الإمام النووي، قال: **قلت**: يأجوج ومأجوج أمة عظيمة في الكثرة والبطش فالكثرة لقوله تعالى: ﴿ . . **وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ** ﴿٩٦﴾ ﴾[1]

ولحديث: . (يمر أولهم ببحيرة طبرية فيشربونها، ويمر آخرهم فيقول كان بهذه ماء)[2] والبطش لحديث. . يوحي الله إلى عيسى أنه قد خرج عباد لي لا يدان لأحد بقتالهم[3]. ثم قال: والأكثر على أنهم من ولد يافث بن نوح وقال مقاتل هم أمة من الترك. . . إلى أن قال: والحديث صريح في كفرهم، ولم يرد نص غيره، والقرآن إنما أخبر أنهم مفسدون في الأرض والفساد أعم من الكفر، ثم قال:

وإذا كان الحديث نصاً في كفرهم، فالكفر إنما يكون بعد إقامة الحجة وبلوغ الدعوة لقوله تعالى: ﴿ . . . **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴾ وللقطع بهذا الأصل يجب النظر في وجه كفرهم، وقد ذكر أن حالاتهم لا تجاوز أربعاً :

الأولى: حالتهم قبل سد ذي القرنين عليهم .

---

(١) جزء من آية (٩٦) من سورة الأنبياء .

(٢) بعض ألفاظ مسلم في حديث الصحيحين الذي تقدم قريباً .

(٣) بعض ألفاظ الحديث المتقدم أيضاً .

ويحتمل أن يكون كفرهم إذ ذاك لتكذيب رسل ارسلت اليهم .

الثانية: بعد السد عليهم وقبل مجيء الإسلام ولم يرد نص صريح أن الله أرسل إليهم رسلاً منهم، ولا أنهم بلغتهم دعوة رسول لتعذر وصولها إليهم، فهم بعد السد كحالهم قبله ولم يرد ما يدل على إيمانهم إلا حديث رواه الترمذي: أنهم يخرقون السد كل يوم حتى إذا كادوا يخرقون قال الذي عليهم، ارجعوا فستخرقونه غداً ولم يقل إن شاء الله فيرجعون إليه في الغد فيجدونه كما كان أولاً، حتى إذا بلغ الكتاب أجله، وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم، ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس[1]، فقوله إن شاء الله دليل على الإيمان، لكن إنما بقوله الذي عليهم، ولعله ملك أو غير ملك منهم، أو يكون ممن أدرك التوحيد ببصيرته كقس بن ساعدة وأمثاله.

الثالثة: من حالاتهم: حالتهم بعد مجيء الإسلام، والظاهر أنها كحالتهم التي قبلها، وما ورد من طريق وهب بن منبه أن النبي ﷺ انطلق به إليهم ليلة الإسراء وبلغهم ولم يجيبوه فهم في النار مع المشركين من أولاد آدم وابليس، لا يصح لأنه لا سند له، وإنما هو من الأقاصيص، مع أن تبليغهم في تلك الليلة التي أسري به فيها ليطلع على ملكوت السماوات والأرض، وليجتمع عليه الأنبياء، ويتلقى فرض الصلاة، ويرى الجنة والبيت المعمور، فلم يشتغل تلك الليلة بإرساله إلى أمة، وإذا لم تبلغهم الدعوة فتبين أن كفرهم قبل مجيء الإسلام، وقلنا هذا لنص الحديث على كفرهم، وإلا فالقياس يقتضي أنهم ممن لم تبلغهم الدعوة، ومن لم تبلغه الدعوة معذور.

الرابعة: هي بعد خروجهم آخر الزمان زمن عيسى عليه السلام حاكماً بشريعة نبينا ﷺ فقد ورد أنهم يقولون إذا خرجوا: قتلنا من في الأرض فهلم

---

(١) الترمذي: جـ ٤ ص ٣٧٥ ط السلفية.

نقتل من في السماء فيرمون بسهامهم فترجع إليهم مخضبة من الدم فتنة لهم كما فعل تمروذ، وهذا كفر صريح انتهى ملخصاً منه[1].

قلت: الظاهر والله أعلم أنهم كانوا كفاراً قبل بعثة النبي ﷺ، وأنهم يزدادون كفراً عندما يخرجون في زمن عيسى عليه السلام حاكماً بشريعة محمد ﷺ حيث لم يتبعوه، ويفسدوا في الأرض، ويموتوا بسبب دعاء عيسى عليهم لأن اعراضهم عن اتباع عيسى حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ اعراض عن شريعة محمد ﷺ.

وأما قول الأبي السابق: ولم يرد نص صريح أن الله أرسل إليهم رسلاً منهم بعد جعل السد عليهم فإني لا أسلم بهذا القول لأنه ورد ما يخالفه كما سأبينه إن شاء الله.

اعلم أولاً: أن أول كلام الأبي الذي نقلنا فيه ما نصه: قلت: يأجوج ومأجوج أمة عظيمة في الكثرة والبطش، فقد اعترف بأنهم أمة وقد تقدم اثبات كونهم من ذرية آدم، والله جل وعلا يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقد قدمنا قول ابن كثير ان المعنى: وما من أمة من الأمم خلت من بني آدم الا وقد بعث الله إليهم النذير وأزاح عنهم العلل، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ . . ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . ﴾[3]

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا

---

(١) انظر الأبي شرح مسلم جـ ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٧ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) جزء من آية (٤٧) من سورة يونس.

(٣) جزء من آية (٨٩) من سورة النحل

﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ..﴾[1]

وتقدمت آيات بهذا المعنى في الكلام على الجن كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ولا مانع يمنع أن يكون رئيسهم الذي عليهم حين ينقبون النقب ويقول في نهاية الأمر إن شاء الله ممن هدى الله وباقيهم ممن حقت عليه الضلالة وعلى هذا فلا مانع أن يكونوا أنذروا على ألسنة رسل منهم وتكون هذه الرسل ممن لم يقصه الله على نبيه ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾

فالله جل وعلا ذكر لنا في كتابه العزيز خمسة وعشرين من الرسل، وقد ورد في السنة أن عددهم أكثر من ذلك بكثير كما سيأتي فالحكم على يأجوج ومأجوج والجن بأنهم لم ترسل إليهم رسل منهم من الصعب في نظري والله أعلم.

هذا مع أن الأبي جزم قبل هذا في شرحه حديث مسلم: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[3] وسيأتي هذا الحديث إن شاء الله.

جزم بأن دعوة محمد ﷺ بلغتهم، ونص كلامه: قال عياض: فيه أن من لم تبلغه دعوة الإسلام وأمر النبي ﷺ معذور لأن طريق الإيمان به مشاهدة معجزته لمن حضرها، وصحة نقلها لمن لم يشاهدها، بخلاف الإيمان بالله تعالى الذي طريقه النظر. ثم قال بعد انتهاء كلام عياض.

---

(١) جزء من آية (٧١) من سورة الزمر.

(٢) جزء من آية (١٦٤) من سورة النساء.

(٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٤ المصدر السابق.

قلت: صدر كلامه يقتضي أن شرط الإيمان به بلوغ الدعوة، وتعليله يقتضي أنه بلوغ المعجزة، والأول ظاهر الحديث، ولكن فسر بعضهم الحديث فقال: أي لا يسمع وتتبين له معجزتي، وكان الشيخ يعني (ابن عرفة) كما ذكر في مقدمته يقول: إنما الشرط بلوغ الدعوة لا بلوغ المعجزة، ولا يبعد أن يكون بأطراف العمران، أو يعض الجزائر المنقطعة من لم تبلغهم الدعوة وحكمهم أن لا حرج كما ذكر وهو أمر مجمع عليه لقوله تعالى: ﴿ . . **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ ولهذا الحديث ولهذا الأصل نقطع أن يأجوج ومأجوج بلغتهم الدعوة لما صح في حديث بعث أهل النار الآتي أنهم يعذبون، وقيل: إنه ﷺ أنذرهم ليلة الاسراء انتهى كلامه بلفظه[1] فتراه هناك صرح بأن دعوة الإسلام بلغتهم قطعاً، وذلك هو وجه كفرهم، وهنا لم يصرح بوجه كفرهم ولكنه جزم به .

قلت: الذي يظهر في هذه المسألة أن رسالة نبينا ﷺ تشمل يأجوج ومأجوج بلا شك لأنهم من الخلق وهو ﷺ أخبر أنه أرسل الى الخلق، ومن العالم، وقد صرح الله جل وعلا بأنه أنزله ليكون للعالمين نذيراً، ومن بني آدم، والاجماع منعقد على أنه ﷺ مرسل إلى الثقلين: الانس والجن .

ولكن بقي: كيف بلغتهم الدعوة وقامت عليهم الحجة حتى عذبوا؟ ولم أجد ما يشفي الغليل في ذلك الا ما تقدم من كلام الأبي وقطعه بأن الدعوة بلغتهم: والظاهر لي أنها لم تبلغهم في زمن النبي ﷺ لتعذر ذلك ولأنهم إذ ذاك في حكم المعدوم لأن الله حجبهم عن الناس ولم يرد لنا نص من الشارع يثبت لنا أن الله أطلع نبيه عليهم وبلغهم رسالة ربه مع توفر الدواعي الى نقل ذلك لو وقع، ولكنه لم ينقل ولم يبق إلا أن يكون خروجهم في زمن عيسى عليه السلام حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ واعراضهم عن الإيمان به وفسادهم

---

(١) الأبي على مسلم جـ ١ ص ٢٦٢ المصدر السابق .

في الأرض، وقولهم قتلنا من في الأرض فهلم نقتـل من في السماء كمـا تقدم فلعل أن تكون الدعوة اذ ذاك بلغتهم لأنهم لم يوجدوا إلا في ذلك الحين، أما قبله فإن وجودهم كان كالعدم والله تعالى أعلم .

المبحث الرابع عشر

في شهادة غير المسلمين بعموم دعوة محمد ﷺ

أثبت المستشرق (سيرتوماس أرنولد) أن رسالة نبينا محمد ﷺ عامة، وأنها لم تكن مقصورة على بلاد العرب، بل أنها للعالم بأجمعه، وقال: إنه إذا لم يكن في الوجود إلا إلّه واحد تعين أن يكون الدين الذي يدعى إليه الناس واحد، بقول المذكور تحت عنوان (الإسلام دين عالمي) .

وفي القرآن آيات كثيرة توجه الأنظار إلى منشأ هذا الشعور القومي، وتحث أهل بلاد العرب على إدراك ما منحوه من فضل بنزول الوحي الإلهي بلغتهم، وعلى لسان واحد منهم، ثم ذكر الآيات الدالة على أن القرآن نزل بلسان عربي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[2] .

وقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾[3]

وقد عدد آيات كثيرة. . . إلى أن قال: ولم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب بل أن للعالم أجمع نصيباً فيها، ولما لم يكن هناك غير إله واحد

(١) آية (٣) من سورة الزخرف .

(٢) جزء من آية (٧) من سورة الشورى .

(٣) آية (٢٨) من سورة الزمر .

كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة، ولكن تكون هذه الدعوة عامة وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس، وفي جميع الشعوب نراها تتخذ صورة عملية في الكتب إلى أن قيل أن محمداً ﷺ بعث بها في السادسة من الهجرة ٦٨٨م إلى عظماء ملوك ذلك العصر(١) .

وفي هذه السنة أرسل الرسول إلى هرقل قيصر الروم - وإلى كسرى فارس، وإلى حاكم اليمن وإلى حاكم مصر، وإلى النجاشي، وقد(٢) قيل إن

---

(١) يشير بهذا الى الكتب التي كتبها رسول الله ﷺ الى عظماء البلدان فقد كتب ستة كتب في يوم واحد : كتب الى النجاشي ملك الحبشة كتاباً مع عمرو بن أمية الضمري .
وليس بالنجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة بعد موته . كما رجح ذلك ابن القيم في كتابه زاد المعاد معتمداً على ما في صحيح مسلم من حديث قتادة عن أنس قال :
(كتب رسول الله ﷺ : الى كسرى ، والى قيصر ، والى النجاشي ، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ) الحديث في مسلم في كتاب الجهاد جـ٣ ص ١٣٩٧ المصدر السابق ، ثم قال أي ابن القيم وقال أبو محمد بن حزم أن هذا النجاشي الذي بعث اليه رسول الله ﷺ عمرو ابن أمية الضمري لم يسلم ، وقال أن القول بأنه هو الذي صلى عليه الرسول ﷺ : قول ابن سعد وغيره ، وأن الظاهر قول ابن حزم ، وبعث دحية الكلبي الى قيصر ملك الروم وهم بالاسلام وكاد ولم يفعل ، وبعث عبد الله بن حزافة السهمي الى كسرى ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية عظيم القبط وأهدى الى النبي ﷺ هدايا من جملتها مارية سريته المعروفة وبغلته الشهباء دُلْدُل ، وبعث شجاع ابن وهب الأسدي الى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء ، قاله ابن اسحاق والواقدي ، وقيل انما توجه لجبلة بن الأيهم ، وقيل توجه لهما معاً ، وبعث سليط بن عمرو الى هوذة ابن علي الحنفي باليمامة ، وقيل بعثه الى هوذة والى ثمامة بن أثال الحنفي فأسلم ثمامة ولم يسلم هوذة ، فهؤلاء الستة هم الذين بعثهم رسول الله ﷺ في يوم واحد ، وبعث غير ذلك من الرسل .
ولعل هذه القصة هي التي سيشير لها الكاتب قريباً وهي أن الرسول قال لأصحابه وافوني بأجمعكم . . الخ القصة الآتية ، وذكر البلاذري في كتابه أنساب الأشراف جـ١ ص ٥٣١ أن هذه الكتب في سنة سبع وأن ذلك أثبت من قول من قال أنها في سنة ست.

(٢) عبر بصيغة التمريض (قيل) مع أن صورة الكتاب في أعلى درجات الصحة لأنها في البخاري ومسلم وغيرهما فقد رواها البخاري في كتاب بدء الوحي أول صفحاته ، وسلم في كتاب الجهاد في باب كتاب النبي ﷺ الى هرقل يدعوه الى الإسلام . وسيأتي ان شاء الله .

الكتاب الذي أرسله إلى هرقل كان كما يلي :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم .

السلام على من اتبع الهدى، أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وأن تتول فإن أثم الأكارين عليك يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الاسلام فقد قال الله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر لِلْعالمينْ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **تبارك الّذي نَزَّلَ الفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيكونَ للعالَمِينَ نَذيراً** ﴾ وذكر عدداً من الآيات التي تقدم ذكرها . . إلى أن قال: وإنما يعبر به النبي ﷺ في تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الإسلام ديناً ليزداد وضوحاً في قول محمد ﷺ متنبئاً أن بلالاً أول ثمار الحبشة وأن صهيباً أول ثمار الروم[١] وهكذا صرح الرسول ﷺ بكل وضوح وجلاء أن الاسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل، ثم ذكر ما يؤيد كلامه في عموم رسالة نبينا ﷺ بإرساله بعوثه إلى كل الشعوب للدعوة إلى الإسلام فذكر أنه قال لأصحابه يوماً: وافوني بأجمعكم بالغداة، وكان إذا صلى الفجر جلس في مصلاة يسبح ويدعو ثم التفت إليهم فبعث بعوثاً وقال لهم: انصحوا الله في عباده فإنه من استرعى شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى ابن مريم فإنهم أتوا

---

(١) الدعوة الى الاسلام كتاب سيرتوماس ترجمة د حسن ابراهيم . عبد المجيد عابدين . اسماعيل النحراوي ص ٥٠ .

القريب وتركوا البعيد. . . ويؤيد دعوى عموم الرسالة والحق في المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس أن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة، ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد ﷺ خاتم النبيين كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل، ثم بدأ بذكر الآيات الدالة على وحدة الدين الاسلامي، وتوحيد دعوة الرسل، وأن الناس كانوا أمة واحدة فاختلفوا بعد ذلك، وأن ما يدعو إليه هذا الرسول هو عين ما كان يدعو إليه من قبله من الرسل وأن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعا من الرسل، وأنه أمر باتباع ملة ابراهيم الخليل[1] هذا ما شهد به المستشرق (سيرتوماس) شهد بعموم رسالة نبينا ﷺ وأقام عليها الأدلة النقلية والعقلية، وشهد شاهد من أهلها.

تطبيق العموم بالغزو بعد إرسال الرسل

إن نبينا محمداً ﷺ لما أرسله الله إلى الخلق كافة بدأ في تبليغ هذه الرسالة للناس فبدأ يدعو قريشاً مدة طويلة من الزمن ثم هاجر إلى المدينة ودعا أهلها ومن حولهم من الناس، ثم أرسل الرسل والكتب إلى ملوك وعظماء البلاد خارج الجزيرة العربية كما تقدم.

ولم يكتف بهذا أيضاً بل أرسل جيشاً من أصحابه إلى الشام للجهاد في سبيل الله ووقعت غزوة مؤتة المشهورة بين المسلمين والروم والعرب المتنصرة.

ثم خرج هو بنفسه بعد ذلك في غزوة تبوك يريد إبلاغ الدعوة وإعلاء كلمة الله تعالى قاصداً الروم حتى بلغ تبوك. وسأذكر لك نبذة موجزة عن هاتين الغزوتين إن شاء الله يتضح لك من خلال الكلام عليهما أن رسول

---

(١) انظر الدعوة الى الاسلام سيرتوماس ص ٥٠ - ٥١ المصدر السابق.

الله ﷺ عمل في حياته بمقتضى عموم دعوته، وأنه لم يقتصر على العرب ولا على بلاد العرب، وأن القول بذلك كذب وضلال .

(غزوة مؤتة)

بعث ﷺ سنة ثمان من الهجرة في جمادى الأولى جيشاً من أصحابه إلى الشام لدعوة الروم إلى الإسلام وقتالهم إن لم يؤمنوا وأمر على الجيش زيد بن حارثة وقال لهم إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب أميركم، فإن قتل فعبد الله بن رواحة أميركم[١] .

وروى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبر فقال : « **أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم** »[٢]. ومضى الجيش ونزل بأرض الروم فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليه من لخم، وجذام، والقين، وبهراء، وبلي. مائة ألف هكذا ذكر ابن إسحاق، وقيل إن الروم مائتا ألف، وغيرهم خمسون ألفاً، وأقل ما قيل أن الروم مائة ألف والعرب المنتصرة خمسون ألفاً حكاه السهيلي، . . . ثم دنت الروم، وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، فالتقى الجمعان فأخذ زيد الراية فقاتل حتى قتل، ثم أخذها جعفر فقاتل حتى قتل، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل، ثم أخذها خالد بن الوليد فقاتل حتى نصر الله المسلمين على يديه كما يقتضيه قوله ﷺ في رواية البخاري : (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم »، وهي رواية الواقدي، وموسى بن عقبة، خلافاً لظاهر روايات ابن إسحاق فإنها إنما تدل على أن

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي في باب عزوة مؤتة .

(٢) رواه البخاري أيضاً في كتاب المغازي في غزوة مؤتة

خالداً انحاز بالمسلمين حتى تخلصوا من الروم وعرب النصارى فقط ورجح الحافظ البيهقي رواية الواقدي وموسى بن عقبة انتهى ملخصاً من السيرة النبوية للحافظ ابن كثير[1].

(غـزوة تبـوك)

خـرج رسول الله ﷺ بنفسـه قاصـد الروم في بـلاد الشام سنـة تسـع من الهجرة في شهر رجب في شدة الحر وفي زمن العسـرة وطلب من أصحابـه أن يخرجوا معه وكان ذلك في حر شديد وضيق من الحال وخرج معه نحو ثـلاثين ألف رجل، ولما أراد الخروج حث أهل الغنى على الانفـاق، وكان لعثمـان بن عفان الموقف الذي لم يكن لأحد سواه في تلك الغزوة فقـد جهز ثـلاث مائـة مقاتل حيث جاد بثلاث مائة بعير بأحـلاسها ومعهـا ألف دينار وقـال فيه رسـول الله ﷺ : « **ما على عثمان ما عمل بعد هذا** » وسار ﷺ حتى وصل تبـوك، فلما وصلها علم به الـروم وأرسل ﷺ كتـاباً إلى (هـرقل) ولمـا وصله دعا قسيسي الروم وبطارقتها وأغلق عليهم الأبواب وأخبرهم أن الرسول صلوات الله وسلامه عليـه خيره بين ثـلاث خصال أن تؤمن، أو تعـطي الجزيـة والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب، والله أنكم لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب ليأخذن أرضنا فهلم فلنتبعه على دينه، أو نعطـه مالنا على أرضنا، فأبوا وقالوا: تدعونا إلى أن نـذر النصرانيـة، أو نكون عبيـداً لأعرابي جـاء من الحجـاز فلمـا علم تصلبهم لدينهم قال لهم: إنما قلت لكم ذلك لأعلم صـلابتكم على أمركم . وقـد قدم عليه ﷺ وهو بتبوك (يحنة بن رؤبة) صاحب أيلة فصالحه، وأعـطاه الجزيـة، وأتاه أهل (جرباء) و (أذرح) فأعطوه الجزية، وكتب لهم كتاباً فهـو عندهم، وصورة كتابه ليحنة بن رؤبة، وأهل أيلة :

(بسم الله الـرحمن الرحيم، هـذه أمنة من الله ومحمـد النبي رسول الله

---

(١) جـ ٣ ص ٤٥٥ ـ ٤٦٨ تحقيق مصطفى عبد الواحد ط دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع .

ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر.

ثم بعث ﷺ خالد بن الوليد إلى (أكيدر دومة الجندل) وهو: أكيدر بن عبد الملك رجل من بني كندة ملكاً عليها وهو نصراني فخرج إليه خالد فلقيه يصطاد الوحش في الليل هو وأخوه فقتل خالد أخاه وأسره هو، وقدم به على رسول الله ﷺ ولما قدم عليه حقن له دمه وصالحه على الجزية وخلى سبيله فرجع إلى قريته .

قال ابن إسحاق فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة لم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة. انتهى ملخصاً من السيرة النبوية للحافظ ابن كثير[١] .

قلت: إن في خروجه ﷺ من المدينة في شدة من الحر وضيق من الحال قاصداً بلاد الروم ودعوته لهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، وعقده للصلح بينه وبين كثير منهم وأخذه منهم الجزية إن في هذا كله دليلاً واضحاً على أن دعوته عامة وليست بخاصة كما يزعمه بعض أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم، وكذلك أيضاً إرساله قبل ذلك جيشاً من أصحابه إلى بلاد الروم حتى وصلوا مؤتة وقاتلوا الروم هناك واستشهد منهم كثير في سبيل الله كل هذا فعله ﷺ تطبيقاً لأمر الله جل وعلا بقوله له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ... ﴾[٢] .

(١) جـ ٤ ص ٣ ـ ٣٢ المصدر السابق .

(٢) جزء من آية (٦٧) من سورة المائدة .

وسوف أذكر لك نبذة قليلة عن سبب هاتين الغزوتين لتستدل به على أن الرسول ﷺ لم يجعل السيف أولاً هو الوسيلة لنشر الإسلام .

غزوة مؤتة كان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحرث بن عمير الأزدي أحد بني لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم، أو بصري فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه فاشتد ذلك عليه ﷺ حين بلغه الخبر فبعث بعث مؤتة .

أما سبب غزوة تبوك فقال ابن القيم - وابن سيد الناس في عيون الأثر: وذكر ابن سعد قال: بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم وجذام، وعاملة، وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء[1] .

وينبغي لنا أن نبادر بالقول إلى أنه ﷺ في هاتين الغزوتين وما سواهما من سائر الغزوات لم يكن معتدياً ولا ظالماً، وإنما صنع ما صنع بعد أن اعتدى الروم وغيرهم على المسلمين .

---

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس جـ ٢ ص ٢٠٦ .

المبحث الخامس عشر

في تطبيق المسلمين لعالمية دعوة محمد ﷺ

تقدم الكلام على النصوص الدالة على عالمية رسالة نبينا محمد ﷺ كما تقدمت الأدلة على تطبيق الرسول ﷺ لعموم تلك الرسالة في حياته وهي: كتبه التي أرسل إلى ملوك وعظماء البلاد خارج جزيرة العرب، ككتابه لقيصر، وكتابه لكسرى، والنجاشي، وغير ذلك وغزوة مؤتة، وتبوك كما تقدم قريباً والآن هل انقطع تطبيق عموم الرسالة بعد وفاة الرسول ﷺ أولاً ؟ .

والجواب: لم ينقطع ذلك، بل تزايد وتضاعف ولنذكر لك من ذلك أمثلة حية .

تنفيذ جيش أسامة :

إن أول خليفة للمسلمين وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه نفذ الجيش الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عازم على إرساله إلى بلاد الشام على الرغم من معارضة بعض أكابر الصحابة لذلك بسبب الاضطراب في بلاد العرب، ولكن الخليفة أصر على إنفاذ ذلك الجيش وقال: إني لا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ فأبو بكر رضي الله عنه لما بويع بالخلافة جمع الناس فقال: ليتم بعث أسامة، والحال أن العرب قد ارتدت في جميع أطراف الجزيرة، وظهر النفاق ومدت النصارى واليهود أعناقهم، والمسلمون في ذلك الوقت في ظروف حرجة بسبب موت نبيهم ﷺ وارتداد العرب، وقلتهم وكثرة أعدائهم فقال الناس حينئذ لأبي بكر إن هؤلاء جل المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك

فليس ينبغي لـك أن تفرق عنـك جماعـة المسلمين، فقال أبـو بكـر رضي الله عنه : (والذي نفس أبي بكر بيده لـو ظننت أن السباع تخـطفني لأنفذت بعث أسـامة كمـا أمر بـه رسول الله ﷺ ، ولـو لم يبق في القرى غيـري لأنفذتـه)، فخرج الجيش مع أسامة وحبس أبو بكر رضي الله عنه من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالح[1] حول قبائلهم وهم قليـل، وكان من جملة الذين هيأهم رسول الله ﷺ للذهاب تحت إمرة أسامة: عمر بن الخطاب وغيره من كبار الصحابة مهاجرين وأنصاراً . ولما صمم أبو بكـر على إنفـاذ الجيش قال الأنصـار لعمر بن الخـطاب إذهب إلى أبي بكر وقـل لـه إن أبيت إلا أن نمضي فول علينا رجلاً أقدم سناً من أسامـة فخرج عمـر وأخبر أبـا بكر الخبر فقال أبو بكر: لو خـطفتني الكلاب والـذئاب لم أرد قضـاء قضى به رسـول الله ﷺ ، ثم أخذ بلحيـة عمـر وقـال له ثكلتك أمـك وعـدمتـك يـابن الخـطاب استعمله رسول الله ﷺ وتـأمرني أن أنـزعه فـرجع إليهم رأفهمهم ألا سبيـل إلى تغيير أي أمـر، وخرج أبـو بكـر حتى أتـاهم وودعهم وأوصـاهم ألا يخونوا وألا يغلوا ولا يغدروا ولا يمثلوا، ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امـرأة. . . وطلب من أسامـة عمر[2] قـال: إن رأيت أن تعييني بعمر فـأذن له . فحرص أبي بكر رضي الله عنه على تنفيـذ بعث أسامـة إلى بلاد الشام ما هو إلا نوع من تطبيق عموم هذه الرسـالة النبـوية، وقـد كان إنفـاذ هذا الجيش أول سلسلة من الجيـوش التي بعث بها الخلفـاء الراشـدون ومن بعدهم حتى فتحوا بلاد الفرس، والشام ومصر، وأفريقية، وبعض بلاد أوروبـا كما فتحوا بلاد السند وغير ذلك، فأدخلوا دولـة الفرس القـديمة في الإسـلام، واستولـوا على بلاد الأسبان، وملكوا بلاد الشـام فلولا أن هؤلاء المسلمين يعتقدون أنـه يجب عليهم أن يطبقوا ما تضمنه عموم دعوة الإسـلام لما أتعبـوا أنفسهم وجادوا بهـا

(١) مسالح جمع مسلحة وهي : قوم ذو سلاح ، وتقال للثغر . المختار الصحاح ص ٣٠٨ .

(٢) انظر تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٢٦ ط الثانية دار المعارف بمصر .

للموت، واكتفوا بجزيرة العرب حيث كانت خاضعة لهم بلا منازع بعد انتهاء معارك أهل الردة، ولكنهم لم يكتفوا بذلك .

هذا ومع تطبيقهم لعموم الرسالة عملياً لم يتركوا سماحة الإسلام وعطفه حيث لم يجعلوا السيف وحده هو الوسيلة لدخول الناس في هذا الدين ونشره بين الشعوب الوثنية والمسيحية بل جعلوه من ضمن وسائل الدعوة ونشر الإسلام إذا لم يجدوا عنه مفراً فالرسول ﷺ كان إذا أرسل جيشاً أمر عليه أحد أصحابه وأوصاه بأن يخير العدو بين خصال ثلاث :

١ ـ إما أن يسلموا ويدخلوا في الإسلام مع المسلمين فيكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين .

٢ ـ واما أن يعطوا الجزية ويبقوا على كفرهم .

٣ ـ واما أن يقاتلهم .

فاستعمال السيف كان المرحلة الأخيرة، وأصحاب النبي ﷺ كانوا هكذا مقتدين به لأنهم أحرص الناس على اتباعه .

ويدل لما ذكرت حديث مسلم الثابت في صحيحه .

أن رسول الله ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا على اسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن أبوا فأخبرهم بأنهم يكونون كأعراب المسلمين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين .

فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم .

فإن أبوا فاستعن عليهم بالله تعالى وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوا أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تفعل، ولكن اجعل لهم ذمتك فانكم إن تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمة الله، وإذا أرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تفعل بل على حكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أو لا[1] ؟

فترى السيف كان آخر مرحلة من مراحل الدعوة كما في هذا الحديث إذ لا بد قبله من الدعاء إلى الإسلام عن طريق المسالمة، ثم بعد ذلك يصار إلى صيانة الأنفس بالمال الذي هو الجزية فإذا لم يكن إلا الاسنة مركب تعين السيف عند ذلك . فهذه الآداب التي تبرهن على سماحة الإسلام، والتي كان الرسول ﷺ يوصي بها أصحابه حيث كان يوصيهم ألا يغلوا، ولا يغدروا، ولا يقتلوا النساء ولا الشيوخ ، ولا المنقطعين في الصوامع للعبادة، كل هذه الآداب سلكها أصحابه من بعده في نشرهم لدعوة الإسلام كما تقدم في وصية أبي بكر لأسامة فإنه أوصاه بما تضمنه الحديث من عدم الغدر. . . الخ وكذلك سلك هذا المنهج بعدهم تابعوهم، وتابعوا تابعيهم، وقد كانت هذه السماحة سبباً رئيسياً في إدخال كثير من الناس مسيحيين وغير مسيحيين في الإسلام كما شهد بذلك المسيحيون أنفسهم .

يقول: (سير توماس أرنولد): ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمد ﷺ نفسه عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم، ومنحهم الحرية في اقامة شعائرهم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد في باب تأمير الامام الأمراء على البعوث. . . الخ جـ٣ ص ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨ المصدر السابق .

الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة .

وقد وجد حلف كهذا بين أتباع النبي ﷺ وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية: دينهم القديم، والذين تقدم كثير منهم عن طواعية لمؤازرة المسلمين في حملاتهم الحربية، وأظهروا للحكومة الجديدة نفس روح الولاء التي جعلتهم يقفون بمنأى عن الردة التي رفعت لواء العصيان في كافة أرجاء بلاد العرب على أثر وفاة الرسول ﷺ[1] .

وقال أيضاً: مؤيداً استعمال أصحاب الرسول ﷺ لجانب اللين وسماحة الإسلام: وأن المسيحيين يعلمون أن ذلك من شأن المسلمين .

قال في شأن فتح العرب بلاد الشام وفلسطين ، إن المسيحيين حين علموا أن أبا عبيدة وصل الأردن كتب عند ذاك المسيحيون في تلك البلاد إلى العرب المسلمين يقولون: يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا، وعلى منازلنا، وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم[2] .

وقال في كلام آخر بعد أن ذكر بعض ما وقع من الاضطهادات بين الطوائف غير المسلمين كما وقع بين الطائفة النسطورية، والكنيسة الأرثوذكسية وذكر أن عدداً ضخماً من رجال الكنيسة الأرثوذكسية يبلغ ٧٨٠٠ مع عدد ضخم من العلمانيين قد ذبحوا في هذا الاضطهاد بسبب اغراء (برصوما)

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٦٥ ـ ٦٦ المصدر السابق .

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٧٣ المصدر السابق .

أسقف نسطوري ملك الفرس بأن دبر لهم ذلك، ثم قال: ولكن مبادىء التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس. مثال ذلك أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة اقصاء البيزنطيين ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها لهم بعد أن أثبتوا ملكيتهم لها. وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق[1].

ثم ذكر في موضع آخر من كتابه ما يؤيد أن دخول الكثيرين من المسيحيين في الإسلام لم يكن عن قهر ولا شدة وطأة عليهم، ولكن عن رغبة منهم في الإسلام لما رأوا سماحته، ولما كانوا يلاقونه من الاضطهادات والتعذيب قبل الدخول في الإسلام فذكر أن اليعاقبة[2] الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من سكان مصر من المسيحيين كانوا يلاقون من الحكم البيزنطي معاملة مجحفة سيئة فقد كان الأرثوذكس يعاملون القبط اليعاقبة معاملة لا نظير لها في البشاعة حتى بذروا في أنفسهم السخط والحنق عليهم، وفي نفوس أعقابهم إلى الآن فقد كان بعضهم يعذب ثم يلقى به في اليم وفضل كثير منهم المنفى لينجوا من أيدي المضطهدين، وأخفى عدد منهم عقائده الحقيقية وتظاهروا بقبول مجمع قرارات خليكدونية[3].

---

(١) الدعوة الى الاسلام سيرتوماس ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) نسبة الى يعقوب البرادعي الذي يقول: أن للمسيح طبيعة واحدة مؤكداً بذلك مذهب بطريكية الاسكندرية انظر محاضرات في النصرانية لأبي زهرة ص ١٤٨.

(٣) هو الذي قرر أن للمسيح طبيعتين مخالفاً بذلك مجمع اقسس الثاني الذي تبنته كنيسة الاسكندرية القائلة بالطبيعة الواحدة انظر المصدر السابق ص ١٤٥.

وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط: ذلك اللفظ الذي يطلق على المسيحيين من اليعاقبة في مصر حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان، فقد تركهم عمرو أحراراً على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ولم يضع يده على شيء من ممتلكات الكنائس ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب. . . . وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين، بل قد تحول كثير منهم إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح إلى غير ذلك مما ذكره من محاسن الإسلام وتسامح أهله وعدم قهرهم للناس وأن الكثير من الناس دخل في الإسلام عن طواعية ورغبة لا عن قهر بالسيف وإجبار، بل لما رأوا فيه من التسامح والتعاطف والتراحم وغير ذلك[1] .

فتراه أثبت في كلامه هذا والذي قبله سماحة الإسلام، وعدم انتشاره بالقوة، ورد على القائلين بأنه انتشر بالسيف بالأمور الواقعية التي يشهد بها التاريخ . وانما استدللنا بكلامه هذا لأنه لا يقول عن المسيحيين إلا حقاً: عند جهينة الخبر اليقين .

قلت: وما اتصف به(سير توماس) هنا من الاتزان ووصف الإسلام بالسماحة والرحمة فإنه قد وصفه في أول كتابه بضد ذلك، فقد لوح بذلك في أول كتابه حيث قال: ينبغي أن يعلم القارىء منذ البداية أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية، وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم، وليس الغرض أن نؤرخ هنا للحالات التي استعملت فيها القوة لإدخال الناس في الدين الإسلامي فقد عنى الكتاب

---

(١) الدعوة الى الاسلام سيرتوماس ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

الأوروبيون ببيان هذه الحالات حتى لم يعد ثمة خوف لإغفالها[1] فتأمل هذا التناقض أيها القارىء فإن صاحبه مع ما يتسم به من الاتزان لا بد وأن يدس للإسلام ما يشكك فيه أهله .

ثم ذكر سير توماس في كلامه على الهجرة إلى المدينة وعلى تحويل القبلة كلاماً برهن فيه على أن ذلك كله حركة قومية تستهدف باستقلال العرب بوجهتهم إلى بيتهم القديم، وكأنَّ الرسول زعيم ينادي بالحرية والاستقلال وذكر أن القصد من استقبال بيت المقدس أولاً : استمالة اليهود، وأن النبي ﷺ حاول استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة فقد دأب على الاستشهاد بكتبهم ومنحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية ولكنه لما أخفق في اتباعهم له، أمر صحابته أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام ذكر هذا الكلام تحت عنوان: (الهجرة إلى المدينة بداية الحياة القومية إلى الإسلام)[2] وهذا أيضاً من تناقضاته .

وقد رد عليه فضيلة الشيخ محمد الغزالي في كتابه مع الله فقال في تفنيد هذه الفكرة الخاطئة ما يكفينا عن الرد عليه .

قال: وهذا الكلام من أوله إلى آخره تخليط وشذوذ فإن الإسلام لم يختص اليهودية بتلطفه واحسانه حتى يكون متهماً في أدبه مع هؤلاء القوم .

إن الإسلام سبق بالمباشرة والتحمل في علاقاته مع عبدة الأوثان وأهل الكتاب جميعاً ولم يحتج إلى القتال إلا بعد ما أخرجه العدوان وتهدد حياته.

أما القبلة الأولى فقد اتجه المسلمون إليها في مكة قبل أن يعاشروا اليهود أو يكوّنوا معهم صلة ما، وذلك طبيعي في دين يعترف بالنبوات القديمة

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٣٠ .

(٢) الدعوة الى الاسلام سيرتوماس ص ٤٧ .

ويصدق أصولها ويخالف الوثنية الضاربة في أرجاء الجزيرة، ويخاصم شركها، فلما حقت كلمة الله على أهل الكتاب وبدا من مسلكهم ازاء الرسالة الجديدة أنهم مصرون على حربها وأنهم بهذه الحرب ينسلخون عن قواعد الدين التي جاء بها شيخ الأنبياء إبراهيم صرف الله المسلمين عن القبلة التي تجمعهم مع اليهود والنصارى إلى القبلة التي بنى إبراهيم نفسه أركانها وأقام معالمها. . . . والبيت العتيق ليس بناء عربياً يحج إليه جنس معين شاده لنفسه حتى يكون شارة عنصرية، بل هو أثر الرجل الذيَ ينتمي إليه اليهود والعرب جميعاً وتنسب الديانات الكتابية كلها إليه، أثر إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه، ولكن المستشرقين يصبغون الحدائق بلون ينضح بتكذيبهم للإسلام وتخيلهم العليل لحقيقة الرسالة الخاتمة اهـ[1] كما رد فضيلة الشيخ محمد الغزالي أيضاً عليه في تناقضاته الأولى التي قال فيها: إن المسلمين استعملوا القوة لإدخال الناس في الإسلام في أول كتابه وبعد ذلك ذكر ما يخالف قوله، ومن أراد الوقوف على رده عليه فليطالع كتاب (مع الله) ص ١٠٩ ـ ١١٠ فإنه رد عليه هناك بما فيه الكفاية ويشفي الغليل .

مثال آخر :

لما كان في السنة الثانية عشرة من الهجرة وانتهى قتال أهل الردة في اليمامة على يد خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد أن سر إلى العراق حتى تدخلها، وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم. فذهب خالد بمن معه من جيوش المسلمين حتى نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع قبيصة بن إياس الطائي وكان أمره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر فقال لهم خالد: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم مالهم وعليكم ما

---

(١) مع الله ص ١١٩ ـ ١٢٠ المصدر السابق .

عليهم، فإن أبيتـم فالجزية، فإن أبيتم الجزيـة فقد جئتكم بـأقوام هم أحـرص على الموت منكم على الحياة: جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم، فقـال لـه قبيصة بن إيـاس، مالنـا بحربـك من حاجـة، بل نقيم على ديننـا ونعطيـك الجزية فصالحهم على تسعين ألف درهم[1] ثم سار خـالد في طـريقه وتـوالت الفتوحات وقـامت المعارك بين جيـوش المسلمين والفرس حتى فتـح الله على أيديهم تلك البلاد .

وليس مرادي أن أستقصي خبر الفتوحات العراقية ولا الشـامية لأن ذلـك يخرجني عن المقصود، وإنمـا قصدت أن أمثـل لتطبيق أصحـاب الرسـول ﷺ لعمـوم دعوتـه كما طبقهـا هو في حيـاته فـإنهم لم يثنهم موتـه عن نشـر دعـوة الإسلام ودعوة جميع الشعوب المـوجودة على وجـه الأرض لأنهم كلما فتحـوا بلداً واستقر فيه الإسلام زحفوا إلى المكان الذي يليـه حتى وصلوا بلاد السنـد والهند، ووصلوا الأندلس في أوروبا وفتحوا الكثير من بلاد أفريقيا إلى غير ذلك من البلاد .

كل هذا يدل على عموم رسالة نبينا ﷺ وأنها شاملة لا تختص بزمان ولا بمكان . .

يقول الأستاذ العقاد :

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول لأنها تشمل الأمم الانسـانية جميعـاً كما تشمل النفس الإنسـانية بجملتهـا من عقل وروح وضميـر، فليس الإسلام دين أمـة واحـدة ولا هو دين طبقـة واحـدة، وليس هـو للسـادة المسلطين دون الضعفـاء المسخـرين، ولا هـو للضعفـاء المسخـرين دون السـادة المسلطين، ولكنـه رسالـة تشمل بني الإنسـان من كل جنس وملة وقبيـل. . . فهذه عقيـدة

---

(١) تاريخ ابن جرير الطبري جـ ٢ ص ٥٥١ ـ ٥٥٢ .

انسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الأمم لأنها من سلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل(١).

الواقع يشهد بعموم رسالة محمد ﷺ(٢) :

إن رسالة نبينا محمد ﷺ رسالة عامة شاملة من جميع النواحي لمصالح العباد في معاشهم ومعادهم في كل زمان ومكان وليست قاصرة على الجيل الذي بعث فيه ﷺ، وليست مقصورة على العرب دون غيرهم من سائر المخلوقات كما يشيع ذلك أعداء الإسلام، فقد اشتملت على جلب المصالح للعباد ودرء الفاسد عنهم، كما اشتملت على مكارم الأخلاق واتباع أحسن المناهج من التحسينات والتتميمات والسعادة لا تعدو هذه الأمور .

ومع هذا فإن شريعة الإسلام مرنة فقد شملت كل ما يتصل بالعباد من عقيدتهم وعباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم وجميع شؤونهم فرادى ومجتمعين، فمفعول الرسالة النبوية وقت ظهورها ونزولها على نبينا ﷺ وتطبيقه لها، وتطبيق أصحابه الكرام لها، ذلك المفعول سائر إلى الآن لم يتغير بعد أربعة عشر قرناً، وهذا أعظم دليل على عمومها وشمولها لأهل كل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) انظر حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٢) قلت قول الأستاذ : لأنها تشمل الأمم الانسانية جميعاً، وقوله : ولكنه رسالة تشمل بني الانسان من كل جنس وملة وقبيل الظاهر أن هذا الكلام يفهم منه قصر الرسالة النبوية على بني الانسان خاصة، وذلك ينافي ما قدمنا من حكاية الاجماع على شمولها للثقلين : الأنس والجن . وما قدمناه أيضاً من الخلاف في شمولها للملائكة وما مر من النصوص الدالة على ذلك من الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينْ إِلاَّ رَحْمَةً ﴾ .

وقوله ﷺ : « .... وأرسلت الى الخلق كافة » وتقدم هذا كله . بيد أني أقول بأن الأستاذ العقاد لم يلحظ هذا المعنى اذ لا أظنه يقول بقصرها على بني الأنس وحدهم .

فكان أول هدف من أهداف هذه الرسالة هو : الإيمان بالله تعالى وتوحيده بانقاذ الناس من عبادة المخلوقين إلى عبادة رب واحد خالق رازق، والإيمان بملائكته، وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره .

وكانت نتيجة هذا الإيمان آنذاك هي نتيجته الآن، وهي السعادة في الدنيا والآخرة لأن الله جلت قدرته خلق هذا الخلق لا للمقام في دار الدنيا بل جعلها له مرحلة عبور يعبر منها إلى دار المقام الأبدي، إما مقام جحيم، وإما مقام نعيم، وجعل للمقام في ذلك النعيم سلماً يرتقي إليه منها، وذلك السلم هو الإيمان بالله وأنه خالق الكون ومدبر شؤونه، وهو المتصرف فيه وهو الذي يحيي ويميت وإليه النشور، فإذا آمن العبد بهذا وعقد عليه القلب، وآمن بملائكة الله الذين خلقهم وجعلهم عباداً مكرمين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وآمن بالرسل لا يفرق بين واحد منهم وآخر، وبكتب الله الذي أنزل على رسله، وآمن باليوم الآخر، وأنه يوم تجازى فيه النفوس بأعمالها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وآمن بالقدر خيره وشره، وأن الأمر كله من الله فمن آمن بهذا نال رضا الله وفاز بالنعيم المقيم لأن الله وعد بذلك كل من آمن به من المؤمنين قديماً وحديثاً سواء في عصر الرسالة أو الآن في القرن الخامس عشر فمدلول الرسالة النبوية هو هو فمن آمن هذا الإيمان المذكور الآن من اليهود أو النصارى، أو المجوس أو غيرهم نال ذلك النعيم لأن الله وعد به كل من آمن به في أي زمان وفي أي مكان ولن يخلف الله وعده فدل هذا على أنها رسالة عامة شاملة من جميع النواحي .

وكذلك العبادات نتيجتها في مطلع الرسالة سارية المفعول حتى الآن لم تتغير ولم تنسخ، فالصلاة كانت ولم تزل هي عماد الدين، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ولم تزل صلة بين العبد وربه يناجيه فيها ويتقرب إليه في يومه خمس مرات دون تطوعاته يناجيه طرفي النهار وزلفا من الليل ولم تزل هكذا دأبها

تنهي كل مخلوق من خلق الله عن الفحشاء والمنكر، كان تركها علامة على كفر صاحبها أو فسقه، ولم يزل الأمر كذلك إلى الآن مما يدل على مرونة هذه الشريعة التي جاءت بها رسالة خاتم الأنبياء وشمولها للأزمنة والأمكنة، ولسنا نريد التوسع في الكلام على الصلاة وفضلها وفوائدها الكثيرة ولا التوسع في غيرها من العبادات، وإنما أريد أن ألمح من خلال ذكرها إلى مرونة هذه الشريعة السمحة وعموم رسالة محمد ﷺ .

وكذلك القول في سائر العبادات: كالزكاة والصوم، والحج فمن تأملها كلها علم أنها تدل على عموم هذه الرسالة النبوية وخلودها ومرونتها ودوام الحكمة منها لم تتغير أي حكمة من حكم العبادات من ذلك الزمن حتى الآن لا من حكم الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم، ولا الحج ولا الجهاد(١) .

وقال أحدهم... فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص:

عموم بالنسبة إلى المرسل اليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها ولا يتم الإيمان به إلا باثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به(٢) .

مرونة الشريعة دلالة على عموم الرسالة :

إن الشريعة والعقيدة متلازمتان لا تنفك إحداهما عن الأخرى منذ أرسل

(١) طالع الدعوة الاسلامية دعوة عالمية لمحمد الراوي ، ورسالة الاسلام للسيد عبد الحميد الخطيب فقد بسطا القول في دلالة أركان الاسلام على عموم رسالة محمد ﷺ .

(٢) انظر أعلام الموقعين جـ ٤ ص ٣٧٥ ط دار الفكر بيروت تعليق محمد محيي الدين عبد الحميد .

الله الرسل وشرع الشرائع فكل رسول أرسله الله أمره بالدعوة إلى العقيدة، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[2] وكل رسول أرسله الله جعل له شرعة ومنهاجاً كما قال تعالى :

﴿ . . لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ . . . ﴾[3]

وقد شملت شريعة محمد ﷺ جميع الشرائع المتقدمة عليها وزادت وهيمنت عليها وأثبتت للناس جميع مصالحهم من كل ما يحتاجون إليه، وذلك لأنها لا شريعة بعدها فكان الزاماً أن ترسم للناس دستوراً يمشون عليه مدة حياتهم فلا بد أن تكون هذه الشريعة الأبدية كاملة مستوعبة لكل ما تتطلبه الحياة البشرية في مختلف اتجاهاتها وجوانبها من تنظيم واصلاح، وقد نظمت هذه الشريعة للبشرية حياة سعيدة اجتماعية وسياسية واقتصادية على أكمل وأحسن الوجوه . . . .

والشريعة الإسلامية غير قابلة للتغيير ولا للتبديل، ولا للتنقيح والتهذيب لأنها من عند من يعلم ما كان وما يكون وقد أحاط بكل شيء علماً، وتستمد قواعدها من كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

فيه بيان كل شيء، وتفصيل كل شيء، ولا يمكن لأهل الأرض قاطبة

---

(١) جزء من آية (٢٥) من سورة الأنبياء.

(٢) جزء من آية (٣٦) من سورة النحل.

(٣) جزء من آية (٤٨) من سورة المائدة .

من جميع نواحيها أن يغيروا جزئية واحدة من هذا التشريع ويأتوا بدلها بما يخلفها، كما لا يمكن أن يضيفوا إليها شيئاً يجانسها، وقد باء أهل القوانين الوضعية بالفشل حيث يضعون اليوم دستوراً ويغيرونه غداً، أو بعد غد، ويضعونه صالحاً لمدة معينة ويغيرونه قبل ذلك ﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[1] وليست هذه الشريعة قابلة للزيادة كما فعل النصارى بديانتهم حيث يقررون عقيدة وشريعة في مجمع ثم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى يقرروا مجمعاً آخر ويزيدوا في تشريعهم ذلك وهلم جراً إلى آخر مجامعهم الكثيرة، فشريعة الإسلام مستوعبة ومتكاملة في جميع الميادين والاتجاهات، ولا شك أننا نشاهد المجتمعات المعاصرة الآن التي تحكم بشريعة غير شريعة الإسلام أصيبت بالفوضى والهمجية والانحلال، وانتشرت فيها أنواع الظلم كالسرقات والغصب والقتل وجميع أنواع الاعتداءات، وذلك نتيجة لجوء هذه المجتمعات إلى تحكيم قوانين وضعية معرضة للتغيير والتبديل وكل ما غير منها جانب جيء بجانب أسوأ منه فاختل نظام الحياة وعمت الفوضى والاضطرابات اهـ[2] .

---

(١) جزء من آية (٨٢) من سورة النساء .

(٢) طالع الدعوة الى الله خصائصها مقوماتها ، مناهجها د : أبو المجد السيد نوفل ص ١٠١ ـ ١٠٣ بتصرف .

المبحث السادس عشر

في أمثلة حيوية من التشريع الاسلامي

إن المصالح العامة للبشر كله تدور حول المحافظة على ستة أشياء.

١ ـ الدين

٢ ـ النفس.

٣ ـ العقل.

٤ ـ النسب.

٥ ـ العرض.

٦ ـ المال.

وهذه الجواهر الستة حافظ عليها الإسلام محافظة كاملة يتبين منها عموم هذه الرسالة وشمولها لما يحتاجه العباد في كل زمان ومكان بحيث لا يحتاجون إلى تشريع آخر وبين الحكمة في المجافظة عليها، وأوجب درء المفاسد عنها.

أولاً ـ الدين: فإنه لما كان سبباً في سعادة المرء امتثال أمر خالقه ولا تمكن الحياة السعيدة بدونه، وكان الله لا يقبل من الأديان إلا دين الإسلام فقد اقتضت حكمة التشريع الاسلامي صيانته والمحافظة عليه، قال ﷺ: « **من بدل دينه فاقتلوه** »[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين.. في باب: اثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة.

وقال ﷺ: « **لا يحل دم أمرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الشيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة** »(١).

ثانياً: النفس فقد خلق الله جل وعلاعباده ليعبدوه وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا وحرم عليهم دماءهم وأموالهم الا بحقها ولهذا اقتضى التشريع الإسلامي المحافظة على النفس بأحكم الطرق وأقومها الا وهي طريقة القصاص التي هي أعظم وسيلة لسلامة الأنفس من القتل، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾(٢) فكل من هم بالقتل وتذكر أنه إذا قتل يقتل أشفق على نفسه من القتل فأحيا نفسيه والذي كان يريد قتله.

ثالثاً: العقل فإنه لما كان مناط التكليف وفي إفساده مضرة عظيمة على الدين والدنيا أوجب الله تعالى حفظه فمنع شرب الخمر التي هي سبب في إفساده وجعل عليه عقوبة صارمة تمنع منه وهي: الحد فقد أوجب الله في الإسلام الحد على شارب الخمر درءاً للمفسدة عن العقول.

رابعاً: النسب: من لطف الله بعباده أن جعل بينهم النسب والصهر ليعطف البعض على البعض، وليتراحموا فلهذا حرم الله الزنا لئلا يبقى الأولاد من الزنا ضائعين تائهين لا عاطف عليهم، ولا رحيم يرحمهم فاقتضت حكمة التشريع الالهي تحريم الزنا ولأجل المحافظة على الأنساب جعل الله في الاسلام عقوبة صارمة على مرتكبه ربما أودت بحياته فلأجل هذه العقوبة حفظت الأنساب ومنعت من الضياع والاختلاط.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الديات في باب قوله الله تعالى: ﴿ **أن النفس بالنفس** ﴾.. ومسلم في القسامة جـ ٣ ص ١٣٠٢ المصدر السابق.

(٢) آية (١٧٩) من سورة البقرة.

خامساً : العرض فإنه لما كان اغتياب المسلم والنيل منه وسبه ينافي الحكمة التي خلق لها الخلق حرم الله جل وعلا على العباد أعراضهم، ومن أجل المحافظة عليها وصيانتها أوجب الإسلام على من قذف أخاه المسلم عقوبة صارمة هي الحد درءاً للمفسدة عن الأعراض.

سادساً : المال أما المال فإنه لما كان قوام الحياة وكان لا غنى للبشرية عنه حيث تقوم به حياتهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾(١)

أمر الله تعالى بالمحافظة عليه، وحرم أكله بالباطل وحرم على المسلم القليل والكثير من مال المسلم الا برضاه، ولأجل المحافظة على هذا القوام اقتضت حكمة الله في عباده أن يجعل عقوبة صارمة على من أخذ ربع دينار ذهباً أو ثلاثة دراهم فضة من مال أخيه المسلم خفية من حرز المثل ، ألا وهي قطع اليد درءاً للمفسدة عن الأموال(٢) فالمتأمل في هذا التشريع السماوي ومنهجه وحكمه يعلم أنه تشريع من حكيم خبير صالح لكل زمان ومكان.

وإذا قارنا بين أحوال البلاد التي تدعي الحرية والديمقراطية وتحكم بالقوانين الوضعية وبين من يحكم شريعة الاسلام ويطبق الدستور السماوي الشامل لصالح الفرد والمجتمع الشامل لكل خير وسعادة : وجدنا فرقاً شاسعاً بين أولئك وهؤلاء فنجد أولئك لا يمكن لشخص أن يحصى جرائم الشهر، بل وجرائم الأسبوع لأنهم لم يضعوا عقوبة صارمة تردع مرتكبي الجريمة عن فعلها كما هو في الشريعة الاسلامية . فتبين أن شريعة الإسلام حيوية شاملة متكاملة.

---

(١) جزء من آية (٥) من سورة النساء .

(٢) انظر منهج التشريع الاسلامي وحكمته للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ص ٣٩ فما بعدها بتصرف واختصار .

المبحث السابع عشر

في حكم من لم تبلغه دعوة الإسلام من هذه الأمة

مما لا شك فيه أن من لم تبلغه دعوة الإسلام ، ولم ير النبي ﷺ ولم يبلغه القرآن غير مؤاخذ بها ، لأن الله تعالى الحكم العدل لا يعذب العباد حتى يقيم عليهم الحجة بارسال الرسل اليهم وتبليغهم إياهم، فمن أطاع سعد، ومن أبى عذب وقامت عليه الحجة ، كما نطقت بهذا الآيات القرآنية بكثرة ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾[1]

﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[2]

﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[3].

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ

---

(١) آية (٩) وجزء من آية (٨) من سورة الملك .

(٢) جزء من آية (١٦٥) من سورة النساء .

(٣) جزء من آية (١٥) من سورة الاسراء .

أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[1].

وقد يرد هنا سؤال وهو : هل يشترط في اقامة الحجة أن تبلغ الدعوة الناس على وجه مفصل صحيح ، أو يكفي مجرد اعلامهم برسالة محمد ﷺ ، وبلوغ القرآن لهم وانتشار المسلمين في أقطار الدنيا؟ .

وأقول : أما الذين بلغتهم دعوته ﷺ على وجه مفصل صحيح سواء أكانوا أهل كتاب أم غيرهم وعقلوها وفهموها فهما صحيحاً وأعرضوا عنها ، فإن هؤلاء حقت عليهم كلمة العذاب بلا شك. وبقي من بلغته على وجه غير مفصل بحيث سمع أن محمد بن عبد الله رسول آخر الزمان أتى بشريعة نسخت جميع الشرائع وبلغه القرآن، ورأى بعض المسلمين وقرأ تاريخهم ، هل تركه للدخول في الاسلام يجعله في اعداد أهل النار أولا؟ وهل اليهود والنصارى من كان منهم متمسكاً بشريعته مؤمناً بالله واليوم الآخر مصدقاً لنبيه موسى أو عيسى عليهما الصلاة والتسليم ويعمل الصالحات ينجيه ذلك أولا؟

وقد تكلم فضيلة الشيخ محمد الغزالي في كتابه (مع الله) على هذه المسألة فقال:

. . . . ونحن عندما نبحث أحوال الأمم الكثيفة التي لم تدخل الإسلام، ونفكر في مصيرها عند الله لابد أن نضع نصب أعيننا الحقائق التالية : -

١ - أن هناك ألوفاً مؤلفة تعتبر في حكم من لم تبلغه الدعوة أصلاً، وإن مرت على بعثة الرسول ﷺ صاحب الدعوة أربعة عشر قرناً. فهي : إما أن

---

(١) جزء من آية (٧١) من سورة الزمر .

تجهل كل شيء عن محمد ﷺ وقرآنه وسائر تعاليمه، واما أن تعلم من ذلك مفتريات روجها أعداء الإسلام وحشوها بما في أدمغتهم من أكاذيب، ولعلها معذورة في صدودها عن ذلك الدين لأنها لم تتلق الحق من أصحابه ولم تسمع لهم قيلاً . . . ثم قال: انهم يشبهون أهل الفترة ولا يعذبون. . . إلى ان قال غير أنه ينضاف إلى ما سبق شيء آخر وهو أن الله زود الانسان بعقل يحسن به التفكير، والحكم، والنقد، والرد وجعل في طاقة هذا العقل أن يتعرف على الخالق وأن يطمئن إلى وحدانيته كما زوده بعقل يعرف به الخير والشر ويرضى به العدل، ويسخط به الظلم وبهذه الخصائص الانسانية يكلف الإنسان ولو لم يأته[1] نبي أن يبتعد عن الإلحاد والشرك وأن ينفر من الظلم والفساد وربما لم يطالب بجملة العبادات التي بينها المرسلون لكنه مكلف بأركان الحقيقة العظمى في حياة البشر وهي: اليقين في إله واحد، وفعل الخير جهد الاستطاعة قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ. . ﴾ الآية.

٢ ـ وهناك أقوام على مواريث من ديانتي موسى وعيسى كبعض الموحدين من اليهود والنصارى الذين قام لديهم من الثقة ما جعلهم يعتقدون أنهم محقون ، وأنهم يؤدون ما يرضي رب العالمين، وقامت كذلك على بصائرهم حجب جهلتهم بالقرآن وحرمتهم من نوره. وحكمهم إذا آمنوا بالله على نحو صحيح وعملوا الصالحات في حدود ما يعرفون أنهم لا يعذبون ما لم يشب إيمانهم تثليث أو تجسيم ، أو حلول، أو اتحاد ، وذلك كنفر من مفكري الشرق والغرب يؤمنون بإله واحد، ويتقربون إليه بسلامة الضمير وإحسان العمل بيد أنهم لا يعرفون محمداً ﷺ لأن أحداً لم يعرفهم به أويشرح

(١) التكليف دون بعثة الأنبياء يخالف نصوص القرآن الكثيرة ، والعقل وحده لا يتوصل الى معرفة الخالق سبحانه وتعالى الا بضمية النقل اليه الا على مذهب المعتزلة .

لهم أصول دينه، وهم يرون المرسلين جميعاً وبينهم عيسى ابن مريم رجالاً طيبين يستحقون الإجلال والشكر لما قدموا من خير للناس انتهى محل الغرض من كلامه[1].

قلت : إن لي اعتراضاً على كلام الشيخ محمد الغزالي من وجوه:

١ ـ ان تشبيه مفكري الشرق والغرب من اليهود والنصارى بمن لم تبلغهم الدعوة الإسلامية ولم يعرفوا شيئاً عن الرسول ﷺ ولا عن القرآن غير مقبول عندي إلا إذا ثبت عن طريق الاستقراء التام أن هؤلاء الباحثين المفكرين من الشرق والغرب لم يعرفوا شيئاً عن محمد ﷺ ولا عن القرآن، وهذا من الصعب جداً لأننا الآن ندرس تآليف المفكرين من الشرق والغرب في الإسلام وشبهاتهم التي أوردوهاعليه وتحينهم الفرص في ذلك تحين الخبير ونستفيد من تآليفهم في الإسلام، وهل يفعل هذا الا من عنده علم مفصل عن حقيقة الإسلام، فليس من الممكن عندي أن يكون هؤلاء لم يعرفوا شيئاً عن الرسول ﷺ ولا عن القرآن لأن منهم من تتبعه سورة سورة أو آية آية، ومنهم من درس حياة الرسول ﷺ، ودرس سيرته ومنهم من درس وسائل انتشار الإسلام في البلاد وألفوا في ذلك تآليف كثيرة. أضف إلى هذا ان الزمان تقارب وما من قطر الا وفيه بعض المسلمين وما من بلد الا ويذيع القرآن الكريم، وقد كثر الباحثون الدارسون لشريعة محمد ﷺ. فتشبيههم بأهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة رسول على الاطلاق فيه ما فيه، وإذا كانت هذه الآلاف المؤلفة من الناس كما عبر به لا يعذبون لأنهم معذورون كأهل الفترة فما الفرق بين أمة الدعوة وأمة الاجابة؟.

٢ ـ أن قوله : وهناك أقوام على مواريث من دیانتي موسى وعيسى كبعض الموحدين من اليهود والنصارى الذين قام لديهم من الثقة ما جعلتهم

---

(١) مع الله ص ٥٧ ـ ٥٨.

يعتقدون انهم محقون وأنهم يؤدون ما يرضي رب العالمين. . . وحكمهم إذا آمنوا بالله على نحو صحيح وعملوا الصالحات في حدود ما يعرفون: انهم لا يعذبون مالم يشب إيمانهم تثليث أو تجسيم، أو حلول أو اتحاد. . . الخ كلامه : فهذا الكلام كله عندي غير مقبول وذلك لأن توارث شريعة موسى وعيسى لا ينفع انساناً كائناً من كان بعد ظهور شريعة محمد ﷺ لأنها نسخت جميع شرائع الأنبياء الا ما أقرت منها مع أن موسى وعيسى لو كانا موجودين زمن رسالته ﷺ لما وسعهما إلا إتباعه، يدل لذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد وهو قوله ﷺ :

«والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم انكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » (١)

وان كان الحديث لم يكن خطاباً لأهل الكتاب لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب،وقد ثبت عنه ﷺ أنه لا يسمع به أحد من أمته ثم لم يؤمن به الا دخل النار فقد ثبت في صحيح مسلم انه ﷺ قال:

« والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » (٢).

فالنبي ﷺ صرح في هذا الحديث الصحيح أن كل من سمع به ومات ولم يؤمن به دخل النار، وهؤلاء المفكرون يبدو لي أنهم سمعوا به ، وقد نص على اليهود والنصارى، وقد تقدم أنهم عالمون برسالته ﷺ اليوم وبلغتهم كما بلغت أسلافهم زمنه ﷺ .

فهؤلاء الذين توارثوا شريعة موسى وعيسى عليهما وعلى نبينا أفضل

---

(١) المسند جـ ٣ ص ٤٧١ .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٤ المصدر السابق .

الصلاة والتسليم إذا كانوا متمسكين بشريعتهم التي جاءهم بها موسى وعيسى ولم يحرفوا ولم يبدلوا ولم يغيروا فهؤلاء هم أعلم الناس بمحمد ﷺ وبرسالته ، لأن في شريعة عيسى البشارة بمحمد ﷺ وبنبوته .

وقد تقدم تفسير علي بن أبي طالب وابن عباس لقوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ اللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ . . .﴾ وهو أن الله ما ما بعث نبياً من الأنبياء الا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، فميراثهم من موسى وعيسى لو جاءهم كاملاً لابد أن يجدوا فيه أخذ الميثاق عليهم بالإيمان به ﷺ .

والله جلا وعلا أخبر أن عيسى بشر بمحمد ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾(١)

واليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم والنصارى كذلك ، وعليه فيكونون قد كفروا برسالته ﷺ وبالقرآن وجحدوهما كما جحدهما أسلافهم من قبل ولا يعذرون ، ولا يشبهون بأهل الفترة، مع أن الذي يتمسكون به ويعتقدون أنه ينجيهم إنما هو مما حرفه آباؤهم وبدلوه وأتوا به من عند أنفسهم فهم يدينون لله بشيء ، ويعلمون أنه من عند غير الله، فلا ينبغي الحكم عليهم بأنهم ناجون من عذاب الله. وان كانوا يعتقدون أنهم على حق فهم : يحسبون أنهم على شيء الا إنهم هم الكاذبون .

---

(١) جزء من آية (٦) من سورة الصف .

وفضيلة الشيخ حكم عليهم بأنهم لا يعذبون الا إذا شيب إيمانهم بتثليث، أو تجسيم، أو حلول، أو اتحاد، وهل بني اليهود والنصارى عقائدهم الا على هذه المذكورات ؟ كما هو أعلم بذلك مني.

٣ - إن من لم يؤمن بمحمد ﷺ لا ينفعه عمله الصالح في الآخرة لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[1].

ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾[2]

ويقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ...﴾[3]

إلى غير ذلك من الآيات وهو يقول: انهم إذا آمنوا بالله على نحو صحيح مع حجب بصائرهم عن نور القرآن واحترامهم منه ينجون من عذاب الله.

أضف إلى هذا ان العلماء صرحوا بأن العمل الصالح لا ينفع صاحبه الا بشرطين وهما: -

أولاً: أن يكون العمل خالصاً لوجه الله الكريم.

ثانياً: أن يكون موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد ورودها وقد مثلوا بالرهبان والمنافقين حيث قالوا ان الرهبان في عملهم وعبادتهم مخلصون لله، ولكن

---

(١) آية (٢٣) من سورة الفرقان.

(٢) آية (٣٩) من سورة النور.

(٣) جزء من آية (١٨) من سورة ابراهيم.

هذا العمل لم يوافق ما جاء به محمد ﷺ فلم ينفعهم، والمنافقون صلاتهم وصومهم وجهادهم يوافق ما جاء به ﷺ ولكنهم غير مخلصين في ذلك لله فهم في الدرك الأسفل من النار[1].

٣) فظهر مما ذكرنا ان اعتقاد هؤلاء الوارثين لشريعة موسى وعيسى ويعملون الصالحات، ويعتقدون أن هذا وحده ينفعهم دون الإيمان بنبينا ﷺ مع علمهم به وبرسالته وبالقرآن - اعتقاد باطل وزعم فاسد، فلا اعتداد بإيمانهم ولا بعملهم الصالح وذلك كله مردود لأن الرسول ﷺ يقول: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [2].

وذكر الشيخ رشيد رضا كلاماً قريباً من كلام الشيخ محمد الغزالي في تفسير: المنار حيث قال عند تفسير آية البقرة: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ قال بعد أن ذكر كلاماً للشيخ محمد عبده قرره في دروسه: وإنني أتممه على المنهج الذي جريت عليه فأقول.......

فالآية بيان لسنة الله تعالى في معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت فهو على حد قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [3] إلى قوله نقيراً فظهر بذلك أنه لا اشكال في حمل من آمن بالله واليوم الآخرعلى قوله: ﴿إنَّ الّذينَ آمنوا ..﴾ الخ ولا اشكال في عدم اشتراط الإيمان بالنبي ﷺ لأن الكلام في معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحي.

---

(١) طالع ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ في سورة البقرة جـ ١ ص ١٥٤ المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلح في باب: اذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. ومسلم في كتاب الأقضية في باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور جـ ٣ ص ١٣٤٤ المصدر السابق.

(٣) جزء من آية (١٢٣) من سورة النساء.

بخصوصها الظانة أن فوزها في الآخرة كائن لا محالة لأنها مسلمة، أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلاً، فالله يقول فيما معناه: ان الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية وإنما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس، وعمل يصلح به حال النفس ولذلك نفى كون الأمر عند الله فحسب إما في المسلمين أو إما في أهل الكتاب، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح انتهى محل الغرض من كلامه (١).

قلت إذا كان قول الاستاذ (رشيد رضا) ولا اشكال في عدم اشتراط الإيمان بالنبي ﷺ الخ كلامه يريد بذلك من آمن من الأمم السابقة بأنبيائهم قبل نبوة نبيّنا صلى الله عليه وسلم، فهذا كلام حق، وهو الذي دلت عليه الآية الكريمة وإن كان الإيمان بالأنبياء السابقين يتضمن الإيمان به صلى الله عليه وسلم كما قدمنا، وإن كان يريد أن الموجود من اليهود والنصارى والصابئين في زمنه ﷺ أو في زمننا هذا يكون: من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً وفق ما جاءه به نبي من الأنبياء قبل نبينا ﷺ ناجياً من عذاب الله بسبب هذا الإيمان وهذا العمل الصالح فإن هذا الكلام غير مقبول عندنا الا إذا كان هؤلاء لم يسمعوا بمحمد ﷺ ولا بشريعته وقد تقدم ما يتضمن رده في الاعتراض على كلام الشيخ محمد الغزالي، وإنما قلت هذا لأن الله صرح في كتابه بأن التفرقة في الإيمان بين الرسل لا تفيد المؤمن ببعض دون بعض. قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ...﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ (٣)

---

(١) انظر تفسير المنار جـ ١ ص ٣٣٦ ط ١٤ .

(٢) جزء من آية (٢٨٥) من سورة البقرة .

(٣) آية (١٠٥) من سورة الشعراء .

مع أنهم لم يكذبوا الا برسول واحد وهو نوح عليه السلام . وقال أيضاً بعد أن نقل كلاماً للإمام الغزالي جعل فيه الناس بالنسبة لبعثة النبي ﷺ واسطة وطرفين : طرف غير مؤاخذ قطعاً وهو: من لم تبلغه الدعوة أصلاً لا اجمالاً ، ولا تفصيلاً بحيث لم يسمع عنها، ولا عن صاحبها أي شيء، وطرف مؤاخذ قطعاً وهو : من بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر في أدلتها إهمالاً أو عناداً أو استكباراً ، وهؤلاء مؤاخذون قطعاً .

والواسطة : من بلغته الدعوة على غير وجهها أو مع فقد شرطها : وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر، وهؤلاء عنده في معنى الصنف الأول إ هـ. كلام الإمام الغزالي. ثم قال رشيد رضا وأقول: في حل معنى الآية على هذا أن أهل الأديان الالهية وهم الذين بلغتهم دعوة على وجهها وبشرطها إذا آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح الذي بينه نبيهم وعملوا الأعمال الصالحة فهم ناجون مأجورون عند الله تعالى ا هـ[1].

وأقول: إن المفكرين من رجال الشرق والغرب اليوم وهم معروفون مثل الصنف الثاني لأنهم بلغتهم الدعوة وأعرضوا عنها عناداً واستكباراً واهمالاً ، فهم عندي مثل الصنف الذي قال الغزالي إنه مواخذ قطعاً وذلك أن المتدينين اليوم من اليهود والنصارى بلغتهم دعوته ﷺ وأعرضوا عنها عناداً واستكباراً، وحاولوا وما زالوا يحاولون طمسها وصد الناس عنها بشتى الوسائل المتفرقة من أنواع التبشير الذي بثوه في جميع المعمورة ولا سيما في القارتين الآسيوية والأفريقية اللتين يقطنهما معظم المسلمين، وقد بعثوا المستشرقين منذ قرون عديدة لدراسة الإسلام فدرسوه وجالوا في بلاد المسلمين واختلطوا بعلماء الأزهر وغيرهم ، وحاضروا في الجامعات في الاقطار الاسلامية فكيف يقاسون على من لم تبلغهم الدعوة أصلاً ولم يسمعوا بها ولا بالرسول ولا

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٣٩ المصدر السابق .

القرآن . اللهم إلا إذا كان القياس مع وجود الفارق سائغاً عند القائل بنجاتهم .

ويؤيد ما ذكرته من عدم نجاة هؤلاء المتدينين من اليهود والنصارى ما ذكره الدكتور أبو المجد السيد نوفل في كتابه : الدعوة إلى الله فقد قال بعد أن ذكر كلام الإمام محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا في هذه المسألة ملخصاً ، وذكر كلام الغزالي الذي تقدم ما نصه : والحاصل أن الناس أمام الدعوة أصناف .

من لم تبلغهم الدعوة مطلقاً، أو بلغتهم لكن بصورة مشوشة وعلى وجه لا يحرك داعية النظر، أو كان فاقداً لوسائل الادراك من عقل وسمع وبصر فهؤلاء برحمة الله تعالى ناجون على رأي الأشاعرة، وغير ناجين عدا الصنف الثالث على رأي المعتزلة .

لكن الناجين من هؤلاء ليسوا على درجة واحدة في النجاة مع أصحاب الرسالات العاملين، وذلك لتحقيق العدالة في الجزاء .

وصنف بلغته الدعوة بصورة صحيحة غير مشوشة وهو متمتع بحواسه وعقله لكنه لم يستجب وعاند واستكبر، وهؤلاء هم الهالكون حتماً وعلى رأسهم رجال الأديان الأخرى ومن في حكمهم ، والعلماء وغيرهم ممن هم على صلة بموضوعات الأديان وما يتعلق بها ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة فيما يبحثون(١) .

ومحل الشاهد من كلامه قوله: وعلى رأسهم رجال الأديان الأخرى فإن رجال الأديان هم المفكرون والباحثون من رجال الشرق والغرب الذين

---

(١) الدعوة الى الله للدكتور أبو المجد السيد نوفل ص ٣٤ .

يزعمون انهم ورثوا شريعة موسى وعيسى عليهما الصلاة والتسليم ، ويعملون كثيراً من الخير كالمواساة بأنواعها من الطب وأنواع الامدادات المادية ونشر العلوم وغير ذلك ويعتقدون بهذا أنهم ناجون عند الله من العذاب، وقد قدمنا أن هذا زعم باطل. لا اعتقاد صادق إ هـ .

الفصل الثالث

في رد بعض الشبه الواردة حول عموم دعوة الاسلام

تمهيد: إن الشبه التي أوردها أعداء الإسلام حول الدين الحنيفي كثيرة لا تحصى ولسنا بصدد الكلام عليها الآن ، وإنما القصد عندنا الآن في هذه الرسالة رد بعض الشبه التي وجهت حول عموم الدعوة الإسلامية فقط . وسوف أرد منها إن شاء الله ما أمكنني رده بالأدلة التي تناسب الشبه التي سوف أوردها.

وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين:

الأول : يتضمن الرد على شبهة أوردها المستشرق (السيروليم ميور) مضمونها أن عالمية رسالة الاسلام فكرة طارئة بعد موته ﷺ . . .

الثاني: في رد شبهة أوردها (بولس) أسقف صيدا الأنطاكي مضمونها أن في القرآن آيات كثيرة تدل على أن الرسول ﷺ لم يرسل إلى النصارى، وإنما رسالته خاصة بالعرب . . . .

المبحث الأول

الشبهة الأولى :

يقول (السيروليم ميور) إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها لم يفكر فيها محمد ﷺ نفسه ، وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كانت الفكرة غامضة ، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ الا لها ، وأن محمداً ﷺ لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات الا للعرب دون غيرهم ، وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج (١) .

الرد على الشبهة الأولى :

أقول : إن قول (السيروليم ميور) إن فكرة عالمية الرسالة المحمدية جاءت فيما بعد ، وأن النبي ﷺ لم يفكر فيها . . الخ كلامه .

إن هذا القول خطأ وقائله يعلم أنه كذب وافتراء ، .

والدليل على ذلك أن عالمية الرسالة النبوية ظهرت منذ أن بعث الله

---

(١) حاشية كتاب سيرتوماس أرلوند الدعوة الى الاسلام ترجمة حسن ابراهيم حسن وزميله ط الثالثة ص ٥٠ .

محمداً ﷺ في مكة المكرمة ، وإن كانت قد توسعت دائرتها بعد الهجرة إلى المدينة .

ففي سور القرآن المكية التصريح بعالمية رسالته ﷺ، ففي سورة ن والقلم وهي مكية قوله تعالى ﴿وما هو إلاّ ذِكْرٌ لِلْعَلَمِينْ﴾ ولفظ العالمين يشمل النصارى واليهود وغيرهم ؛ كما تقدم مراراً ، وفي سورة (صٓ) وهي مكية قوله تعالى : ﴿. . إنْ هُوَ الاّ ذِكْرٌ للعالَمِينَ﴾ وفي سورة الأعراف وهي مكية قوله تعالى : ﴿قلْ يا أَيُّها النَّاسُ إنِّي رسولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً . .﴾ وأهل الكتاب من اليهود والنصارى داخلون في الناس بلا شك.

فهذه الأدلة على عالمية الرسالة وردت في مرحلة الدعوة الأولى في مكة ، وما تركناه من الآيات أكثر لأننا قدمنا جميعه في الفصل الذي قبل هذا وقد ثبت عنه ﷺ وهو بمكة أنه أرسله الله إلى الناس جميعاً ، .

فقد روى البخاري في المشاجرة التي وقعت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من حديث أبي الدرداءقال: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمرفانصرفعنه عمر مغضباً فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ : أما صاحبكم هذا فقد غامر قال وندم عمر على ما كان منه فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺوقص عليه الخبر فغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم فقال رسول الله ﷺ : هل أنتم تاركوا لي صاحبي إني قلت يايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت قال أبو عبد الله غامر سبق بالخير.(١) ومتى قال رسول الله ﷺ هذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في باب : قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً .

الكلام ؟ إنه قاله بمكة في بداية رسالته لأن أبا بكر لم يتلكأ عن التصديق برسالته ﷺ لأنه ما دعا أحداً إلى الإيمان إلا تلكأ عنه غير أبي بكر، فأبو بكر قال صدقت في مكة عندما بعث ﷺ ودعاه إلى الإيمان فحمل الشاهد من الحديث قوله : **﴿يأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً﴾** وقصة صهيب الرومي، وبلال الحبشي اللذين أسلما في مكة المكرمة وحسن إسلامهما تدل دلالة واضحة على أنه ﷺ جهر بعالمية الرسالة، وأنه دعا جميع الناس إلى الإسلام.

وقد روى الحاكم في المستدرك من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: السباق أربعة : أنا سابق العرب وسلمان سابق الفرس؛ وبلال سابق الحبشة، وصهيب سابق الروم[1] وروى الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ولا أقوله فخراً بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً**»[2] قال بن كثير إسناده جيد. وثبت في صحيح مسلم والبخاري قوله ﷺ «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطييت الشفاعة**»[3] وقال تعالى: في مطلع سورة إبراهيم الخليل **﴿كِتابٌ**

---

(١) المستدرك للحاكم جـ ٣ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .

(٢) المستد جـ ١ ص ٣٠١ .

(٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ المصدر السابق . والبخاري في كتاب التيم .

أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . . .﴾ وهذه السورة مكية أيضاً وأمثالها كثيرة جداً مما لا يبقى مجالاً للشك في عالمية الرسالة النبوية لأن هذه الآيات التي ذكرنا نزلت بمكة كلها ، أما في المدينة فقد اتسعت الدائرة وصرح القرآن الكريم بدعوة النصارى واليهود إلى الدخول في هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ وأن من لم يتبعه منهم مخلد في النار، وقد دعاهم بالفعل ، ودخل منهم البعض، وقد بعث بالكتب إلى رؤساء وملوك البلاد خارج الجزيرة العربية كما قدمنا فالنبي عليه الصلاة والسلام علم من ربه أن رسالته عالمية باخبار منه له بذلك، ونفذ ذلك أحسن تنفيذ مدة حياته حتى انتقل الى الرفيق الأعلى وطبق ذلك بعده أصحابه خلفاؤه الراشدون فمن بعدهم ، فنشر الخلفاء الراشدين لدين الاسلام بعد وفاة نبيهم ﷺ وتوسعهم في الفتوحات الذي ظن مورد الشبهة أو علم وتجاهل أنه اختراع منهم ما هو الا اتباع منهم له ﷺ واقتفاء لأثره؛ وليس فكرة جديدة كما يقول طرأت على العرب بعد موت نبيهم .

وأما الأمر له من الله بأن ينذر عشيرته الأقربين في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1]

فإن هذا لا ينافي انذاره لغير عشيرته لأنه أمره في آيات أُخر كثيرة بانذار جميع الناس وذكر بعض أفراد العام لا يكون تخصيصاً للعام، والله جل وعلا لم يقل له على صيغة الحصر: لا تنذر الا عشيرتك الأقربين حتى يتوهم متوهم أن الإنذار منحصر فيها، بل المفروض انه يبدأ بعشيرته وأقاربه ويدعوهم حتى يدخلوا في الاسلام ليتقوى بهم على دعوة غيرهم كما فعل ﷺ فقد كان يرسل أصحابه بعد أن أسلموا إلى البلاد النائية يدعون أهلها الى الإسلام فمن زعم أن محمداً ﷺ لم يفكر في عالمية الرسالة، وأن فكرتها كانت غامضة في حياته

---

(١) آية (٢١٤) من سورة الشعراء .

فقد افترى على الله الكذب.

وقد قدمنا إرساله للكتب لملوك الروم والفرس والحبشة كما ثبت في صحيح مسلم من حديثه الذي قدمناه.

وثبت في صحيح البخاري ومسلم أيضاً أنه ﷺ أرسل كتاباً إلى هرقل عظيم الروم مع دحبة الكلبي، وذكرفيه القصةالطويلة المشهورة: قصة أبي سفيان بن حرب الذي كان موجوداً بالشام إذ ذاك وناداه هرقل وسأله عن صفات رسول الله ﷺ. ولم يستطع اخفاء شيء منها مخافة أن يؤثر عنه الكذب، فلما فرغ من سؤال أبي سفيان قال: إن يكن ما تقول حقاً فإنه نبي، وقد كنت أعلم انه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم اني أخلص اليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده، لغسلت قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي، ونص الكتاب تقدم أيضاً من رواية مسلم.

ورواه البخاري أيضاً مطولاً وزاد في القصة: فأذن هرقل لعظماء الروم في[1] دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي ﷺ[2] فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة، فلما رأى هرقل نفرتهم وآيس من الإيمان قال: ردوهم علي وقال: اني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل[3] وقوله فكان ذلك آخر شأن هرقل.

قال ابن حجر أي فيما يتعلق بهذه القصة بدعائه إلى الإيمان، لا أنه

---

(١) الدسكرة بسكون السين المهملة القصر الذي حوله بيوت. انظر فتح الباري جـ ١ ص ٤٨ ث الحلبي.

(٢) أي نفروا أو شبههم بالوحش لشدة نفورها وبالحمر لمناسبة انظر فتح الباري.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي.

انقضى امره حينئذ. . . واختلف الاخباريون هل هو الذي حاربه المسلمون في زمن أبي بكر وعمر أو ابنه، والأظهر انه هو والله أعلم[1] فهل بعدما ذكرنا من الاحاديث الصحيحة الدالة على دعوته ﷺ لملوك الروم وفارس والحبشة وكل جبار عنيد . والآيات القرآنية الدالة على عموم دعوته وشمولها للجن والانس، بعد هذا كله يقول قائل إن دعوته لم تكن عامة وإنما هي فكرة طرأت بعد موته ﷺ وأنه لم يفكر فيها حياته، سبحانك هذا بهتان عظيم ، وهل الحبشة من بلاد العرب، وهل الروم والفرس من بلاد العرب، وهل المقوقس من بلاد العرب؟ .

وفي الكتاب الذي أرسله إلى هرقل عظيم الروم التنصيص على أهل الكتاب، وذلك في قوله: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ اللَّهَ ولا نُشرِكَ بِهِ شَيْئاً . . . ﴾.

وقال جلَّ وعلا في كتابه مخاطباً أهل الكتاب ومبيناً لهم أن محمداً ﷺ مرسل إليهم ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ . . . ﴾[2] والمراد بالبشير والنذير الذي جاءهم هو محمد ﷺ.

وقال تعالى مخاطباً أهل الكتاب ومبيناً لهم أنهم يعلمون أن رسالة محمد ﷺ حق ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[3].

---

(١) انظر فتح الباري جـ ١ ص ٤٨ ـ ٤٩ ط الحلبي وأولاده بمصر .

(٢) جزء من آية (١٩) من سورة المائدة .

(٣) آية (٧٠ ـ ٧١) من سورة آل عمران .

وقال تعالى مخبراً اليهود والنصارى والمشركين أن من كفر منهم بمحمد ﷺ في نار جهنم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾[1].

وقال تعالى في شأن أهل الكتب مبشراً لهم ومخبراً لهم أن من آمن منهم بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ يؤته الله أجره مرتين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ .. ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾[3].

وأهل الكتابين قالوا: اتخذ الله ولداً. والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: **«ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله تعالى وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله اجران»**[4].

فالرسالة: انذار وتبشير، ووعد ووعيد، والقرآن الكريم أنذر اهل الكتاب وتوعدهم بالعذاب، إذا لم يؤمنوا ووعدهم بالثواب إذا آمنوا بنبي الله

---

(١) آية (٦) من سورة البيّنة.

(٢) آية (٥٢ - ٥٣) وجزء من آية ٥٤ من سورة القصص.

(٣) آية (٤) من سورة الكهف.

(٤) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١٣٤ - ١٣٥ في كتاب الايمان المصدر السابق والبخاري في كتاب الجهاد في باب فضل من أسلم من أهل الكتابين.

محمد ﷺ وبشرهم بمضاعفة الأجر إذا جمعوا بين الإيمان بأنبيائهم وبين الإيمان بمحمد ﷺ، وقد تقدم حديث مسلم الذي أقسم فيه ﷺ انه لا يسمع به أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسل به إلا دخل النار.

وقد تقدم الكلام على غزوة مؤتة وتبوك ، وذكرنا ان جيش رسول الله ﷺ خرج من المدينة حتى وصل مؤته ، واشتبك بجيوش الروم وهزمهم على الصحيح خلافاً لما ذكره ابن سيد الناس في عيون الأثر عن ابن إسحاق أن كل فئة انحازت على الأخرى دون هزيمة(١).

وأما قول المستشرق في شبهته: ان هذا الدين الجديد يعني دين الاسلام لم يوجه إلى بلاد العرب فقد ظهر لك أن ذلك كذب وافتراء، وقد تقدم في الفصل السابق أن هذا الدين مرن وأن شريعته حيوية وصالحة لكل زمان ومكان، فعباداته، وعقائده، ومعاملاته صالحة لبني البشر أين كانوا، ومتى كانوا ، وأن هذه الشريعة اشتملت على جميع مصالح العباد دنيا وأخرى فبنو البشر لا يحتاجون مع هذه الرسالة: رسالة محمد ﷺ إلى شيء البتة . وقد تقدمت الآيات الدالة على أن جميع الناس مطالبون بهذا الدين: دين الاسلام لأن الله لن يقبل من عباده ديناً غيره بعدما أنزله على رسوله ﷺ .

وبزوغ هذا الإسلام وظهوره في بلاد العرب لا ينافي عمومه، ومطالبة الناس به جميعاً ، بل مطالبة الثقلين، وكيف لا يبدأ هذا الدين ببلاد العرب، والرسول الذي أنزل عليه عربي، فالنبي ﷺ لما كان عربياً واختاره الله لرسالته كان لابد أن يظهر دينه في أول أمره في بلاده ثم يمتد منها إلى سائر البلاد

---

(١) عيون الأثر في فن المغازي والسير لابن سيد الناس جـ ٢ ص ١٥٣ ـ ١٥٥ ط دار المعارف بيروت وابن هشام جـ ٤ ص ٧ فما بعدها ط الحاج عبد السلام محمد بن شقرون .

الأخرى بلدة بلدة حتى عم جل البلاد ولله الحمد.

فتبين مما ذكرت أن نواة عالمية الرسالة غرست في زمن النبي ﷺ، ونمت في زمنه وتمت بالخطط الحكيمة التي رسمها ﷺ. وبالمناهج التي نهجها: من وعد ووعيد وانذار وتبشير، وحكمة، وموعظة حسنة، ومجادلة بالتي هي أحسن، ومحاولة لمن أبى الا الحراب حيث لم تنفع فيه جميع الوسائل المطلوبة من تبليغه.

ولو تأمل صاحب الشبهة كتبه الثلاثة التي ارسلها إلى ملوك الامبراطوريات الثلاث التي كانت تسيطر على العالم لما أورد شبهته هذه وقد تقدمت صورة كتابه لهرقل، وتقدم خبر النجاشي، واليك نص الكتاب الذي بعث به إلى كسرى ملك الفرس يدعوه فيه إلى الإسلام.

قال ابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي الى كسرى بن هرمز ملك الفرس وكتب. (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى، آمن بالله ورسوله واشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله فإني أدعوك بدعاية الله فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، وان أبيت فإن اثم المجوسية عليك) انتهى فجلّ العالم كان خاضعاً لسيطرة الروم والحبشة، والفرس وهؤلاء دعاهم ﷺ في حياته إلى الإسلام ودعاهم أصحابه من بعده أسوة به واقتفاء لا انهم فكروا في عالمية الرسالة بعد موته عليه السلام كما زعم (السيروليم ميور) أن هذا الدين لم يهيأ إلا لأهل الجزيرة العربية. وبعدما أوردنا لك صورة الكتاب الذي أرسل إلى كسرى من طريق ابن إسحاق أورده لك من طريق البخاري فقد روى في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي فأمره أن يدفعه

الى عـظيم البحرين[1] فـدفعه عـظيم البحـرين إلى كسـرى فلمـا قـرأه مـزقـه فحسبت[2] أن ابن المسيب قـال فدعـا عليهم رسـول الله ﷺ أن يمـزقـوا كـل ممزق[3].

---

(١) هو نائب كسرى على البحرين واسمه المنذر بن ساوى العبـدي فتـح الباري جـ ٨ ص ١٢٧ ط السلفية .

(٢) قائل ذلك الزهري وهو موصول بالاسناد المذكور فتح الباري المصدر نفسه .

(٣) البخاري جـ ٦ ص ٢٧ ط ادارة الطباعة المنيرية .

المبحث الثاني

الشبهة الثانية والرد على موردها :

جاء في رسالة تنسب إلى بولس الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، وهذه الرسالة هي عمدة اعتقاد النصارى قديماً وحديثاً، وهي من القداسة عندهم بمكان.

وقد جاء في هذه الرسالة أن محمداً ﷺ لم يرسل إلى النصارى، وإنما أرسل إلى أهل الجاهلية من العرب، وادعوا أن في القرآن آيات تشهد لهم بذلك، كما ادعوا أن العقل يشهد لهم بدعواهم أيضاً، وادعوا أن محمداً ﷺ أثنى على دينهم في القرآن الكريم ومدحه بما يوجب عليهم أن يثبتوا عليه إ. هـ.

وقد أورد الآيات التي ذكروا أنها تشهد لدعواهم وأنها تدل على خصوص رسالة محمد ﷺ بالعرب دون غيرهم فقال:

إن كاتب الكتاب الذي ورد عليه من قبرص قال:

إن الأسقف (ديان) الملك الرومي اجتمع برؤسائهم وفاوضهم فيما علمه من رأى القوم الذين رآهم بجزائر البحر قبل دخوله إلى قبرص وسألهم عن اعتقادهم وما يحتجون به عن أنفسهم، ثم ذكر الكاتب ما قالوه للأسقف ونصه:

إنا سمعنا أن قد ظهر إنسان من العرب اسمه محمد يقول إنه رسول الله، وأتى بكتاب وذكر أنه منزل عليه من الله، فلم نزل إلى أن حصل الكتاب عندنا قال:

أي الأسقف ديان الملك الرومي: فقلت لهم إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب وهذا الانسان وأجهدتم على تحصيل هذا الكتاب الذي أتى به عندكم فلأي حال لم تتبعوه؟ ولا سيما وفي هذا الكتاب الذي يقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾(1) أجابوا قائلين لأحوال شتى قال فقلت وما هي؟ قالوا منها أن الكتاب الذي أنزل عليه عربي وليس بلساننا حسب ما جاء فيه: يقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾(2).

ويقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾(3).

وذكر آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾(4).

ومنها قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾(5)

ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا

---

(1) آية (٨٥) من سورة آل عمران .
(2) آية (٢) من سورة يوسف .
(3) آية (١٩٥) من سورة الشعراء.
(4) آية (١٩٨ ـ ١٩٩) من سورة الشعراء .
(5) آية (١٥١) من سورة البقرة .

﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾(٢) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٣).

قالوا فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأت إلينا بل إلى جاهلية العرب الذين قالوا إنه لم يأتهم رسول ولا نذير من قبله، وأنه لا يلزمنا اتباعه لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله خاطبونا بألسنتنا وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به إلى يومنا هذا، وسلموا إلينا التوراة والانجيل بلغتنا على ما يشهد به هذا الكتاب الذي أتى به هذا الرجل حيث يقول في سورة إبراهيم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ..﴾(٤) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾(٥)

فقد صح في هذا الكتاب أنه لم يأت إلا إلى الجاهلية من العرب..

الرد على هذه الشبهة:

وأقول في رد هذه الشبهة: إن هذا ليس بأول كذب افتراه النصارى على محمد ﷺ وعلى الإسلام والمسلمين، فليس هذا بغريب فقد كذبوا على الله تعالى، وكذبوا على عيسى ابن مريم وأمه فالنصارى يعلمون علم يقين أن محمداً رسول الله ﷺ أرسل إليهم، ولكنهم جحدوا رسالته عناداً وحسداً فهو

---

(١) آية (١٦٤) من سورة آل عمران.

(٢) جزء من آية (٤٦) من سورة القصص.

(٣) آية (٦) من سورة يس.

(٤) جزء من آية (٤) من سورة ابراهيم.

(٥) جزء من آية (٤٧) من سورة الروم.

أرسل لكافة الخلق إنسه وجنه بما في ذلك النصارى واليهود، ولكن أهل الكتاب لما لم يكن محمد ﷺ من بني إسرائيل حسدوا العرب على بعثته منهم وقد فضحهم الله جل وعلا في القرآن وبين ما تنطوي عليه أحشاؤهم من الخبث، وما يضمرونه للعرب من الحسد على هذا الرسول الكريم، وعلى هذا الدين الحنيف قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ..﴾[1]

فهذا اخبار من الله جل وعلا للمؤمنين عن سلوك أهل الكتاب، واعلام لهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما اشتملوا عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضل هذا الدين، وفضل نبيه الذي جاء به من عند ربه، وما هذا إلا قليل من اعتزاز أهل الكتاب بدينهم وتفنيد ما سواه من الأديان فقد حكموا على الله تعالى بأنه لن يدخل جنته التي خلقها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً وذلك فيما حكاه تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ...﴾[2]

ولكن الله تعالى كذبهم في ذلك وأبطل دعواهم هذه، وأخبر أنها مجرد أمان كاذبة خاطئة وتحداهم بطلب الدليل على ما قالوه إن كانوا صادقين في مقالتهم فقال: ﴿.. تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾[3] فيما ادعيتم. ثم قال تعالى راداً عليهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾[4]

فكل من أخلص عمله لله ولم يراء به، وهو محسن فيه بأن كان موافقاً لما جاء

---

(١) جزء من آية (١٠٩) من سورة البقرة .

(٢) جزء من آية (١١١) من سورة البقرة .

(٣) آخر الآية (١١١) من سورة البقرة .

(٤) آية (١١٢) من سورة البقرة .

به محمد ﷺ بعد أن بعثه الله فله أجره عند ربه ولا يخاف يوم الفزع الأكبر ولا يحزن[1].

أما دعواهم أن في القرآن الكريم ما يشهد لهم بما قالوا فإن ذلك ليس بصحيح فليس في القرآن ما يشير إلى ذلك، بل كل الآيات التي ذكروا لا دليل لهم فيها البتة، وإنما أولوها عن معانيها وحرفوها لتوافق دعواهم الباطلة.

وقولهم إن القرآن نزل بلغة العرب كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً...﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ الخ.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً..﴾ ذلك لأن المنزل عليه عربي، ولا يمكن أن ينزل عليه إلا كتاب عربي بحيث يفهمه ويتعقله، ويفهمه قومه، ثم بعد ذلك يفهمونه للناس، وهذا أمر طبيعي، ولأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة في أشرف بقاع الأرض، وبدأ نزوله في أشرف شهور السنة: رمضان فكمل من كل الوجوه[2].

وإني أقول للنصارى: إن كان الكتاب الذي أنزل على رسول بلغته لا يلزم به غير أهل تلك اللغة فلم تلزمون الناس الذين لا يتكلمون بلغة الأناجيل بالدخول في المسيحية إذا كان كتابكم نزل بلغتكم كما قلتم في شبهتكم أن

---

(١) طالع تفسير ابن كثير عند الآية.

(٢) طالع ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٤ ط دار الشعب تحقيق عبد العزيز غنيم وزميليه.

رسلكم سلمتكم التوراة والانجيل بلغتكم أي العبرية، فعلى قولكم هذا لا يلزم أي إنسان الإيمان بالتوراة ولا بالانجيل إلا إذا كان يهودياً أو نصرانياً، وأنتم الآن وقبل الآن تخططون الخطط لادخال جميع الشعوب في دين المسيحية، وقد أدخلتم بالفعل كثيراً من الشعوب التي لا تتكلم بالعبرية ولا بالسريانية فلم تلزمون الناس أمراً لا يلزمهم، وليسوا مطالبين به؟ وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ فيقال فيه ما يقال في الآية السابقة، مع أنكم ذكرتم هذه الآية: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وتركتم آيتين بعدها: هما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ وذكرتم الآية الثالثة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾[1]

وفي تركك للآيتين دليل على تحريفكم ولعبكم بكتب الله ووضعكم لها حسب أهوائكم، فالقرآن ومحمد ﷺ في كتب الأنبياء التي أنزلت على أسلافكم وعلماء بني إسرائيل يعلمون ذلك ويكفيكم ذلك دليلاً على أنكم مطالبون بما في القرآن الكريم، وليس في الآية التي ذكرتم دليل على أنكم غير مطالبين برسالة محمد ﷺ لأن معناها: ولو نزلنا هذا القرآن على رجل من الأعاجم ممن لايدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته وبلاغته، ثم قرأه على قومك لا يؤمنون به[2] وقيل ان المعنى: ولو نزلنا هذا القرآن على بعض البهائم التي لا تفطن، ذكر هذا القول ابن جرير وأورد فيه آثاراً عن عبد الله بن مطيع، فقد ساق بسنده اليه أنه كان واقفاً بعرفة فقرأ هذه الآية: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بِعْضِ الأَعْجَمِيينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِين﴾ قال: لو نزل على بعيري هذا فتكلم به ما آمنوا به. لقالوا لولا فصلت آياته

---

(١) آية (١٩٦ - ١٩٧) الشعراء .

(٢) ابن كثير جـ ٣ ص ٣٤٨ ط دار أحياء الكتب العربية .

حتى يفقهه عربي وعجمي[1] . ولكن النصارى تعودوا ألا يأخذوا بمعاني نصوص القرآن الصحيحة وإنما يؤولونه حسب رغباتهم، وإلا فيكفيهم ما رد الله عليهم به في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فإن المعنى: أولم يكن لهؤلاء المعرضين وعلى رأسهم النصارى عما يأتيك يا محمد من ذكر من ربك دلالة على أنك رسول رب العالمين أن يعلم حقيقة ذلك وصحته علماء بني إسرائيل[2] وإذا ثبت حقاً أنه رسول من رب العالمين، ودعا النصارى الى الدخول في الإسلام وأخبرهم أنه مرسل إليهم لزمهم تصديقه لأن من ثبت أنه رسول وجب تصديقه فيما يخبر به عن ربه.

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾.. ما نصه وان ذكر القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملائه بالبشارة بأحمد ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم..﴾[3] يضاف إلى هذا أن الله أخذ الميثاق على الأنبياء جميعاً لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه وأمرهم أن يأخذوا المواثيق على أممهم بذلك كما تقدم عن علي بن أبي طالب وابن عباس وروى عن طاوس، فهؤلاء النصارى الذين يقولون: نحن لا تشملنا رسالة محمد ﷺ، وإنما هي مقصورة على العرب الأميين الذين لم يأتهم نذير قبل هذا الرسول أخذ عليهم عيسى المواثيق والعهود أن يؤمنوا بمحمد ﷺ على نحو ما أخبر به علي وابن عباس حبر الأمة وطاوس فإذا كانوا أتباع عيسى حقاً آمنوا بما أخبرهم به عيسى وأمرهم به، ومن ذلك الإيمان بنبينا ﷺ وإن كانوا أتباع الهوى والتشريع البشرى

---

(١) انظر ابن جرير جـ ١٩ ص ٦٩ - ٧٠ دار المعرفة بيروت.

(٢) انظر ابن جرير في الصفحة نفسها.

(٣) ابن كثير جـ ٣ ص ٣٤٧ ط دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه

والعقائد المفتعلة فدعواهم أن القرآن يشهد لهم بأنهم غير مطالبين باتباع محمد ﷺ ما هي إلا إحدى الدعاوى التي يدعونها دائماً ولا دليل لهم عليها من نقل ولا عقل .

ومما يؤيد مطالبة النصارى بشريعة نبّينا ﷺ وأتباعه والإيمان به أن عيسى عليه السلام إذا ظهر في آخر الزمان يحكم بشريعة رسول الله ﷺ .

وهذا أعظم دليل على أن الذين يدعون اتباع عيسى عليه السلام يجب عليهم أن يتبعوا محمداً ﷺ : ففي صحيح مسلم :

حدثنا زهير بن حرب حدثني الوليد بن مسلم حدثنا ابن أبي ذئب عن ابن شهاب عن نافع مولى أبي قتادة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

« **كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمَّكم منكم** » فقلت لابن أبي ذئب إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري عن نافع عن أبي هريرة (وإمامكم منكم) قال ابن أبي ذئب تدري ما أمكم منكم؟ قلت تخبرني قال فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ(١) .

فالنصارى لا يخرجون في زعمهم عن شريعة موسى وعيسى، وموسى تقدم أن الرسول أخبر أهل زمنه أنه لو جاءهم واتبعوه وتركوه ﷺ لضلوا، وعيسى سوف ينزل في آخر الزمان ويحكم بشريعة محمد ﷺ ، فيا ليت شعري ماذا يفعل النصارى بعد نزول عيسى حاكماً بشريعة الاسلام؟

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعملون**﴾ وقوله تعالى: ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياتنا ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من**

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٧ المصدر السابق .

قبل لفي ضلال مبين﴾ على أن الرسول إنما أرسل إلى العرب فقط فليس في هذا دليل لهم على ما ادعوه لأنه ان كان الخطاب في قوله: **﴿رَسُولاً مِنْكُمْ﴾** لنوع البشر فيكون هذا امتناناً من الله على نوع البشر بأن أرسل إليهم رسولاً من جنسهم، ولم يرسل لهم ملكاً لا يطيقون الأخذ عنه ولا الاتصال به، ولا معرفة أحواله، فمن عليهم بأن أرسل إليهم بشرياً. وان كان الخطاب للعرب كما ادعوه فلم يتضمن تدعيم دعواهم، وانما تضمن إنعام الله على المخاطبين بارساله رسولاً من جنسهم، وليس في هذا ما يمنع إرساله إلى غيرهم من الأجناس، فهو ﷺ بلا شك مرسل للجن وليس من جنسهم والنصارى أقرب إلى العرب من الجن.

أما الآية الثانية التي هي قوله تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ... ﴾** الآية فإن الخطاب فيها للمؤمنين، والمؤمنون وقت نزولها فيهم العربي، والرومي، والفارسي والحبشي لأنها من سورة آل عمران، وآل عمران مدنية، وقد دخل في ذلك الزمن والذي سبقه أناس في الإسلام من مختلفي الأجناس، كسلمان وصهيب، وبلال، وعبد الله بن سلام، وغيرهم. فإن كانت من العام الذي أريد به الخصوص ويكون المراد المؤمنين من قومه فقد قدمنا ان ذلك لا يمنع من ارساله لغيرهم، ويكون هذا منة من الله على هؤلاء القوم دون غيرهم بأن جعل هذا الرسول منهم، وإن كان المراد بها جميع المؤمنين كما حكاه القرطبي، وعليه يكون المعنى، أنه واحد منهم وبشر مثلهم، وإنما امتاز عنهم بالوحي[(١)] وقال القرطبي أيضاً عند تفسيره لآية التوبة: **﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ..﴾**[(٢)]

---

(١) القرطبي جـ ٤ ص ٢٦٤ ط دار الكتاب العربية للطباعة والنشر.

(٢) جزء من آية (١٢٨) من سورة التوبة.

بعد أن ذكر أن الخطاب للعرب عند الجمهور ما نصه: وقال الزجاج هي مخاطبة لجميع العالم والمعنى: لقد جاءكم رسول من البشر، والأول أصوب (أي قول الجمهور) والقول الثاني أوكد للحجة يعني قول الزجاج [1] وعلى أية حال سواء على قول الجمهور فقد قدمنا أنه لا دليل فيه للنصارى، أو على مقابله فمن باب أولى.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾.

فليس في الآيتين أيضاً دليل لهم على دعواهم بخصوصية الرسالة بالعرب لأن إنذاره للعرب لا ينافي إنذاره لغير العرب، وكون العرب لم يأتهم نذير لا يلزم منه أنه ان جاءهم نذير لا ينذر غيرهم، فالله جل وعلا قال لنبيه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ والاجماع على أن الانذار يتناول غير عشيرته الأقربين فأي دلالة على أنه إذا أمر بانذار العرب لا يصح أن ينذر غيرهم.

وفي معنى الآية أوجه عند أهل التفسير، فبعض المفسرين يقول: المراد بقوله: ﴿.. قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ العرب لأنهم لم يرسل إليهم رسول قبل نبينا ﷺ، وهذا القول بعيد لأنه من المعلوم أن أجداد هؤلاء العرب أرسل إليهم اسماعيل عليه السلام، وكأنه لطول المدة بينه وبين نبينا ﷺ واندراس شريعته قبل ذلك.

وقيل: إنما قيل ذلك لانقطاع بعثته بموته وأنه لم يرسل إليهم نبي بعده قبل محمد ﷺ [2].

وقال الزمخشري عند تفسير آية القصص هذه: المراد بعدم اتيان النذير

---

(١) القرطبي جـ ٨ ص ٣٠١ المصدر السابق.
(٢) طالع روح المعاني للألوسي جـ ٢٠ ص ٨٧ ـ ٨٨ ط احياء التراث العربي.

إنما هو في زمن الفترة بين نبينا ﷺ وبين عيسى عليه السلام وهي خمس مائة وخمسون سنة(١).

ونحوه قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾(٢)

وعلى كل حال سواء كان العرب أنذروا قبل محمد ﷺ أو لم ينذروا فانذارهم بنذير منهم لا يقتضي عدم انذاره لغيرهم.

ولقد أفاد ابن كثير حيث يقول عند تفسير آية يٓس ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونْ﴾ يعني بهم العرب فإنه ما آتاهم من نذير من قبله، وذكرهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم، وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم رسالته ﷺ عند قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾(٣) هذا ولم يتفق المفسرون على أن (ما) في الآية نافية، بل قال بعضهم إنها مصدرية، وقال بعضهم إنها موصولة، قال أبو حيان: ﴿ما أُنْذِرَ﴾ قال عكرمة بمعنى الذي أي الشيء الذي

(١) قلت ما نقله الزمخشري من كون مدة الفترة بين نبينا ﷺ وبين عيسى خمس مائة وخمسين سنة يرده ما في صحيح البخاري عن سلمان موقوفاً قال: فترة بين عيسى ومحمد ﷺ ست مائة سنة صحيح البخاري: جـ ٥ ص ٩٠ في باب اسلام سلمان في كتاب مناقب الأنصار. وقال الحافظ ابن حجر: والمراد بالفترة: المدة التي لا يبعث فيها رسول من الله، ولا يمتنع أن ينبأ فيها من يدعو الى شريعة الرسول الأخير، ونقل ابن الجوزي الاتفاق على ما اقتضاه حديث سلمان، وتعقب بأن الخلاف في ذلك، فعن قتادة أنها خمس مائة وستون أخرجه عبد الرزاق عن معمر عنه، وقيل: هي خمس مائة وأربعون، وقيل: أربع مائة سنة. فتح الباري جـ ٧ ص ٢٧٧ ط السلفية. قلت وما روي من أن بين عيسى ومحمد ﷺ رسول من العرب اسمه خالد بن سنان يرده ما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة**» قالوا كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء أخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبي. البخاري في كتاب الأنبياء، ومسلم في كتاب الفضائل في باب فضل عيسى.

(٢) جزء من آية (٤٦) من سورة القصص.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٦٣ ـ ٥٦٤ ط دار احياء الكتب العربية الحلبي وأولاده.

أنذره آباؤهم من العذاب فما مفعول ثان كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾[1].

قال ابن عطية: ويحتمل أن تكون ما مصدرية أي ما أنذر آباؤهم والآباء على هذا هم الأقدمون من ولد إسماعيل، وكانت النذارة فيهم، وفهم على هذا التأويل بمعنى فإنهم.. وقال قتادة: ﴿ما﴾ نافية أي أن آباءهم لم ينذروا.

فآباؤهم على هذا هم القريبون منهم[2].

فظهر مما ذكرنا أن النفي في الآية لا يقطع به، وأن العرب آباؤهم الأولون أنذروا على لسان اسماعيل وآباؤهم الأقربون لم ينذروا، فإذا كان في عدم انذار العرب بنذير قبل محمد ﷺ حجة للنصارى في عدم الزامهم برسالة نبينا ﷺ فقد بطلت الحجة، وثبت أن المراد ينفي الانذار انما هو نفيه عن آبائهم الأقربين مع أنه لو بقي النفي على ظاهره وكان آباء العرب لم ينذروا جميعاً لا دليل لهم في ذلك كما تقدم تقريره.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾** وقوله: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بالبَيِّناتِ...﴾**.

فليس في هاتين الآيتين أيضاً دليل على دعواهم: نعم ان قومه ﷺ هم العرب عموماً، وقريش خصوصاً، ونزل عليه القرآن بلسان قومه، وليس في هذا دليل على عدم إرساله إلى غيرهم، لأن الله لم يقل وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه، فالرسل الذين خصهم بالرسالة إلى أقوامهم بين لهم ذلك وصرح لهم به فقال: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ...﴾** وقال في هود: **﴿وَإِلَى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً﴾** إلى غير ذلك مما قدمنا في القسم الأول من هذا الباب،

---

(١) جزء من آية (٤٠) من سورة النبأ.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان جـ ٧ ص ٣٢٣ ط دار الفكر.

وقد تقدم حديث مسلم وفيه: وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، فالله جل وعلا أرسل نبيه محمداً ﷺ بلسان قومه ليبين لهم أولا، ثم بعد ذلك يحصل البيان لغيرهم، ولو لم يبين لقومه أولا لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم، فإذا بين لقومه أولا وفهموا عنه حصل البيان للآخرين بشتى الطرق الكثيرة.

وأما قولهم: إنهم جاءتهم رسل من قبل نبينا ﷺ مستدلين بذلك على عدم إلزامهم برسالة نبينا فليس في هذا ما يؤيد دعواهم لأن بنى اسرائيل جاءهم موسى رسولاً من الله، ثم تتابعت عليهم الرسل بعد ذلك، فلو كان كل أناس أرسل الله اليهم رسولاً يمنعهم ذلك من مجيء رسول آخر لما أرسل الله إلى بني اسرائيل رسولاً بعد موسى عليه السلام، والرسل تتابعت على بني إسرائيل من بعده، وآخرهم عيسى ومن لم يؤمن به منهم فقد كفر، وبهذا بطلت دعواهم ولزمهم اتباع محمد ﷺ.

فكل من لم يؤمن به بعد رسالته ممن بلغته دعوته فهو كافر، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بني إسرائيل كافر، ولا ينفعه إيمانه بموسى، فكذلك النصارى إذا آمنوا بعيسى عليه السلام وكفروا بمحمد ﷺ، لأن من كذب رسولاً واحداً من رسل الله فقد كذب جميع الرسل كما تقدم الاستشهاد على ذلك بآية البقرة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ..﴾ الآية وبغيرها.

والله جل وعلا أخبر عن قوم نوح، وقوم لوط، وقوم هود، وقوم صالح أنهم كذبوا المرسلين مع أن قوم نوح لم يكذبوا الا نوحاً، وقوم لوط لم يكذبوا إلا لوطاً، وكذلك قوم صالح، وقوم هود، فدل هذا على أن من أتاهم رسول من الله وآمنوا به ثم جاءهم رسول آخر وجب عليهم الإيمان به وإلا كانوا كفاراً.

وأما قولهم: إن العقل يشهد لهم بما ادعوه من عدم شمول دعوة

محمد ﷺ، فإن هذه دعوى لا أساس لها، من الصحة، بل العقل يشهد بضد ما قالوا: وذلك أن الله تعالى أدرى بمصالح العباد من أنفسهم.

ولما كان يعلم أن العباد لا بد لهم من تشريع إلهي يسيرون في ظله لأن التشريع غير الإلهي لا يضمن للعباد مصالحهم في معاشهم ولا معادهم وكان قد ختم الشرائع بشريعة محمد ﷺ، وختم الرسل به كما أخبر بذلك في قوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(١).

وثبت في صحيح مسلم أنه قال: « وختم بي النبيون » كما تقدم الحديث بكامله.

لهذا كله تعين عقلاً بعد الثبوت نقلاً أن جميع المكلفين مطالبون برسالة محمد ﷺ لأنها هي الرسالة التي ختمت بها الرسالات وصاحبها ختم به الرسل، وشريعتها نسخت جميع الشرائع، فالعقل الصحيح يشهد بهذا ولا يشهد للنصارى بما ادعوه من شهادة العقل لهم على عدم مطالبتهم برسالته ﷺ.

وأما قولهم: إن محمداً ﷺ أثنى على دينهم بما يوجب لهم التمسك به، فأقول في ذلك: إن ثناء رسول الله ﷺ على المسيح ابن مريم وأمه وعلى من اتبعه وكان على دينه الذي لم يبدل فهذا حق لأن عيسى يستحق الثناء وكذلك أمه ومن اتبعه بحق، وهو لا ينافي وجوب اتباعه ﷺ على من بعث إليه، فلو قدر أن شريعة عيسى لم تبدل، وأن محمداً أثنى على كل من اتبعها، وقال مع ذلك إن الله أرسلني إليكم لم يكن متناقضاً، وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه، فكيف وهو إنما مدح من اتبع ديناً لم يبدل، أما الذين بدلوا دين المسيح فلم يثن عليهم ولم يمدحهم، بل ذمهم كما قال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا

(١) جزء من آية (٤٠) من سورة الأحزاب.

مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1] .

فالنصارى كفروا بتبديلهم وتحريفهم التوراة وكفروا بتكذيبهم وتحريفهم الانجيل، ومن لم يبدل منهم ولم يحرف ولم يكفر بعيسى ومات على ذلك أو أدرك محمداً وآمن به فإنه يستحق الثناء .

وبهذا نكون أبطلنا هاتين الشبهتين وأثبتنا أن النصارى ملزمون برسالة محمد ﷺ ولا ينفعهم ما يتشبثون به من الدعاوى الباطلة من كونهم غير ملزمين بها ومن كون عالميتها كانت غامضة في زمنه ﷺ، وأن عالميتها فكرة طرأت بعد موته كل هذا تبين فساده. ا هـ.

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذي لَـهُ ما في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عذابٍ شَديد ﴾ .

معنى الآيـة : أن الله الـذي يملك جميـع من في السمـوات ومن في الأرض يقول لنبيه ﷺ أنزلت إليك هذا الكتاب لتدعو عبادي إلى عبادة من هذه صفته، ويدعو عبادة من لا يملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً من الآلهة المزعومة والأوثان، ثم توعد جل وعلا من كفر به ولم يستجب لدعاء رسوله إلى ما دعا إليه من اخلاص التوحيد له فقال: ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافرينَ مِنْ عَذابٍ شَديد ﴾[2] يقول : إن الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم لمن جحد وحدانيته وعبد معه غيره من عذاب الله الشديد[3] .

---

(١) آية (١٤) من سورة المائدة .

(٢) طالع تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢١ ط دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

(٣) طالع الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٦ .

قوله تعالى : ﴿ الَّذينَ يَسْتَحِبُّونَ الحَياةَ الدُّنْيا على الآخِرَةِ ويَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ ويَبْغَونها عِوَجاً أولٰئِكَ في ضَلالٍ بَعيد ﴾ .

الذين يستحبون: مبتدأ خبره أولئك في ضلل بعيد، ويصح أن يكون مجروراً صفة للكافرين أو منصوباً على الذم، والاستحباب استفعال من المحبة لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من غيره، فهؤلاء فضلوا لذات الدنيا الفانية على نعيم الآخرة الباقي، وصدوا الناس عن سبيل الله، وكانوا يبغونها عوجاً، أي منعوا الناس من الدخول في سبيل الله وحالوا بينهم وبين الإسلام وكانوا يبغون أن تكون طريقه عوجاً، ويصح أن تكون من صد اللازم أي صدوا عن سبيل الله، وإن كان كل من أصد الناس عن سبيل الله صد عنه لا محالة، أولئك الذين صدوا عن سبيل الله، وطلبوا لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً ويوهمون الناس أنها ناكبة عن الحق غير مستوية في ضلل بعيد، أي فيه بعد، أو ذي بعد لأن الضال قد يضل عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً، وقال القرطبي: ويبغونها عوجاً أي يطلبون لها زيغاً وميلاً لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم، والسبيل تذكر وتؤنث، والعوج بكسر العين في الدين والأمر والأرض وفي كل مالم يكن قائماً، وبفتح العين في كل ما كان قائماً كالحائط والرمح ونحوه أولئك في ضلال بعيد أي ذهاب عن الحق بعيد عنه[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ إلاَّ بِلسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يشاءُ وَيُهدي مَنْ يشاءُ وَهُوَ العزيزُ الحَكيم ﴾ .

يقول تعالى: وما أرسلنا من رسول قبلك يا محمد إلا بلسان قومه أي بلغتهم ليبينوا لهم أمر دينهم، ووحد اللسان وإن أضافه للقوم لأن المراد

---

(١) القرطبي جـ ٥ ص ٣٥٦٩ ط .

اللغة فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير .

ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي ﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً . . .** ﴾ وقال ﷺ : « **والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار** »[1] .

وقوله : ﴿ **فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيُهْدِي مَنْ يَشاءُ** ﴾ : استئناف وليس بمعطوف على ليبين لأن الإرسال وقع للتنيين بخلاف الإضلال ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ الحَكِيمُ ﴾في أفعاله فيضل من يستحق الاضلال، ويهدي من هو أهل لذلك: قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم فاختص كل نبي بابلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « **أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة** »[2]

قال الزمخشري ... . وقيل: الضمير في قومه محمد، ﷺ، ورووه عن الضحاك وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ثم أداها كل نبي بلغة قومه، ثم قال: وليس بصحيح لأن قوله: ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب فيؤدي إلى أن الله

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب وهذا معنى فاسد اهـ[1] .

الدعوة في الآيات :

اشتملت هذه الآيات الأربع على بعض أهداف الدعوة، ووسائلها وأساليبها .

١ ـ اشتملت الآية الأولى على أعظم أهداف الدعوة إلى الله وأهمها وهو الإيمان بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ، واخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل بالله إلى نور العلم به وتوحيده، دل على هذا قوله تعالى : ﴿ . . . **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** . . . ﴾ .

٢ ـ يستفاد من عموم ﴿ **النَّاسَ** ﴾ أن الداعية يدعو جميع الناس وجميع الشعوب يدعو الكافر ليخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ويدعو الجاهل ليعلمه فيخرج من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ويدعو الشاك ليخرجه من حيرة الشك إلى حقيقة اليقين، ويدعو المؤمن العاصي ليتوب ويفيق من هفوة المعصية إلى نور الهدى .

٣ ـ اشتملت الآية الثانية على قسمين من أقسام التوحيد، وهما توحيد الألوهية والربوبية، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** . . . ﴾

فأخبر تعالى في الآية أنه المالك للسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، والمدبر لشؤونهما والخالق لمن فيهما والمحيي والمميت والرزّاق وهذا هو توحيد الربوبية .

وإذا ثبت هذا له جل وعلا وجب أن يكون هو المعبود وحده حقاً لأنه هو

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٧ المصدر السابق .

المستحق للعبادة فوجب صرف جميعها له وخلع جميع المعبودات سواه وهذا هو توحيد الألوهية، والتوحيد بأنواعه هدف سام من أهداف الدعوة .

٤ ـ في آخر الآية الثانية أيضاً أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله وهو: أسلوب الترهيب. وذلك في قوله : ﴿ ... وَوَيْلٌ لِلْكافرينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدْ﴾ حيث أخبر تعالى عن المكذبين بدعوة الرسل أن لهم العذاب الشديد فيأخذ الداعية من هذا أن يستعمل أسلوب الترهيب لأن بعض المدعوين أوقع في قلبه الترهيب، وأدعى لاستجابته، وبعضهم أوقع في قلبه الترغيب وأدعى لاستجابته فيستعمل الداعي ذاك لأولئك ويستعمل هذا لهؤلاء .

٥ ـ في الآية الثالثة بيان هدف من أهداف الدعوة وهو: تحقير الحياة الدنيا وبيان عاقبة من فضل الاستمتاع بلذاتها الفانية على الاستمتاع بلذات الآخرة الأبدية، وهذا هدف من أهداف الدعوة ينبغي للداعية التركيز عليه، وذلك في قوله: ﴿ الّذين يَسْتَحِبُّونَ الحيوٰةَ الدُّنْيَا على الآخِرَةِ ...﴾ .

٦ ـ في الآية الرابعة وسيلة من وسائل الدعوة من أسباب نجاحها أشارت لها الآية وهي معرفة الداعي لغة من يدعوهم فينبغي له أن يكون متخصصاً في لغة قومه الذين يريد دعوتهم أو على الأقل عنده من لغتهم ما يحصل به التفاهم إذ الدعوة لا تمكن بدون تفاهم، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ إلاَّ بِلسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... ﴾اهـ .

ٱلبَاب ٱلثَّانِي

الباب الثاني

دعوة نوح، وهود، وصالح، وموسى عليهم السلام

يشتمل هذا الباب على ما يلي :

١ - تفسير الآية التي ذكرت عندها هذه الرسل وبيان من المخاطب بها .

٢ - أربعة فصول :

١ - الفصل الأول في منهج نوح في دعوته وأسلوبه فيها والمعجزة التي أيده الله بها تصديقاً له .

٢ - الفصل الثاني في منهج هود عليه السلام في دعوته وأسلوبه فيها والمعجزة التي أيده الله بها .

٣ - الفصل الثالث في منهج صالح في دعوته وأسلوبه فيها ومعجزته التي أيده الله بها .

٤ - الفصل الرابع في منهج موسى عليه السلام في دعوته وأسلوبه فيها والآيات التي أيده الله بها تصديقاً له .

٥ - بيان الدعوة في الآية الكريمة .

تفسير الآية التي ذكرت عندها الرسل وبيان من المخاطب بها

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾[1].

تفسير الآية :

من المُخَاطِب بهذه الآية ومن المُخَاطَب بها ؟

اختلف المفسرون في هذا الخطاب على ثلاثة أقوال : ـ

١ ـ قال بعضهم إن هذا خطاب من موسى لقومه، وعليه يكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله الذي أمره الله به في قوله : ﴿ ... **وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ** ﴾ .

٢ ـ قال قوم إنه ابتداء كلام من الله تعالى خطاباً لقوم موسى، وتذكيراً لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ومجيء الرسل إليهم، وهذا القول استظهره أبو حيان .

٣ ـ قال آخرون إنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد ﷺ وتحذيرهم عن مخالفته، وتخويف لهم بما حل بالأمم السابقة من العذاب لما

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٩ .

كذبوا رسلهم .

والذي رجحه ابن جرير أن هذا خطاب من موسى لقومه فإنه قال: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قول موسى لقومه : يا قوم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . ﴾ يقول خبر الذين من قبلكم من الأمم التي مضت قبلكم، قوم نوح وعاد وثمود. . . وعاد معطوف بها على قوم نوح، والذين من بعدهم يعني من بعد قوم نوح وعاد وثمود ﴿ . . . لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ . . . ﴾

يقول: لا يحصى عددهم ولا يعلم مبلغهم إلا الله .

ثم ذكر آثاراً عن ابن مسعود وغيره تدلك على أن معنى لا يعلمهم إلا الله أي لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى، وأن ابن مسعود كان إذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون [1] .

وقال ابن كثير: إن قول ابن جرير هذا فيه نظر، وقال إن الأظهر أن هذا خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم لا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة والله أعلم[2]، وصدر أبو السعود بالقول الأول، ورجحه واستبعد غيره فانظره .

وقال بعض العلماء: إن المراد بقوله: ﴿ . . . لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أمم ما بلغتنا أخبارهم، كذبوا رسلهم لم نعرفهم، ولا يعرفهم إلا الله سبحانه .

والقائلون بهذا القول طعنوا أيضاً في أقوال من يصل الانساب من النسابين إلى آدم عليه السلام، وقال إن نظير هذه الآية قوله :﴿ . . . وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾[3] .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٥ المصدر السابق .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٢٤ ط دار احياء الكتب العربية .

(٣) جزء من آية (٣٨) من سورة الفرقان .

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ... ﴾[1].

وقوله: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[2].

ورجح الفخر الرازي في تفسيره هذا القول الأخير، قال: لأن قوله تعالى: ﴿ ... لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ ... ﴾ نفى للعلم بهم، وذلك يقتضي نفي العلم بذواتهم إذ لو كانت ذواتهم معلومة وكان المجهول هو: مدد أعمارهم وكيفية صفاتهم لما صح نفي العلم بذواتهم[3].

وعلى كل حال فإن الاستفهام في قوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ... ﴾ للتقرير والتوبيخ.

وقوله: والذين إما في محل جر على أنه معطوف، أما على الذين، أو على قوم نوح وعاد وثمود، وإما في محل رفع مبتدأ خبره قوله: لا يعلمهم إلا الله[4].

وأقول: سواء أكان الخطاب من موسى لقومه، أم من الله لقوم موسى، أم من الله لقوم محمد ﷺ، فإن فيه التقرير لدعوة الرسل ومجيئهم لأممهم، وفيه توبيخ المخاطبين بإعراضهم عن دعوة الرسل وتهديدهم بما حل بمن سبقهم من الأمم المكذبة وتحذيرهم من تلك العواقب السيئة.

---

(١) جزء من آية (٧٨) من سورة غافر.

(٢) جزء من آية (١٦٤) من سورة النساء.

(٣) تفسير الفخر الرازي: جـ ١٩ ص ٨٨ ـ ٨٩ المصدر السابق.

(٤) طالع البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٠٨ المصدر السابق.

وكل هذا من أساليب الدعوة التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة وقوله : ﴿ ... جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ في أَفْواهِهِمْ وقالوا إنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفي شَكٍّ مِمّا تَدْعونَنا إِلَيْهِ مُريبٍ ﴾ .

هذا بيان لأحوال الأمم والرسل الذين كذبوا .

يقول: جاءت هؤلاء الأمم رسلهم الذين أرسلهم الله إليهم بدعائهم إلى إخلاص العبادة له بالبينات يعني بالحجج الواضحات والدلالات البينات الظاهرات على حقيقة ما دعوهم إليه معجزات[1] .

موقف الكفار من سماع دعوة الرسل :

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ في أَفْواهِهِمْ ... ﴾ .

وذكروا أقوالاً كثيرة والكثير منها متقارب وكلها يؤول إلى تكذيب الأمم لرسلهم وكفرهم بما جاءوهم به من الحق .

القول الأول وهو قول الأكثر ورجحه ابن جرير أن المعنى أن الكفار لما سمعوا كلام الرسل ودعوتهم إلى توحيد الله رد الكفار أيديهم في أفواههم وعضوا عليها غيظاً على الرسل مما جاءوهم به، وهذا المعنى وصف الله به المنافقين في قوله : ﴿ ... وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ... ﴾[2] .

وهذا المعنى معروف شائع في كلام العرب ومنه قول الشاعر :

لو أن سلمى أبصرت تخددي[3] ... ودقة في عظم ساقي ويدي

---

(١) طالع تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ المصدر السابق .

(٢) جزء من آية (١١٩) من سورة آل عمران . (٣) التخدد اضطراب اللحم من الهزال .

وبـعـد أهـلي وجـفـاء عـودي عضت من الـوجـد بـأطـراف الـيـد

٢ ـ وقال قوم إن معنى ذلك أن الكفار لمَّا سمعوا كلام الرسل عجبوا منه ووضعوا أيديهم على أفواههم.

٣ ـ وقال آخرون إن المعنى: أن الكفار كانوا يضعون أيديهم على أفواه الرسل ردا عليهم قولهم وتكذيباً لهم وعليه يكون ضمير أيديهم للكفار، وضمير أفواههم للرسل.

٤ ـ وقال قوم إن المعنى: أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها في أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم وعزا القرطبي هذا القول لمقاتل، وعليه فالضميرانِ للرسل.

٥ ـ وقال بعضهم: إن هذا مثل أريد به أنهم كفوا وأمسكوا عن الجواب وامتنعوا مما أمروا به.

وهذا القول مردود لأن الله صرح بأنهم أجابوا الرسل بقولهم:
﴿ ... إِنَّا كَفَرْنا بما أُرْسِلْتُمْ بِهِ ... ﴾ إلى غير ذلك من الأقوال.(١)

وقوله: ﴿ ... وقالوا إِنَّا كفرنا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وإِنَّا لَفي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إلَيْه مُرِيبْ ﴾.

هذا تتمة لفعل الأمم المكذبة لرسل الله، لما ملوا من عضهم أناملهم من الغيظ على الرسل من أجل آن دعوهم إلى توحيد الله وترك عبادة ما سواه لم يكتفوا بذلك حتى قالوا: إنا كفرنا بما أرسلكم به من أرسلكم في زعمكم من الدعاء إلى ترك عبادة الأوثان، وإنا لفي شك من حقيقة ما تدعوننا إليه من توحيد الله مريب أي موجب للريبة، وقولهم واننا لفي شك لا ينافي كفرهم

---

(١) ذكر هذه الأقوال ابن كثير والقرطبي وغيرهما عند تفسير هذه الآية فانظرهما هنا.

القطعي بما أرسلت به الرسل من البينات فإنهم كفروا بها قطعاً حيث لم يعتدوا بها، ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا: ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾[1] .

قلت: وهذه سنة الله في الأمم فما من رسول أتى قومه إلا كذبوه كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾[2] .

وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾[3] والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً .

---

(١) انظر تفسير أبي السعود هنا .

(٢) جزء من آية (٤٤) من سورة المؤمنون .

(٣) آية (١٨٤) من سورة آل عمران .

الفصل الأول

نوح عليه السلام

من هو نوح ؟

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ. وهو ادريس بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شئث بن آدم أبي البشر عليه السلام كان مولده بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره[1] .

لقد كان سبب عقد هذا الباب لهؤلاء الرسل الأربعة هو أن ثلاثة منهم ذكروا في هذه الآية المتقدمة، وهم نوح وهود وصالح، أما موسى فإنه ذكر في الآية التي قبلها مباشرة، وقد كان نوح عليه السلام من أعظم الدعاة إلى الله عز وجل .

وقد رسم للدعاة منهجاً حكيماً في دعوته يسيرون عليه .

فقد اشتهر بالصبر على الدعوة، وتحمل الأذى فيها، والتغاضي عن زلات قومه والنصح لهم، ولين الجانب معهم .

كما سلك معهم الأساليب الحكيمة بالحكمة والموعظة الحسنة إلى غير ذلك مما ستقف عليه إن شاء الله في مناهجه وأساليبه في دعوته في هذا

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ـ ١٠٠ ـ ١٠١ ط الثانية مكتبة المعارف بيروت .
وابن جرير في التاريخ جـ ١ ص ١٧٣ وما قبلها في قصة آدم ذكر ذلك في كلام طويل يتلخص منه النسب .

الفصل. وجل ذلك مأخوذ من كتاب الله لأن قصة نوح عليه السلام ذكرت مبسوطة في عشر سور من القرآن .

١ - في سورة الأعراف ٢ - في سورة يونس ٣ - في سورة هود ٤ - في سورة الأنبياء ٥ - في سورة قد أفلح المؤمنون ٦ - في سورة الشعراء ٧ - في سورة العنكبوت ٨ - في سورة الصافات ٩ - في سورة الفرقان - ١٠ - في سورة نوح .

كما ذكر اسمه دون بسط لقصته في سور كثيرة، كما في سورة النساء والإسراء، والتوبة، وإبراهيم، وغير ذلك مما هو كثير جداً[١] .

منهجه في دعوته :

ما المراد بالمنهج وما المراد بالأسلوب ؟

المراد بالمنهج: المبادىء العامة التي تدعو إليها وبها الرسل لتكون منارات للدعاة في دعوتهم .

والمراد بالأسلوب: الصور اللغوية والبيانية التي ترد على ألسنة الرسل في دعوتهم من كونها خبراً أو إنشاء أمراً أو نهياً، أو استفهاماً حواراً أو قصصا وما إلى ذلك مما هو كثير .

إن المنهج العام للرسل في دعوتهم هو: الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية ونبذ عامة الشركاء كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[٢] .

---

(١) طالع قصص الأنبياء لابن كثير جـ ١ ص ٧٤ فما بعدها ومطالع قصص الأنبياء للنجار .

(٢) جزء من ية (٣٦) من سورة النحل .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[٢] .

فما من نبي بعثه الله تعالى الا دعا الناس لعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه من الأصنام ،

وكان نوح عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما في حديث الصحيحين وذلك لأنه لما انتشر الفساد في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام بعث الله نوحاً إلى أهل الأرض يدعوهم إلى عبادة الله وحده .

ففي حديث الشفاعة الطويل عن أبي هريرة رضي الله عنه . . . . . (فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض وسماك الله عبداً شكوراً ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وأنه كانت لي دعوة دعوتها على قومي ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري . . .)[٣].

ولما بعث إلى أهل الأرض دعاهم إلى إفراد الله وحده بالعبادة وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره

---

(١) آية (٢٥) من سورة الأنبياء .

(٢) آية (٤٥) من سورة الزخرف .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في سورة بني اسرائل في باب ذرية من حملنا مع نوح . . ومسلم في كتاب الأيمان جـ ١ ص ١٨٥ المصدر السابق .

ولا رب سواه. وقد أخذ نوح بحظه من هذا المنهج الحكيم منهج الرسل في دعوتهم العباد إلى توحيد الله فأمر قومه بعبادة الخالق وحده وحذرهم من عبادة غيره كما أخبرنا القرآن الكريم بذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

وقال تعالى حاكياً عنه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾[4].

فهذا المنهج العام الذي بعث الله الرسل من أجله أخذ نوح بحظه الأوفر منه فدعا قومه إلى عبادة الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

السبب في كونه أول رسول إلى أهل الأرض:

سبب ذلك أن القرون التي كانت بينه وبين آدم كانت على شريعة من

---

(١) آية (٥٩) من سورة الأعراف.
(٢) آيتي (٢٣ ـ ٢٤) من سورة هود.
(٣) آية (٢٣) من سورة المؤمنون.
(٤) الآية (٢ ـ ٣) من سورة نوح.

الحق على ملة آدم عليه السلام حتى عبدت الأصنام في زمن نوح فبعثه الله إلى قومه فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض بعد أن عبدت الأصنام.

فقد روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال: « **كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين قال: وكذلك في قراءة عبد الله: ﴿ كان الناس أمة واحدة فاختلفوا** »[1].

ثم قال هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وقد أقره الذهبي على تصحيحه فانظره في المحل السابق[2].

---

(١) المستدرك لأبي عبد الله النيسابوري الحاكم جـ ٢ ص ٥٤٦.

(٢) تنبيه: ذكر الحافظ ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء هذا الحديث وعزاه للبخاري في صحيحه ولفظه: ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام) جـ ١ ص ٧٤. وعزاه له في البداية والنهاية جـ ١ ص ١٠١ وذكره بلفظه. وقد بحثت عن الحديث في صحيح البخاري ولم أجده، وقد ذكره السيوطي في الاتقان جـ ٢ ص ١٣٨ وعزاه للحاكم ولم يعزه للبخاري، وقد رواه ابن جرير عن ابن عباس بسنده.

قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في رواية عبد الله: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا. تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٣٣٤ فلم يختلف لفظه عن لفظ الحاكم. هذا مع أن ابن كثير نفسه ذكر هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ جزء من آية (٢١٣) من سورة البقرة. وقال رواه الحاكم في مستدركه من حديث بندار عن محمد بن بشار ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه.

فظهر مما ذكرنا أن عز والحافظ بن كثير هذا الحديث للبخاري في صحيحه في كتابيه قصص الأنبياء، والبداية والنهاية غير صحيح والله أعلم.

وعلى أية حال: الروايات عن السلف كثيرة بأن الناس كانوا على الإسلام الى زمن نوح فعبدوا الأصنام وكفروا فبعث الله نوحاً الى أهل الأرض، وعلى هذا كثير من المفسرين فانظر اقوالهم عند قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ﴾ من سورة البقرة، وإن كان بعضهم حكى عن ابن عباس أنه قال: كان الناس أمة واحدة على الكفر، ولكن هذا القول مردود بالروايات التي =

ففي زمنه عليه السلام عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلال والكفر فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وذلك أنهم كان فيهم رجال صالحون، ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، ولما مات هؤلاء الرجال الصالحون أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ذلك فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك الناس ونسخ العلم عبدت .

فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت)[1] .

وروى ابن جرير أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قوماً صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا جاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر

= أثبت منه عن ابن عباس من أنهم كانوا على شريعة من الحق كما تقدم .

وقال ابن كثير : أن الرواية الأولى عنه أصح سند أو معنى لأن الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام في زمن نوح فبعثه الله إليهم فأنظره عند تفسير الآية ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً . . .﴾ .

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير سورة نوح باب وداً ولا سواعاً .

فعبدوهم (١) .

ولقد بذل نوح منتهى وسعه واجتهد بغاية امكانه أن يتبعه قومه، وأن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا عبادة تلك الأصنام، وطال عليه الزمن

وهو يغاديهم ويراوحهم بالدعوة والنصح، ويأمل منهم الإيمان، ويدعوهم سراً وعلانية، وهم لا يزدادون إلا إعراضاً وبعداً عما يدعوهم إليه من توحيد الله، وقد حاول بشتى الوسائل اقناعهم فقد رغبهم بانزال المطر على أرضهم إذا آمنوا، وبإمدادهم بالمال والبنين كما حاول اقناعهم بلفت أنظارهم إلى خلق السماوات والأرض وأن من خلقهن يستحق أن يعبد وأن يوحد، ، ثم ذكرهم بكيفية خلقهم وأنهم خلقوا أطواراً طوراً بعد طور إلى غير ذلك من جميع الوسائل التي حاول اقناعهم بها فلم يفد ذلك فيهم شيئاً ولم يؤمن منهم إلا القليل (٢) .

منهجه في الصبر على الدعوة :

إن نوحاً عليه السلام صبر على دعوة قومه وحرص على هدايتهم صبراً لم يقع لأحد من الرسل ولا من غيرهم فقد رزقه الله تعالى طول الباع وأعطاه درجة من الصبر لم يوفق لها غيره فقد لبث في قومه يدعوهم إلى الله المدة التي يخبرنا عنها القرآن الكريم التي بلغت ألف سنة إلا خمسين عاماً وقد لبث فيهم هذه المدة يدعوهم ليلاً ونهاراً سراً وعلانية، ومع هذا لم يزدادوا إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكذيباً لنبي الله نوح فما آمن له إلا القليل منهم .

هذا مع ما يلاقيه في تلك المدة من أنواع الأذى كالسخرية والاستهزاء به

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٩ ص ٦٢ المصدر السابق .

(٢) طالع قصص الأنبياء للنجار بتصرف في الألفاظ ص ٣٣ .

وبمن آمن معه، وتكذيبهم له: قال تعالى حاكياً عنهم بعض ذلك: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

هكذا كانت مقالة الملا من قوم نوح كانوا يسخرون ويهزأون به وينسبونه إلى الكذب ويذمون من اتبعه من الناس فقد عارضوا رسالته وكذبوه بدعوى أنه بشر مثلهم في البشرية، وأن الذين اتبعوه إنما هم أراذل كالحاكة والباعة ولم يتبعه الأشراف ولا الرؤساء، ثم قالوا له: إن هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن اتباعهم لك عن تروٍ منهم في أمرك ولا فكر ولا نظر بل بمجرد دعوتك لهم أجابوك في أول بادىء ولا فضل لكم علينا في خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال من الأحوال لما دخلتم في دينكم هذا بل نظنكم كاذبين ـ فيما تدعون من البر والصلاح والخير والسعادة في الآخرة إذا صرتم إليها . وهذا جهل من هؤلاء وحمق فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه فإن الحق في نفسه حق صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، وكل من اتبع الحق صار شريفاً بالحق، فالحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف وإن كانوا فقراء، أو ضعفاء، والذين يأنفون عن الحق هم الأراذل ولو كانوا أغنياء أقوياء، والغالب أن أول ما يتبع الرسل ويستجيب للحق ضعفاء الناس، والغالب في الأشراف والكبراء مخالفته، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[2].

---

(١) آية (٢٧) من سورة هود.

(٢) آية (٢٣) من سورة الزخرف.

فهكـذا كـان شـأن رسـل الله يتبعهم الضعفـاء من النـاس أولاً ، ولكن هؤلاء الضعفـاء يصيرون هم الأقـوياء والأشـراف والعظمـاء بسبب الاسلام واتبـاعهم للرسل وقبولهم دعوتهم ولما سأل هرقـل ملك الروم أبـا سفيان بن حـرب حين قـدم عليه رسـول رسول الله ﷺ وهـو إذ ذاك بالشـام ، لمـا سـألـه عن صفـات النبي ﷺ ، كان من جملة ما سأله عنـه أأشراف النـاس اتبعوه أم ضعفـاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل هم أتباع الرسل .

وأما قولهم : بادي الرأي فليس بعيب ولا مـذمة فيـه لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للتفكير فيه مجـال ، بل لا بـد من اتباع الحق والحـالة هـذه لكل ذي ذكاء ، بل لايفكر هنا إلا غبي أو عيبي ، والرسـل صلوات الله وسلامـه عليهم ما جاءوا إلا بأمر جلي واضح لا لبس فيه(١) .

وهذه الآية مثل قولهم له : ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾(٢) . أي لا نؤمن بمـا جئت به ولا نتبعـك لأن الـذين اتبعـوك وصدقـوك أراذل فـلا نتسـأسى بهم ولا نقتـدي ، فكـان جـوابـه أن قـال : ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾(٣) ، فكأنهم سألـوه أن يبعد عنـه هؤلاء المؤمنين ويتابعـوه فأبى وقـال : ما أنـا بطارد المؤمنين ، إن أنـا إلا نذيـر مبين ، أي إنما بعثت نـذيـراً فمن أطـاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه ، سواء كان شريفاً أو وضيعـاً في رأيكم أو جليـلاً أو

(١) طالع تفسير ابن كثير عند تفسير آية هود هذه جـ ٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ط دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه .

(٢) آية (١١١) من سورة الشعراء .

(٣) الآيات من (١٢ ـ ١٥) من سورة الشعراء .

حقيراً[1] وقد صبر عليه السلام على سخريتهم منه عندما يمرون به وهو يصنع الفلك كما قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾[2].

فلم يزدهم في الجواب على أن قال: ﴿ ... قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[3].

هكذا كان حال نوح في صبره على دعوة قومه، فقد لبث فيهم المدة التي ذكر لنا القرآن الكريم التي بلغت تسع مائة وخمسين سنة صابراً على أذاهم متحملاً زلاتهم متغاضياً عن خطئهم لا يمنعه ذلك من دعوتهم مبلغاً رسالة ربه متحملاً ما فيها من المشاق.

فينبغي للداعية المخلص أن يتآسى بنبي الله نوح في صبره على الدعوة إلى الله وعدم الضجر ولا يستكثر المدة التي مضت عليه وهو يدعو الناس فلم يستجيبوا ويتحمل كل ما يلاقيه من مشقة وهوان في سبيل دعوته إلى ربه عز وجل.

منهجه في التوكل على ربه:

إن نوحاً عليه السلام رغم انفراده في قومه وقلة من آمن معه منهم لم يثن ذلك عزيمته عن دعوتهم إلى الله تعالى وتحديهم بأن يجمعوا له أمرهم مع مالهم من الشركاء وأن ينهوا أمره ولا يمهلوهُ ساعة واحدة، وما هذا إلا من

---

(1) انظر ابن كثير هنا جـ ٣ ص ٣٤٠ المصدر السابق.

(2) جزء من آية (٣٨) من سورة هود.

(3) جزء من آية (٣٨) - وآية (٣٩) من سورة هود.

شـدة توكله على ربـه وعلمه أنهم لا يستـطيعون أن يضـروه بشيء لم يشأ الله تعالى أن يضروه به .

وقـد صور القـرآن الكريم لنـا هذا التـوكل والتحـدي في آيـة من سـورة يونس .

قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[1]

يقول عليه السلام لقومه: يا قوم ان كان عـظم عليكم مقامي فيكم ولبثي بين أظهركم وتذكيري إياكم بآيات الله أي بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة، فعلى الله تـوكلت أي فـإني لا أبـالي بكم ولا أكف عن دعـوتكم عـظم ذلـك عليكم أولا فأجمعوا أمـركم مع شـركـائكم الـذين تـدعـونهم من دون الله من أصنـام وأوثـان، ثم لا يكن أمـركم عليكم غمـة أي لا تجعلوه ملتبسـاً، بـل وضحوا حالكم معي فإن كنتم تزعمـون أنكم محقون فانضوا إلي ولا تنـظرون واستريحوا مني ولا تؤخـرون ساعـة واحدة مهمـا قدرتم فـافعلوا فإني لا أبـالي بكم ولا أخافكم لأنكم لستم على شيء .

وهكـذا ينبغي أن يكون الـداعية متـوكلاً على الله لا يخـاف غير الله ولا يخاف في الله لومـة لائم، ويعلم أن الناس لـو اجتمعوا على أن يضـروه بشيء لم يرد الله أن يضروه به لم يستطيعوا، كما ينبغي له ألا يطلب أجراً على دعوته إلا من الله تأسياً بنوح عليه السلام حيث يقول بعد هذا مباشرة : ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ

(١) آية (٧٢) من سورة يونس.

﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾[١].

منهجه في أدبه مع قومه وتلطفه في دعوته :

إن نوحاً عليه السلام مع كفر قومه وعنادهم وقسوتهم في الخطاب: مع هذا كله فإنه ضرب المثل الأعلى للدعاة في لين الجانب للمدعوين والتلطف بهم لأجل هدايتهم ولم يشتد معهم إلا حينما حصل له اليأس من هدايتهم عن طريق الوحي من الله، هنالك يشتد عليهم ويقسو ويدعو عليهم كما قال الله تعالى عنه : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[٢]

فنوح عليه السلام لم يدع على قومه ولم يقس معهم إلا بعد أن أخبره الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن كما قال تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٣].

وقد ذكر القرآن نماذج من أدبه مع قومه وتلطفه ولينه معهم عندما يعارضه الملأ من قومه ويكذبونه علناً، هنالك يلين جانبه ويتلطف لهم في الخطاب ويضرع إلى الله عز وجل، وهكذا ينبغي أن يكون الداعي اليوم متحلياً بالصبر ولين الجانب والصفح واللجوء إلى الله تعالى ويسلك الطريق السوي الذي رسمه أول رسول إلى أهل الأرض نوح : ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ـ للدعاة فإن في رسل الله الأسوة الحسنة .

---

(١) آية (٧١) من سورة يونس.

(٢) آية (٢٦) من سورة نوح.

(٣) آية (٣٦) من سورة هود.

قال تعالى معبراً عن ذلك كله من لينه وأدبه، وقسوة قومه وكفرهم، وما يخاطب به الملأ من قومه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[١].

فتراه عليه السلام لما قال له الملأ من قومه: إنا لنريك في ضلال مبين فماذا كان الجواب؟ كان الجواب في غاية اللين والتواضع ﴿ ... **يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين** ﴾ أي ما أنا بضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء وخالقه ورازقه ومليكه، أبلغكم الرسالة من الله وأنصح لكم وأرشدكم إلى ما فيه لكم الفوز وسعادة الدارين وأعلم من الله مالا تعلمون، وهكذا شأن الرسل لا بد أن يكونوا ناصحين مبلغين عن الله ما أمرهم بتبليغه.

ولذلك لما حج نبينا ﷺ حجة الوداع ووقف بعرفة وأصحابه في ذلك الوقت أوفر ما كانوا، قال في ذلك اليوم. « ... **وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس ويقول اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم أشهد ثلاث مرات** »[٢].

---

(١) الآيات من (٥٨ - ٦٣) من سورة الأعراف.

(٢) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٨٩٠ كتاب الحج المصدر السابق.

ثم يقول نوح لقومه بعد ذلك كله برفق ولين وأدب: لا تعجبوا من هذا فليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً واحساناً منه إليكم لينذركم ذلك الرسول عذاب الله ولتتقوا العذاب ولا تشركوا بالله شيئاً ولعلكم ترحمون .

وقال تعالى حاكياً عنه لما كذبه قومه وقالوا له : أنت بشر مثلنا ولست ملكاً، ولم يتبعك إلا الأراذل من الناس، ولن نرى لك أنت ولا من اتبعك فضلاً علينا، وإنا لنظنك كاذباً فيما تدعيه من رسالة الله لك ونظن قومك كاذبين أيضاً فيما يدعونه من الصلاح والبر وسعادة الدنيا والآخرة، وكان الجواب منه عليه السلام أن قال : ﴿ .. قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾(١) .

فأخبرهم عليه السلام بلين ورفق أنه على يقين من ربه بما يدعوهم إليه وأن نبوته حق، وأنها رحمة عظيمة من الله به وبمن آمن به منهم، وأن هذه الرحمة خفيت عليهم وأنه لا يلزمهم بها ولا يغصبهم على الدخول فيها حيث كانوا لها كارهين .

وقال تعالى حاكياً مقالة قومه الشنعاء وما رد عليهم به : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ

---

(١) جزء من آية (٢٨) من سورة هود.

﴿ ... ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾[1]

ولما قالوا له هذا كان الجواب منه أن قال معرضاً عن الرد عليهم بما يستحقون من الشتم والتوبيخ : ﴿ ... رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾[2] .

فقد لجأ إلى ربه تعالى وسأل منه أن ينصره عليهم ولم يقابل إساءتهم بالمثل ولم يرد عليهم، وقد فعل الله، فنصره عليهم فأوحى إليه أن يصنع الفلك وأن يسلك فيها من كل زوجين اثنين، ولما حان وقت هلاكهم أغرقهم الله جميعاً ونجى نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه .

هذا ملخص عن منهج نوح عليه السلام في دعوته مأخوذ من القرآن الكريم ذكرناه ليكون بصيرة للدعاة يقتفونه ويقتدون به لينجحوا في دعوتهم .

أسلوب نوح عليه السلام في دعوته :

إن نوحاً عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم نوع أساليب دعوته لقومه فقد استعمل معهم أسلوب الترغيب تارة، وأسلوب الترهيب تارة، وتارة يلفت أنظارهم إلى الاعتبار بمخلوقات الله المحسوسة المشاهدة بالنظر في خلق السموات والأرض والنجوم والشمس والقمر .

كما أرشدهم إلى النظر في بدء خلقهم، وأنهم خلقوا من تراب، وأنهم سوف يعادون إليها ويخرجون منها بعد ذلك أحياء .

وكان يذكرهم بنعم الله التي أنعم عليهم بها حيث بسط لهم الأرض ليسلكوا منها سبلاً فجاجاً لتحصيل معاشهم وغير ذلك من الأساليب التي اتخذها معهم ﷺ. وقد أنزل الله فيه وفي دعوته لقومه سورة كاملة من القرآن

---

(١) الآيات (٢٣ ـ ٢٥) من سورة المؤمنون .

(٢) جزء من آية (٢٦) من سورة المؤمنون .

لم يذكر فيها غير قصته مع قومه من أول السورة إلى آخرها، فيها كيفية دعوته لهم وطول صبره على ذلك ووسائل الدعوة التي استعملها معهم، وما كانوا يواجهونه به من التكذيب والاعراض عن الحق والتمادي على عبادة الأصنام .

ولم ينزل الله سورة من القرآن كاملة في شأن رسول مع قومه ليس فيها غير قصته معهم إلا في نوح وحده . وهي سورة نوح كما قال تعالى : ﴿ بسم الله الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم . إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . ﴾ إلى آخر السورة.

فهذه السورة الكريمة قد اشتملت على كثير من أساليب الدعوة إلى الله تعالى فقد رسم فيها نوح عليه السلام للدعاة طريقاً يسلكونه في دعوتهم وبين لهم أساليب الدعوة ووسائلها المختلفة ،

فقد بدأ نوح في هذه السورة قومه بأسلوب الترهيب، وذلك في قوله:
﴿ يا قومُ إِنِّي لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ ﴾
أي بين النذارةَ ظاهر الأمر واضحه فاعبدوا الله واتقوه، واتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه .

فقد أنذرهم في مطلع هذه السورة مستعملاً أسلوب الترهيب، ثم أمرهم بعد ذلك بثلاثة أشياء مستعملاً أسلوب الطلب .

أمرهم بعبادة الله وحده المتضمنة لسعادة الدارين، وأمرهم بتقوى الله جل وعلا ، وأمرهم بطاعة نبيه نوح عليه السلام[1] .

---

(١) وذلك لأن الأمر بعبادة الله يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب والجوارح، والأمر بتقوى الله يتناول الزجر عن جميع المحرمات والمكروهات وطاعة الرسول تستلزم امتثال جميع المأمورات واجتناب جميع المنهيات وان اكان هذا الأخير داخلاً تحت الأولين ولكنه خص بالذكر تأكيداً في ذلك التكليف ومبالغة في تقريره .
انظر تفسير الفخر الرازي جـ ٣٠ ص ١٣٤ المصدر السابق .

وقد نوع أسلوبه في هذه الآية القصيرة فأتى فيها بثلاثة أوامر كل واحد منها له معنى وإن كان شملها المعنى الأول الذي هو عبادة الله على الوجه المطلوب لكن نبي الله غاير في الأسلوب ليبين لقومه ويوضح لهم ولئلا يترك طريقاً إلا جاءهم منها .

أسلوب الترغيب :

ثم أخذ عليه السلام في نوع آخر من أساليب الدعوة وهو أسلوب الترغيب فقال: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[1]

فكأنه يقول لهم: إن فعلتم ما أمرتكم به من عبادة الله وتقواه وطاعتي فيما أمرتكم به يغفر الله لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى عند الله فقد وعدهم بغفران الذنوب التي ارتكبوها من الكفر والشتم لرسول الله نوح وتكذيبه والسخرية منه[2] .

وقوله : ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ نوع آخر من الترغيب، رغبهم في طول المكث في الدنيا بطول العمر إن آمنوا بالله واتقوه وأطاعوا رسولهم لأن طاعته تستلزم طاعة الله جل وعلا .

قال الزمخشري هنا: فإن قلت كيف قال: ﴿ ويؤخركم ﴾ مع اخباره

---

(١) جزء من آية (٤) من سورة نوح .

(٢) قلت اختلف علماء العربية في (من) من قوله تعالى: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ فقال بعضهم: إنها للتبعيض لأن الإيمان يجب ما قبله لا ما بعده فيكون الكلام خاصاً بما كان قبل الإيمان من الذنوب، وما كان بعده فهو مسكوت عنه، وقيل إنها لابتداء الغاية، وقيل انها صلة كما أجاز ذلك الاخفش ومن وافقه من الكوفيين حيث أجازوا زيادة (من) في الاثبات، وقيل المعرفة فلا يشترطون وجود نفي قبلها ولا كون ما بعدها نكرة. انظر الفتوحات الإلهية لسليمان الجمل جـ ٤ ص ٤٠٩ ط اولى الاستقامة بالقاهرة .

وقيل إنها لبيان الجنس ورده أبو حبان وقال: ليس قبلها ما تبينه فأنظره .

بامتناع تأخير الأجل وهل هذا إلا تناقض ؟

قلت: قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم الله ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسع مائة فقيل لهم آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله وضربه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه وهو الوقت الأطول تمام الألف، ثم أخبرهم أنه إذا جاء ذلك الأجل لا يؤخر هذا الوقت ولم تكن لهم حيلة إ. هـ(١).

أسلوب الترهيب(٢) :

ثم عدل عليه السلام عن أسلوب الترغيب إلى أسلوب الترهيب لئلا تبقى ناحية إلا أقام عليهم الحجة منها فقال: ﴿ **إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون** ﴾ .

أي أن الأجل المحدد لكم الذي لا تتجاوزونه إذا جاء لا يؤخر عنكم الهلاك لحظة واحدة فلو علمتم أن الأمر كذلك لأنبتم إلى طاعة ربكم، فلما رغبهم بغفران الذنوب وامتداد الأعمال في حياة طيبة وعلم أن ذلك لم يفد فيهم عدل إلى أسلوب الترهيب فخوفهم وأخبرهم أن الزمن المحدد لهلاكهم إذا جاء لا ينظرون إلى وقت آخر فلو كانوا يعلمون شيئاً لانتبهوا عن غفلتهم إلى يقظة وتابوا إلى ربهم وآمنوا بنبيهم .

ثم بعد هذا كله شرع يخبر ربه وهو أعلم بحاله بالوسائل التي اتخذها في دعوة قومه من دعوته لهم في السر والعلانية وفي الليل والنهار وما وقع منهم من

---

(١) انظر الكشاف جـ ٤ ص ١٦١ المصدر السابق .

(٢) قلت دلت السنة على مثل هذا: ففي الصحيحين: (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأله في أثره فليصل رحمة أخرجه البخاري في كتاب البيوع في باب: من أحب البسط في الرزق، وفي كتاب الأدب، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب في باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها جـ ٤ ص ١٩٨٢ المصدر السابق .

التمادي على التكذيب والكفر، وأنه كلما دعاهم إلى سبب المغفرة الذي هو الإيمان جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعوته، وغطوا وجوههم بثيابهم وأصروا على كفرهم ثم رجع ثانياً إلى أسلوب الترغيب فقال :

﴿ . . اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾[1]

وقال[2] بعضهم إن معنى : واستغشوا ثيابهم غطوا وجوههم لئلا يعرفهم[3] .

لفت الأنظار إلى عجائب صنع الله :

لما رهب نوح قومه، ورغبهم بخير الدنيا والآخرة ولم يفد ذلك فيهم أخذ يلفت أنظارهم إلى آيات الله الكونية كخلق السماوات وجعل القمر فيهن نوراً، والشمس سراجاً كما وجه أنظارهم إلى مبدأ خلقهم وأن الله خلقهم من الأرض، وأنه يعيدهم إليها أمواتاً ويخرجهم منها يوم الجزاء إخراجاً .

كما وجه أنظارهم إلى نعمة تمليك الله الأرض إياهم ليسلكوا منها سبلاً فجاجاً أي طرقاً واسعة، ثم بعد هذا كله رفع الشكوى إلى ربه، وأخبره أنهم عصوه، واتبع الأصاغر منهم الأكابر، واتبع المرؤوس الرئيس الذي لم يزده ماله وولده إلا خساراً، ومكروا مكراً كباراً، وقالوا لا تذرن آلهتكم التي تعبدونها، ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً، وقد تقدم الكلام

---

(١) آيات (١٠) و(١١) و(١٢) من سورة نوح .

(٢) طالع تفسير ابن جرير وتفسير الشوكاني هنا في هذه السورة .

(٣) قلت: وهذا القول بعيد عندي لأنه ليس معه إلا قومه الذين آمنوا معه، وقومه الذين لم يؤمنوا به، فالمؤمنون لن يغطوا وجوههم عنه، وغيرهم يعلم أنهم من المصرين سواء غطوا وجوههم أو لا، وانما غطوا وجوههم كراهة أن يروا ذات نبي الله نوح عليه السلام .

على هؤلاء الأصنام وسبب عبادة الناس لها .

أسلوب القسوة :

إن نبي الله نوحاً لما علم بوحي من ربه أن قومه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن بعد أن اتخذ معهم أساليب اللين والترغيب والترهيب وعلم أن ذلك لن يزيدهم إلا اصراراً على الكفر، عند ذلك دعا عليهم بالهلاك وذلك في قوله كما حكى الله عنه في هذه السورة : ﴿ .... رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾[1] .

وهذا مثل دعاء نبي الله موسى على قومه لما علم بالوحي من الله عدم إيمانهم قال : ﴿ ... رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾[2] .

وقد استجاب الله دعاء نبيه عليه الصلاة والتسليم فأهلكهم الله جميعاً بالغرق ونجى الله نوحاً وجميع من آمن معه .

ثم بين عليه السلام علة دعائه عليهم بالابادة فقال: ﴿ **إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدوا إلاّ فاجراً كفّاراً** ﴾ .

وذلك لشدة خبرته بهم وطول مكثه بين أظهرهم علم خبثهم وفساد نواياهم إلى غير ذلك مما اتصفوا به من المكر والكفر .

وفي هذه السورة كفاية ففيها من مناهج دعوة هذا الرسول وأساليبه

---

(١) آيتي (٢٦ و٢٧) من سورة نوح .

(٢) جزء من آية (٨٨) من سورة يونس .

والوسائل التي اتخذها ما يكفي مع أننا لم نتتبع ما فيها آية آية لأن الغرض عندنا مجرد نماذج من أساليب الرسل ومناهجهم ووسائل دعوتهم ليقتدي بهم الداعي ويتأسى بهم، ويكونوا سلفاً له ويكون خلفاً لهم وليس في وسعنا حصر ما ورد عن هؤلاء الرسل الذين ذكرنا من أحوال دعوتهم لأن القرآن مليء بذلك ـ والبصير يعتبر بما ذكر، ويقيس مالم يذكر على ما ذكر إ. هـ.

معجزة نوح عليه السلام :

إن مما لا شك فيه أن كل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم أيده الله تعالى بمعجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره اصرار من أصر على المعاندة، لأن الهداية بيد الله تعالى.

لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « **ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة** »[1] .

فكلمة (نبي) في الحديث من قوله: (ما من نبي) نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي نص في العموم كما هو معلوم عند الأصوليين، فدل ذلك على أنه لا بد لكل نبي من معجزة من حقها أن يؤمن بها من شاهدها من البشر أي يصدق بأنها من عند الله أيد بها رسوله .

قال الحافظ ابن حجر. . . والمعنى أن كل نبي أعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها، وعليه بمعنى اللام أو الباء الموحدة .

والنكتة في التعبير بها تضمنها معنى الغلبة أي يؤمن بذلك مغلوباً عليه

---

(١) أخرجه البخاري في أول كتاب فضائل القرآن وفي كتاب الاعتصام، ومسلم في كتاب الإيمان جـ ١ ص ١٣٤ المصدر السابق .

بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه، لكن قد يجحد فيعاند كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[1] انتهى محل الغرض من كلامه[2]:

وقد تبين مما ذكرنا أن لكل نبي من الأنبياء معجزة تدل على صدقه سواء اشتهرت حتى عرفها الناس كلهم، أو خفيت على بعضهم، ولا يرد على هذا قول عاد لرسولهم هود: ﴿ ... يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾[3].
لأن ذلك من شدة جهلهم وتجاهلهم وعنادهم لرسول الله ﷺ، وإلا فهو جاءهم بمعجزة عظمى كما سيأتي إن شاء الله.

ومع هذا فإن الرسل عليهم الصلاة والتسليم يتفاوتون في هذا فمنهم من تكون له معجزة واحدة، ومنهم من تكون له معجزات كثيرة لكنها محصورة كموسى وعيسى عليهما السلام، ومنهم من تكون معجزاته فاقت الحصر كنبينا محمد ﷺ، وإن كان القرآن هو معجزته العظمى كما قدمنا إلا أن له معجزات كثيرة لا يمكن حصرها.

ونوح عليه السلام أيده الله بمعجزة دلت دلالة واضحة على صدقه وأنه رسول من رب العالمين، وذلك أنه عاش بين قومه وحيداً فريداً يعلمون حاله، وقلة منعته فيهم، وقلة من تبعه من المؤمنين، وإذا به يتحدى هؤلاء القوم بعد أن سفه أحلامهم، وسب معبوداتهم وأخبرهم أنها لا تستحق العبادة، وأن الذي يستحقها هو الله وحده، بعد هذا كله فإذا به يتحداهم قائلاً لهم:

---

(١) جزء من آية (١٤) من سورة النمل.

(٢) فتح الباري جـ ٩ ص ٦ ط السلفية.

(٣) جزء من آية (٥٣) من سورة هود.

﴿ يَـٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾[1] .

ففي هذا الكلام أعظم تحد لهؤلاء الكفرة فإنه قال لهم : (إن كان شق عليكم مقامي أي لبثي بين أظهركم ، أو قيامي على الدعوة والتذكير لأنه مكث فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً)[2] .

ثم أخبرهم بعد التحدي أنه توكل على الله جل وعلا ، فليجمعوا أمرهم وليصمموا على اهلاكه ولا يترددوا في ذلك ، فأجمعوا أمركم أي اعزموه ، وشركاءكم أي أمر شركائكم على حذف مضاف فشركاءكم معطوف على أمركم على هذا[3] .

وعلى كل حال ، فإن هذا في غاية التحدي والتعجيز لأنه أمرهم الا

---

(١) جزء من آية (٧١) من سورة يونس .

(٢) وقيل المراد بقوله : مقامي : نفسي أي ذاتي كما في قوله : **﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾** آية (٤٦) من سورة الرحمن ، انظر أبا السعود جـ ٢ ص ٣٤١ .

(٣) ذلك لأن أجمع يؤتى بها للمعاني ، وجمع يؤتى بها للذوات فلا يقال أجمع شركاءه وقيل انه منصوب باضمار فعل لائق أي واجمعوا شركاءكم بهمزة وصل قبل الفعل الثلاثي ، وقيل إنه مفعول معه أي أجمعوا أمركم مع شركائكم انظر الفتوحات الإلٓهية لسليمان الجمل جـ ٢ ص ٣٦٣ .

قلت : الذي عليه أكثر النجاة أن : وشركاءكم منصوب بفعل محذوف مناسب تقديره أجمعوا ، أو مفعول معه .

وعلى ذلك درج ابن مالك في ألفيَّته حيث قال : والعطف إن يمكن بلا ضعف أحق والنصب مختار لدى ضعف النسقْ .

والنصب إن لم يجز العطف يجب ... أو اعتقد اضمار عامل نصب

وقد مثل الشراح بهذه الآية لما لم يمكن عطفه ، ولذلك تعين فيها ما ذكرنا من النصب بالفعل أو بالواو أو على اضمار فعل . أنظر شرح ابن عقيل جـ ٢ ص ٢٠٨ ط ١٥ تحقيق محي الدين عبد الحميد .

يكون أمرهم غمة عليهم، أي لا يكن خفياً مبهماً وليكن ظاهراً متكشفاً وقال لهم نفذوا ما أردتم، ولا تنظرون ساعة واحدة من ليل أو نهار هذه معجزة نوح عليه السلام، وإنّها لمن أعظم المعجزات حيث يخاطب رجل واحد أمة كاملة ويقول لهم أجمعوا أمركم أي اعزموا على ما تريدون من السوء بي، وحضروا شركاءكم الذين تدعون أنهم ينفعون ويضرون وحاولوا أن تضروني بسوء ولا تمهلوني ساعة واحدة.

من قال بأن هذه معجزة نوح :

قال الصاوي في حاشيته على الجلالين إن هذا التحدي هو معجزة نوح عليه السلام، ذكر ذلك في الكلام على معجزة هود، وأنها من نوع معجزة نوح لأن كلا منهما تحدى قومه وتوكل على الله وطلب من قومه أن يكيدوه ولا ينظروه قال ما نصه :

وكذا معجزة نوح التي قامت بها الحجة عليهم هي قوله تعالى : ﴿ ... **فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إلي ولا تنظرون** ﴾ وأما الريح والطوفان وإن كان كل معجزة فيهما هلاكهم لا إقامة الحجة عليهم(١).

قلت: أما الريح والغرق فإن هذين الأمرين وقعا بين يدي العذاب بعد أن وقع اليأس من إيمان أولئك القوم، ولم يبق إلا الهلاك فكانت الريح والطوفان هما السبب في الهلاك، وكذلك السفينة لا تعد من نوع المعجزات التي تستدعي إيمان المدعوين لأنها كذلك إنما صنعها نوح لانقاذ المؤمنين من الغرق لأنه لما أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد أمن وقطع الطمع

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين جـ ٢ ص ٢٠٤ ط المصطفى البابي الحلبي.

عن ايمانهم أمره الله أن يصنع الفلك لأنه لا سبيل إلى صيانة نفسه ومن معه من المؤمنين إلا بذلك، فصنع الفلك على هذا القبيل، لا أنه من نوع المعجزات التي تستدعي إيمان المدعوين، والله تعالى أعلم اهـ .

الفصل الثاني

هود عليه السلام

من هو هود ؟

هو هود بن عبد الله. بن رباح. بن الخلود. بن عاد. بن غوص. بن أرم. بن سام. بن نوح.

ومن أهل الأنساب من يزعم أن هوداً هو: عابر بن شالخ، بن أرفخشد بن سام، بن نوح، وكانوا أهل أوثان، ثلاثة يعبدونها يقال لأحدها صداء، وللآخر صمود، وللثالث الهباء، فدعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة دون غيره، وترك ظلم الناس فكذبوه وقالوا: من أشد منا قوة ؟ فلم يؤمن بهود منهم إلا قليل فوعظهم هود إذ تمادوا في طغيانهم... وكان جوابهم أن قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إ. هـ[١].

وقال ابن كثير: هو هود بن شامخ، بن أرفخشذ، بن سام، بن نوح، وذكر رواية الطبري التي صدر بها أيضاً فانظره[٢].

منهج هود عليه السلام في دعوته :

إن منهج نبي الله هود عليه السلام في دعوته لا يختلف عن منهج أخيه

---

(١) تاريخ ابن جرير جـ ١ ص ٢١٦ ـ ٢١٧ ط الثانية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٢٠ ط الثانية مكتبة المعارف بيروت.

نوح عليهما الصلاة والتسليم بكثير لأن جميع الرسل متفقون في المبدأ على الدعوة إلى توحيد الله تعالى: فهي المنهج الأساسي للرسل في دعوتهم الأمم.

وقد أخذ نبي الله هود بحظه من ذلك المنهج فدعا قومه إلى توحيد الله وعبادته وحده ونبذ عبادة الأصنام.

ولقد كان قومه أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عبادة لا تقل عن عبادة قوم نوح لها فبعث الله فيهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله، وأمرهم أن يوحدوه، وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة[1]؟

وكان عليه السلام ينذر قومه ويحذرهم بأس الله ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم حيث زادهم في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وبوأهم أرضاً مثمرة تدر عليهم الخير الكثير تنبت لهم الزرع الذي يعيشون به، والكلأ الذي تعيش به بهائمهم، وكان يخبرهم أن الواجب عليهم أن يستعملوا هذه القوة التي أعطاهم الله ولم يعطها لأحد قبلهم في طاعة الله وأن يستعملوا عقولهم ويفكروا بها ليتبينوا بها أن ما يعبدون من دون الله لا يضرهم ولا ينفعهم، وأن الذي يضر وينفع هو الله وحده الذي خلقهم وأعطاهم القوة، والذي بيده إحياؤهم واماتتهم، وأنهم إذا تابوا إلى الله وأنابوا إليه مما سلف من الشرك منهم تاب عليهم وأغدق عليهم نعمه من إرسال السماء عليهم بالمطر، ومن امدادهم بقوة إلى قوتهم وبزيادتهم عزاً إلى عزهم.

ومع هذا كان عليه السلام يخبرهم أنه لا يطلب منهم أجراً مقابل دعوته

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٩٧ .

لهم ونصحه لهم، وإنما يطلب الأجر على ذلك من الله، فهو يخبرهم بأنه لا يريد من وراء ذلك نفعاً يجره لنفسه، ولا فائدة يستفيدها منهم، ولا زعامة يتزعمها، ولكن قوم هود عتوا وكفروا بالله وبرسوله هود عليه السلام وسفهوه وكذبوه وتجاهلوا الحجج التي جاءهم بها من ربه، والبراهين القاطعة التي أقامها على صدقه وقالوا له: ﴿... مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ...﴾(١)(٢).

لقد بين لنا القرآن الكريم المنهج الذي سلكه نبي الله هود في دعوته لقومه حيث يقول: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾(٣).

فنبي الله هود دعا إلى توحيد الله كما هو شأن جميع الرسل عليهم

---

(١) الآية (٥٣) وجزء من الآية (٥٤) من سورة هود.

(٢) طالع قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار ص ٥١ ـ ٥٢ .

(٣) الآيات من (٦٥ ـ ٦٩) من سورة الأعراف .

الصلاة والسلام وأنكر على قومه عدم تقوىٰ الله حيث قال لهم أفلا تتقون.
وكان جواب قومه له لما أمرهم بتقوى الله أن قال له القادة والسادة المعبر عنهم بالملأ: ﴿... إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ أي انا لنظنك في حمق وجهالة حيث تدعونا الى ترك عبادة الأصنام والاقبال على عبادة الله وحده [1].

وكان جواب نبي الله هود لقومه لما رموه بالسفاهة والكذب في غاية اللين والتلطف والحكمة، وذلك في قوله **﴿يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾** ولست كما تزعمون، إنما أنا رسول من الله جئتكم بالحق من الله الذي هو ربي وربكم ورب العالمين جميعاً أبلغكم رسالته لي إليكم مع أني ناصح لكم أمين عليكم ثم أرشدهم ألا يعجبوا من إرسال الله إليهم رجلاً منهم لينذرهم بأس الله ويحذرهم بطشه، ثم ذكرهم نعم الله عليهم حيث جعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح فإن الله أهلك أهل الأرض بدعوته لما كذبوه وكفروا به، وذكرهم بنعمة القوة التي أعطاهم الله حيث قال لهم: **﴿وَزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَسْطَةً﴾** أي زادكم قوة على بني جنسكم، فقوم نوح الذين أنتم من ذريتهم جعلكم الله أقوى منهم فاذكروا هذه النعم لعلكم تفلحون، أي تفوزون في الدنيا والآخرة[2].

وقال تعالى في شأنه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟

---

(١) قلت: وهذا مثل قول قريش لما دعاهم الرسول ﷺ إلى عبادة إله واحد تعجبوا من ذلك وقالوا **﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجاب﴾** آية (٥) من سورة صٓ.

(٢) طالع تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآيات من سورة الأعراف.

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

فبعد أن دعاهم إلى توحيد الله، وأنه لا إله غيره، وأخبرهم أنهم كاذبون في دعواهم آلهة مع الله، وأنه لا يطلب منهم أجراً على تبليغه لهم الدعوة من الله وإنما يطلب الأجر على ذلك من الله جل وعلا، وأرشدهم إلى الاستغفار من الذنوب والتوبة إلى الله تعالى، وأخبرهم أن ذلك سبب في ادرار السماء عليهم بالمطر كما أنه سبب في زيادة قوتهم التي تبجحوا بها حيث قالوا.. ﴿.. مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ لما سمعوا هذا كله تجاهلوا الحق وعاندوا واستكبروا وكفروا وقالوا: ﴿... يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[2]

أي ما جئتنا بحجة وبرهان قاطع على ما تدعيه، وما نحن بتاركي آلهتنا بمجرد دعوى منك لم تقم عليها بينة ولا برهاناً قاطعاً وما نحن بمصدقين لك بمجرد هذه الدعوى وما نظن إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها، فلما قالوا مقالتهم هذه قال لهم نبي الله هودٌ مبيناً لهم أن هذه الأصنام لا تضر من عابها ولا تنفع من عبدها، وبين لهم شدة توكله على ربه، وأنهم لو كادوه جميعاً وحاولوا ضره ولم ينتظروه ساعة ما ضره ذلك وقال متحدياً لهم: ﴿.. إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

(١) الآيات من (٥٠ - ٥٢) من سورة هود.

(٢) آية (٥٣) وجزء من آية (٥٤) من سورة هود

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾[١].

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي وانما يستحق اخلاص العبادة له وحده لا شريك له من بيده الملك وله التصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه[٢].

وقد ذكر الله قصة عاد في كثير من سور القرآن، فيها كيفية هلاكهم ونوع العذاب الذي أهلكوا به.

فقد ذكرت في سورة الشعراء، وفي سورة حٓم السجدة، وفي سورة الأحقاف، وفي سورة الذاريات، وفي سورة النجم، وفي سورة القمر، وسورة الحاقة، وسورة الفجر، وقد ذكر اسمه في القرآن وذكر قبيلته، وتكذيبهم له وما حل بهم من النكال والعذاب في سور كثيرة غير مبسوطة فيها قصتهم ذكر ذلك كله لينزجر به السامعون، وليعتبروا بحال هؤلاء المكذبين، وما لاقوا من العذاب الشديد حيث أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر.

فيجب على كل داع إلى الله أن يقتدي بهود عليه السلام في منهجه في دعوته وسلوكه مع قومه في الصبر على دعوتهم، والتوكل على الله، وتبليغه لهم رسالة ربه ونصحه لهم، كما يجب على المدعوين أن يعتبروا بحال قوم هود لما كذبوا نبي الله وأعرضوا عن دعوته ولم يستجيبوا لما سمعوه من الحق

---

(١) جزء من آية (٥٤) وآية (٥٥ ـ ٥٦) من سورة هود.

(٢) طالع تفسير ابن كثير عند آيات هود هذه .

والنصيحة، ويحذروا ما أصابهم من الهلاك في الدنيا وما سيصيبهم في الآخرة، فنتيجة العقل: الاعتبار بالغير والنظر في عواقب الأمور، والا لم تكن للإنسان الذي خص بالعقل فائدة على غيره من الحيوانات التي لا تعقل إ.هـ.

أسلوب هود عليه السلام:

إن هوداً عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم بذل كل ما في وسعه في دعوة قومه واستعمل الكثير من الأساليب في دعوته لقومه ليهتدوا إلى سواء السبيل، ولكن القوم لخبثهم وشدة كفرهم قابلوا ذلك بالعناد له والسخرية منه والاستهزاء والاعجاب بما أعطاهم الله من قوة في الأجسام حتى أهلكهم الله على كفرهم وجعلهم آية لمن بعدهم.

وقد بين القرآن الكريم كيف كانت أساليب هود مع قومه في سور كثيرة نقتصر على البعض من ذلك إن شاء الله.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ

ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ
فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]

في هذه الآيات استعمل نبي الله هود عليه السلام كثيراً من الأساليب في دعوته لقومه.

١ ـ ففيها الأمر الصريح حيث قال لهم أولاً اعبدوا الله، فقد استعمل اسلوب الطلب.

٢ ـ وفيها الخبر الصريح حيث قال: ما لكم من إلـه غيره فقد استعمل أسلوب الخبر.

٣ ـ وفيها الاستفهام حيث قال: ﴿**أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾.

٤ ـ وفيها النفي الصريح حيث نفى عن نفسه الضلالة.

٥ ـ وفيها أسلوب الحوار.

فإن سبعاً من الآيات المذكورة وردت على سبيل الحوار بينه وبين قومه في حوار لطيف مع أولئك الكفرة ونصيحة وموعظة حسنة.

فانظر حيث يقول له الملأ من قومه: ﴿**إِنَّا لنرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذِبِينَ**﴾ فماذا كان الرد؟

---

(١) من آية (٦٥ إلى ٧٢) ن سورة الأعراف.

كان الرد أن أخبرهم بحكمة أن دعواهم كذب ونفي عن نفسه ما نسبوه اليه وأثبت رسالة ربه له: **﴿يا قوم لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ولَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ أبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وأنا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ﴾** وأخبرهم أن إرسال رجل منهم ليس بعجيب فإن الله تعالى يعلم حيث يجعل رسالته، وعلم أني أهل لهذه الرسالة دونكم فأعطانيها وكرر عليهم التذكير بنعم الله زيادة في التقرير لأن ذكر النعم سبب باعث على شكرها، وقد أنكروا عليه دعوته لهم إلىٓ عبادة إله واحد، وذلك لأنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم على خلاف ما يدعوهم إليه من التوحيد، وكان من جهلهم أن استعجلوا العذاب الذي كان هود يهددهم به فقالوا له: ﴿.. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾[1]

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ..﴾[2]

عبر عن المتوقع بالواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه، وقيل إن معنى وقع وجب، والرجس العذاب، وقيل: الرين على القلب بزيادة الكفر[3].

ثم أنكر عليهم بأسلوب الاستفهام ما وقع منهم من محاورته ومجادلته بالباطل فقال: بأسلوب لطيف ﴿ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ...﴾[4]

فعبر عن المسميات بالأسماء لأن المسميات تسميتها بالآلهة باطلة فهي إذا أسماء دون مسميات، سميتموها أنتم وآباؤكم وهي لا حقيقة لها ما نزل الله بها من سلطان أي من حجة تحتجون بها على ما تدعونه من الدعاوى الباطلة.

---

(١) جزء من آية (٧٠) من سورة الأعراف.

(٢) جزء من آية (٧١) من سورة الأعراف.

(٣) أنظر فتح القدير للشوكاني هنا عند آيات الأعراف هذه.

(٤) جزء نم آية (٧١) من سورة الأعراف.

٦ ـ ثم عدل عليه السلام إلى اسلوب الوعيد فتوعدهم بأشد وعيد فقال:

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾[1]

أي انتظروا ما طلبتموه من العذاب فإني منتظر وقوعه بكم وهو واقع بكم لا محالة ونازل.

ثم أخبر الله عما وقع بهم من الهلاك، وعن نجاة نبيّه عليه السلام، ثم أعاد لهم الأسلوب في سورة هود.

٧ ـ والتكرار أسلوب من أساليب الدعوة لأنه يزيد الأمر بياناً ووضوحاً، ولهذا ذكر الله قصص كثير من الأنبياء مكررة لترسخ قصصهم في النفوس، ولتتضح للناس فتارة يذكر القرآن القصة مبسوطة في محل ثم يذكرها في محل آخر موجزة، ولكن لا بد أن يكون هناك تغاير في الأسلوب وزيادة معنى في موضع على الموضع الآخر كما هنا: فقد ذكرت القصة في سورة هود بأوسع مما في سورة الأعراف.

ففي سورة هود أخبر قومه بأنهم مفترون على الله في دعواهم الآلهة معه، كما أخبرهم فيها أنه لا يطلب اجراً على التبليغ، وإنما يطلب الأجر من الله.

٨ ـ واستعمل في هود أيضاً أسلوب الترغيب كما تقدم.

كما تكررت القصة في سورة الشعراء، وتغايرت الأساليب أيضاً، فقد أمرهم بتقوى الله أمراً صريحاً في سورة الشعراء حيث قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونَ﴾.

كما أنكر عليهم طول أملهم في الحياة وبنيانهم مصانع في الجبال كأنهم

---

(١) جزء من آية (٧١) من سورة الأعراف.

مخلدون في الدنيا، أو يرجون الخلود فيها[1].

كما لفت أنظارهم إلى أن الذي أمدهم بالأنعام وبالبنين والبساتين والعيون التي تجري فيها يجب أن يتقوه ويحذروا عذابه حيث قال: معيداً الأمر بتقوى الله: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾[2]

هكذا كانت أساليب هود في دعوته كان يبين لقومه أنه نصوح لهم وشفيق عليهم من عذاب الله، وأنه لا يطلب أجراً على ذلك إلا من الله، ولا يطلب من ورائه رئاسة دنيوية، ولا تطاولاً عليهم كما كان يأمرهم بتقوى الله وطاعة نبيه، وكان أيضاً يرغبهم في الإيمان والتوبة والاستغفار ولما علم أنهم يركنون إلى الدنيا أخبرهم أنهم أن آمنوا زادهم الله قوة وبسط عليهم الخير وأنزل عليهم المطر فيزرعون وترعى مواشيهم، ولكن قومه غلبت عليهم الشقوة فلم ينفع فيهم ذلك كله وقالوا له: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ

---

(١) انظر فتح القدير جـ ٤ ص ١٠٩ ـ ١١٠ ط مصطفى البابي الحلبي.

(٢) الآيات من (١٢٣ ـ ١٣٥) من سورة الشعراء.

﴿... ٱلۡوَٰعِظِينَ ۝١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣٧﴾[1].

أي قالوا ما هذا الذي جئتنا به الا أخلاق الأولين، على قراءة من قرأ خلق بفتح الخاء وسكون اللام، كما قال مشركو قريش: ﴿.. أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾[2]

وعلى القراءة الثانية خلق الأولين بضم الخاء واللام يكون المعنى: ما هذا الذي نحن عليه إلا دين الأولين فهو دين الآباء والأجداد ونحن تابعون لهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾[3].

قال عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء:

إن القارىء لقصة هود عليه السلام مع قومه يخيل إليه أنه يرى إنساناً وقوراً رزيناً يزن الكلام قبل القائه، يتجلى الاخلاص وحسن النية على قسمات وجهه، وهو لا يقابل الشر بمثله، بل لا يفارقه استعمال اللين في كلامه مع قومه، انظروا الى قولهم له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦٦﴾[4].

ثم ماذا كان جوابه؟ كان جوابه أن قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾[5].

---

(١) جزء من آية (١٣٦ وآية ١٣٧) من سورة الشعراء.

(٢) جزء من آية (٥) من سورة الفرقان.

(٣) آية (١٣٨) من سورة الشعراء.

(٤) جزء من آية (٦٦) من سورة الأعراف.

(٥) جزء من آية (٦٧) وآية (٦٨) من سورة الأعراف.

فمن تأمل هذا الجواب وجده في غاية الروعة وحسن الخلق والتلطف في اسداء النصيحة الخالصة من شوائب جرأى منفعة[1] إ . هـ.

معجزة هود عليه السلام:

إن معجزة نبي الله هود عليه السلام من نوع معجزة اخيه نوح عليهما وعلي محمد وسائر الأنبياء والرسل أفضل الصلاة والتسليم. وذلك لأنه تحدى قومه أيضاً وهو فريد وحيد، تحداهم وأمرهم أن يكيدوه جميعاً بدون أن يتخلف منهم أحد عن ذلك، وأمرهم ألا ينظروه لحظة واحدة، ولا يقدح فى هذه المعجزة العظيمة قول قومه: ﴿ **يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ** . . ﴾ لأن ذلك من فرط عنادهم وشدة جهلهم، وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات. قال تعالى حاكياً عنهم مقالتهم هذه وموضحاً هذه الآية العظمى لنبيه هود: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾[2].

فقد بين لهم في هذه الآيات عظم توكله على ربه جل وعلا وشدة براءته

---

(١) قصص الأنبياء للنجار ص ٥٦.

(٢) جزء من آية (٥٣) من سورة هود.

من الأوثـان وتحداهم غـاية التحـدي بأن يضـروه بأي سـوء وأمرهم الا يمهلوه لحظة واحدة .

هذه معجزة هود عليه السلام وأعظم بها من معجزة فإن إنســانـاً واحـداً يتحـدى أمة كـاملة أخبر الله جـل وعلا أنـه لم يخلق مثلها في البـلاد كما قـال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾[1] .

وقال تعالى عنهم : ﴿ . . وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . . ﴾[2]

وقد تحداهم هود غاية التحدي مع مالهم من القوة والسطوة وإعجابهم بقوتهم ولم يستطيعوا ضره بقليل ولا كثير فعصمته منهم هي معجزته .

من قال بذلك :

١ ـ قال الصاوي (في حاشيته على الجلالين) عند تفسيـر آية هـود هذه ما نصه : ـ

قوله : ﴿ببينة﴾ أي معجزة ، وكانت معجزته التي قامت بها الحجة عليهم ما يأتي في قوله : ﴿ . . . فَكيـدُوني جَميعاً ثُمَّ لا تُنْظِرونِ﴾ فعصمته منهم هي معجزته[3] وقد تقدم أن الريح وان كانت معجزة إلا أنهـا ليست لاقامـة الحجة عليهم ، وإنما هي سبب في هلاكهم والله تعالى أعلم .

٢ ـ وقـال أبـو السعـود في تفسيـر آيـات هـود هـذه عنـد قـولـه تعـالى : ﴿فَكِيدوني جَميعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ ما نصه : *

---

(١) آية (٦) و(٧) من سورة الفجر .

(٢) جزء من آية (١٥) من سورة فصلت .

(٣) أنظر حاشية الصاوي على الجلالين جـ ٢ ص ٢٠٤ المصدر السابق .

أي إن صح ما لوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على اضرار من ينال منها ويصدُّ عن عبادتها ولو بطريق ضمني، فإني بريء منها فكونوا أنتم معها جميعاً، وباشروا كيدي ولا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك. فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا وعلى البراءة كليهما، وهذا من أعظم المعجزات فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد، وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادىء المضادة والمضارة وحثهم على التصدي لأسباب المعازة فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً كيف لا؟ وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال:

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم .. ﴾[1]

يعني انكم وان بذلتم في مضارتي مجهودكم لا تقدرون على شيء مما تريدون بي فإني متوكل على الله تعالى. وإنما جيء بلفظ الماضي لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام - وواثق بكلاءتي وحفظي من غوائلكم وهو مالكي ومالككم لا يصدر عنكم شيء، ولا يصيبني أمر إلا بإرادته ومشيئته، ثم برهن عليه بقوله: ﴿ .. مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ .. ﴾[2]

اي إلا هو مالك لها قادر عليها بصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه، فإن الأخذ بالناصية تمثيل لذلك ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره.[3]

٣ - وقال الحافظ ابن كثير:

---

(١) جزء من آية (٥٦) من سورة هود.

(٢) جزء من آية (٥٦) من سورة هود.

(٣) طالع تفسير أبي السعود جـ ٣ ص ٢٩ المصدر السابق.

وهـذا وحده بـرهان قـاطع على أن هـوداً عبد الله ورسـوله، وأنهم على جهـل وضلال في عبـادتهم غير الله لأنهم لم يصلوا اليـه بسـوء ولا نـالـوا منـه مكروهاً، فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليـه وفساد مـا ذهبوا اليه .

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قـوله: ﴿.... **يقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بـآيات الله فعلى الله تـوكلت فأجمعـوا أمـركم وشـركـاءكم ثم لا يكمن أمـركم عليكم غمـة ثم اقضـوا إلي ولا تنظرون**﴾[1] اهـ .

---

(١) طالع البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٢٤ ط ٢ مكتبة المعارف بيروت .

الفصل الثالث

صالح عليه السلام

من هو صالح ؟

هو صالح بن عبد الله بن ملسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح[1] .

وقد أرسله الله إلى قومه ثمود وهم قبيلة مشهورة يقال لهم ثمود سموا باسم جدهم ثمود أخي جديس من ذرية سام بن نوح، ومساكنهم بمدائن الحجر بين تبوك والمدينة[2] . وكان هؤلاء بعد عاد قوم هود كما بين ذلك القرآن حيث يقول حاكياً عن صالح يخاطب قومه : ﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ... ﴾[3] .

وكان منهجه عليه السلام في دعوته لما بعثه الله رسولاً إلى قومه : هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وطرح عبادة الأوثان. ولما دعا صالح قومه إلى الإيمان بالله آمن به البعض منهم، وكفر به جمهورهم وآذوه وهموا بقتله، وعقروا الناقة التي جعلها الله آية على صدقه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١ المصدر السابق .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير جـ ١ ص ١٤٥ .

(٣) جزء من آية (٧٤) ن سورة الأعراف .

وقد بين القرآن الكريم قصته عليه السلام مع قومه، وكيفية هلاكهم وسوء عاقبتهم ورد كيدهم في نحورهم لما هموا بقتله عليه السلام حين تقاسموا بالله ليبيتنه وأهله، ثم ليقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون .

فمكر الله بهم لما أرادوا المكر بنبيه، وقد تكررت قصته في كثير من سور القرآن، تارة مبسوطة، وتارة موجزة، والأغلب أنه كلما ذكرت قصة صالح عليه السلام ذكر العذاب الذي أصاب قومه .

منهجه في دعوته :

لم يختلف منهج نبي الله صالح عن مناهج اخوانه من الأنبياء لأن المناهج العامة للأنبياء لا تختلف لأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى التوحيد واحدة، وإنما يختلفون في الشرائع فقط كما قدمنا أن الرسل أبناء علات دينهم واحد وصالح عليه السلام دعا إلى الله وإلى الإيمان بنبيه صالح، وأخبر قومه أنه لا إله لهم غير الله فأمرهم بتوحيده وإفراده بالعبادة وحده، كما أمرهم بنبذ الأصنام، ورغبهم ورهبهم وبلغهم رسالة ربه .

قال تعالى في شأنه مع قومه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[1] .

فنبي الله صالح عليه السلام أول شيء دعاهم إليه لما أرسله الله إليهم :

---

(١) آية ٧٣ من سورة الأعراف .

هـو توحيـد الله تعالى كغيـره من سـائـر الأنبيـاء، فقـال لهـم: ﴿ اعبـدوا الله ﴾ فأمرهم بعبادته تعالى وأخبرهـم أنه لا إله لهم إلا هو.

وهذا في معنى التعليل لعبـادة الله لأنهم إذا لم يكن لهم إله غيـره وجب عليهم أن يفردوه بالعبادة ويتركوا ما سواه من الأوثان ويعلمـوا أنها ليست بـآلهة وأنهـا لا تضر ولا تنفـع، ولذلـك لا تستحق أن تعبد، وإنمـا الذي يستحق أن يعبد هو من بيده الضر والنفع.

وأخبرهم أن هذه الناقة بينـة واضحة على صـدقه وحـذرهم أن يمسوهـا بسوء. ولما قرر لهم صالح نبوته وأثبتها لهم بالأدلة القاطعة قال الملأ من قـومه للذين آمنوا مع صالح كما حكى القرآن الكريم: ﴿ ... أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾[2].

---

(١) جزء من آية (٧٥) والآيات (٧٦ الى ٧٩) من سورة الأعراف.

(٢) آية (٦١) من سورة هود.

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[١] .

وخلاصة القول إن صالحاً عليه السلام دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده، ونصح لهم وذكرهم بآيات الله، وأقام لهم الأدلة القاطعة على صدقه في دعوته .

ولكن قومه أبدوا غاية الجحود والعناد والكفر وتحدوه فقالوا له : ﴿ **آئتنا بما تَعِدُنا إنْ كُنْتَ مِنَ المُرْسَلين** ﴾ واستحبوا العمى على الهدى وجحدوا بآيات الله وعصوا رسوله فأخرج الله إليهم ناقة عشراء من صخرة صماء. آية لهم على صدق نبيه، ونهاهم عن التعرض لها بسوء فأبوا واستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة، وعقروا الناقة فأخذهم الله بعذابه في الدنيا وعنده لهم في الآخرة ما هو أعظم إ. هـ.

وقد ذكرت قصة صالح في سور كثيرة غيرما ذكرنا .

فقد ذكرت مبسوطة في سورة الشعراء، وذكرت غير مبسوطة في سورة القمر، وسورة فصلت، وسورة الشمس، وسورة الحجر، والذاريات، وسورة النجم، وسورة الحاقة .

كل هذا للعبرة بهذه القصة العظيمة فقد تكررت في القرآن الكريم ليعتبر بها ذوو العقول ويتعظوا كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ .. ﴾[٢]

---

(١) آية (٤٥) من سورة النمل .

(٢) جزء من آية (١١١) من سورة يوسف .

فمن تأمل مصير هؤلاء في الدنيا وما يؤول إليه أمرهم في الآخرة صدق الرسل فيما جاءوا به .

قال في المنار: وقد علمنا من سنة القرآن وأساليبه في قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرة والموعظة ببيان سنة الله تعالى في البشر وهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام، لا حوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان أو أنواع الأعمال، وقد حكى هنا عن صالح عليه السلام أنه ذكر الآية التي أيده الله بها عقب تبليغ الدعوة، وفي قصته من سورة هود أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته وتصريحهم بالشك في صدقه، وزاد في سورة الشعراء طلبهم الآية منه، وكل ذلك صحيح ومراد وهو المسنون المعتاد[1] اهـ .

أسلوب صالح عليه السلام في دعوته :

إن نبي الله صالحاً عليه وعلى جميع الرسل أفضل الصلاة والتسليم، استعمل مع قومه ثمود كثيراً من أساليب الدعوة .

فقد استعمل معهم أسلوب الترهيب فحذرهم من عذاب الله تعالى وأنذرهم بأسه، هذا بعد أن أمرهم بتصديقه والإيمان بما جاء به من عند ربه من التوحيد، وأتاهم ببينة دالة على صدقه فنهاهم عن مسها بأي سوء . وأخبرهم أنهم إن فعلوا أخذهم الله بعذاب أليم، كما كان يلفت أنظارهم إلى النعم التي أنعم الله عليهم بها حيث بوأهم ديار عاد بعد هلاكهم، وأنعم عليهم بكثير من نعمه حيث كانوا يتخذون من الجبال بيوتاً يسكنونها ينحتونها نحتاً، ويتخذون من سهول الأرض بيوتاً كذلك يسكنون فيها. وكان ينهاهم عن الفساد في الأرض بالمعاصي والكفر.

وكان يوجه أنظارهم إلى مبدأ نشأتهم، وأن الله الذي أوجدهم هو الذي

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ٥٠١ .

يستحق العبادة، وأن أول وجودهم من هـذه الأرض التي يمشون عليها ويبنون فيها القصور وينحتون جبالها حيث خلق أباهم آدم منها واستعمرهم فيها أي أعمرهم فيها ديارهم، ثم هو وارثها منهم إذا انقضت أعمارهم أو المراد جعلهم معمرين ديارهم فيها لأن الرجل إذا ورث من بعده داره فكأنما أعمره إياها لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره[1] .

وقيل: استعمركم فيها أي جعلكم عمارها وسكانها من قولهم أعمر فلان فلاناً داره فهي له عمرى فتكون استفعل بمعنى أفعل مثل استجاب بمعنى أجاب، وقيل معناه أطال أعماركم فيها، وقيل معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار. كما كان صالح عليه السلام يأمر قومه بالتوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب ويرغبهم في ذلك، وكان يخبرهم أن ربه قريب ممن دعاه مجيب له .

ولكن نبي الله صالحاً كان ينادي أقواماً عمياً عن رؤية الحق صماً عن سماعه غلبت عليهم الشقوة، فأنكروا عليه نهيه لهم عن عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه من الأصنام، وأخبروه أنهم في شك موقع لهم في الريبة من دعوته التي قدمها إليهم، وقالوا له: ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾[2]

أي كانت تلوح فيك مخائل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوك لننتفع بك، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا منك، وعلمنا أن لا خير فيك، وقيل: المعنى كنا نرجوك أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه[3] .

ولما قالوا مقالتهم هذه كان جوابه في غاية الروعة ولين الجانب فقال :

---

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٨ المصدر السابق .

(٢) جزء من آية (٦٢) ن سورة هود.

(٣) طالع الكشاف في المرجع السابق نفسه .

﴿ ... يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ ﴾[1] .

أي يا قوم أرأيتم أن أتبعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعني عذابه ؟ فما تزيدونني غير تخسير أي تضليل وابعاد من الخير .

وإليك بعض الآيات التي استعرضت أساليب نبي الله صالح مع قومه من سورة الأعراف وسورة هود .

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[2] .

﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ

---

(١) جزء من آية (٦٣) من سورة هود .

(٢) الآيات (٧٣ ـ ٧٤)من سورة الأعراف .

عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ
لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ
فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا
تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾
وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ
ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ
﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن
لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾[2].

---

(١) الآيات من (٧٣ إلى ٧٩) من سورة الأعراف.
(٢) الآيات من (٦١ - ٦٨) من سورة هود

ففي هذه الآيات أوضح لنا القرآن الكريم كيف كان نبي الله صالح يدعو قومه، ويبين لنا الأساليب التي كان يستعملها معهم، كما بينت الآيات مدى كفر هؤلاء القوم وطغيانهم وتمردهم على الله تعالى .

ويكفي ما في هذه الآيات لمن تأملها فقد ذكر الكثير من شأن هذا النبي الكريم فيها وما استعمله في سبيل: نجاح دعوته لقومه من الوسائل والأساليب والمناهج ، وإلا فإنه ذكرت قصته في سور من القرآن كثيرة ا . هـ.

معجزة صالح عليه السلام :

إن معجزة صالح عليه السلام معجزة مشهورة كشهرة الشمس والقمر، ويروي المفسرون والمؤرخون القصة المشهورة وهي : أن ثمود اجتمعوا في ناديهم وجاءهم صالح فدعاهم إلى الله فقالوا له : إن أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة : ناقة من صفتها كيت وكيت آمنا بك، وأخذ عليهم المواثيق أنه إن فعل آمنوا به، وقام إلى مصلاه ودعا الله فأجاب دعاءه فخرجت لهم ناقة كما وصفوا دليلاً قاطعاً وبرهانا ساطعاً على صدقه فآمن به بعضهم وبقي الكثير منهم على كفره(١) .

ويكفي في اثباتها ما ذكره الله في سور كثيرة من كتابه مصرحاً بأن هذه الناقة آية على صدق صالح تارة، وتارة يذكر أنها بينة على صدقه

قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قَالَ يا قَوم آعْبُدوا الله مَالَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نـاقَـةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً . . . . ﴾ .

وقال في سورة هود: ﴿ . . . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل

---

(١) ذكر هذه القصة ابن كثير في البداية والنهاية جـ ١ ص ١٣٤ المصدر السابق ورواها الزمخشري في كشافه مطولة جـ ٢ ص ٨٩ المصدر السابق .

في أرض الله ولا تمسوها بسوء . . . ﴾ .

وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ . . . وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ . . . ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ . . . قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾[2] .

إلى غير ذلك من المواضع التي ذكرت فيها هذه الآية العظيمة مثل سورة القمر، وسورة الشمس، وغير ذلك .

وقد ذكر الله كيفية إهلاكهم في سور أخرى مثل سورة الحاقة، والذاريات، وغير ذلك ولشهرة هذه المعجزة وكثرة دورانها في القرآن وكثرة كلام المفسرين عليها اكتفينا بهذا القدر من شأنها ومن أراد الزيادة فليراجع من كتب التفسير ما شاء .

---

(١) جزء من آية (٥٩) ن سورة الاسراء .

(٢) الآيات من (١٥٣ إلى ١٥٦) من سورة الشعراء .

الفصل الرابع

موسى عليه السلام

من هو موسى ؟

هو: موسى بن عمران بن قاهت بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام[1] .

وكان رسولاً نبياً، وناداه الله من جانب الطور الأيمن وقربه نجياً ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً، وقد ذكر الله قصته في مواضع كثيرة من القرآن مبسوطة مطولة تارة وموجزة تارة .

منهجه عليه السلام في دعوته :

إن منهج موسى بن عمران كمنهج من سبقه من الرسل ومن تأخر عنه منهم حيث كان يجمعهم هدف رئيسي هو: الدعوة إلى توحيد الله تعالى كما قال جل ثناؤه : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ .

وكان لموسى حظه من هذا الهدف العظيم فقد دعا إلى توحيد الله تعالى كما حكى لنا القرآن الكريم ذلك قال تعالى :

---

(١) البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٣٧ المصدر السابق .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ[1] بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2]

وقد بين أبو حيان أن هذا الميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء على لسان نبي الله موسى عليه السلام، وعلى ألسنة غيره من أنبياء بني إسرائيل ونسب هذا القول لابن عطية، وضعف القول القائل بأن هذا الميثاق أخذ عليهم وهم في أصلاب أبائهم كالذر كما قاله مكي قال:

هذه الآية مناسبة للآيات الواردة قبلها في ذكر توبيخ بني إسرائيل وتقريعهم وتبيين ما أخذ عليهم من ميثاق العبادة لله وحده وإفراده تعالى بالعبادة وما أمرهم به من مكارم الأخلاق من صلة الأرحام والاحسان إلى المساكين.

والمواظبة على ركني الإسلام: البدني والمالي، ثم ذكر قولهم عن ذلك ونقضهم لذلك الميثاق على عادتهم السابقة وطريقتهم المألوفة.

وإذ معطوف على الظروف السابقة قبل هذا، والميثاق هو الذي أخذه تعالى عليهم في صلب أبائهم كالذر قاله مكي، وضعف بأن الخطاب قد خصص ببني إسرائيل وميثاق الآية فيهم، أو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم قاله ابن عطية، وقيل هو ميثاق أخذ عليهم في التوراة بأن يعبدوا الله[3].

---

(١) الميثاق مفعال من التوثيق باليمين ونحوها من الأمور التي تؤكد بالقول وأصله مِوْثاق سكنت الواو بعد كسرة فقلبت ياء فمعنى الكلام، واذكروا يا معشر بني اسرائيل إذ أخذنا ميثاقكم لا تعبدون إلا الله، انظر ابن جرير هنا.

(٢) آية (٨٣) من سورة البقرة.

(٣) البحر المحيط جـ ١ ص ٢٨٢ المصدر السابق.

وعلى أية حال: إما أن يكون الميثاق أخذ عليهم في التوراة فالأمر واضح، فموسى عليه السلام دعا بني إسرائيل إلى إفراد الله بالعبادة وحده، وأما أن يكون أخذ عليهم في غير التوراة على لسان موسى وغيره من أنبيائهم فإن الآية تدل على أنه دعا بني إسرائيل لعبادة الله وحده.

وقال الألوسي: وهذا الميثاق: ما أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام، أو ميثاق أخذ عليهم في التوراة وقول مكي إنه ميثاق أخذ عليهم وهم في أصلاب آبائهم كالذر لا يظهر وجهه هنا[1].

وقد ذكر المفسرون أوجهاً كثيرةً في معنى قوله: ﴿ **لا تَعبُدونَ إلاَّ اللَّهَ** ﴾ وفي توجيه إعراب الجملة[2].

والمقصود عندنا أن نقيم الدليل على أن موسى أمر قومه بعبادة الله وحده، وذلك لأن الغالب في القرآن أنه إذا ذكر فيه إرسال رسول إلى قومه أتبع ذلك بأمر الرسول لقومه بعبادة الله أمراً صريحاً تلو الرسالة فوراً، وموسى عليه السلام لا شك أن له الحظ الوافر من ذلك النوع من الدعوة، ولكني إلى الآن بعد استعراض قصته في القرآن لم أجد الأمر الصريح كما قال في نوح: ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله** . . . ﴾ وفي هود ﴿ **وإلى**

---

(١) انظر روح المعاني جـ ١ ص ٣٠٧ .

(٢) وأظهرالأوجه التي ذكروا في ذلك عندي أنه خبر بمعنى النهي لأن ذلك أبلغ من صريح النهي لما فيه من ايهام أن المنهى كأنه سارع الى الكف عن المنهى عنه حتى أخبر عنه بالحال أو الماضي أي ينبغي أن يكون كذلك، ويؤيده قراءة ابن مسعود: لا تعبدوا وكذلك المعطوفات عليه كلها أوامر: وبالوالدين احساناً: أي احسنوا إليهم احساناً وقولوا للناس حسناً، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، انظر روح المعاني هنا .

وقد ذكر أبو حيان أوجهاً عديدة في توجيه هذه الجملة أعرضنا عن ذكرها، ومن جملتها الوجه الذي ذكرنا.

عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله . . . ﴾ .

وفي صالح : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله . . . ﴾ .

وفي شعيب : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[1]

وقال في إبراهيم : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ . . . ﴾[2] .

وقال في عيسى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[3] .

وقال تعالى في شأنه : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾[4] .

قال أبو حيان : قال ابن عطية : معناه قل لهم ، فجمع في هذه العبارة من المعاني نفي التقوى عنهم وأمرهم بالتقوى ، فانظره عند تفسير آية الشعراء هذه[5] .

فعلى هذا يكون موسى أمر قومه بعبادة الله وحده لأن توحيد الله يدخل في الأمر بتقوى الله دخولاً أولياً بلا شك .

وهذا التفسير ذكره ابن جرير فقال : ومعنى الكلام : قوم فرعون فقل لهم ألا تتقون ، وترك اظهار فقل لهم لدلالة الكلام عليه[6] .

---

(١) آية (٨٤) من سورة هود .

(٢) جزء من آية (١٦) ن سورة العنكبوت .

(٣) جزء من آية (١١٧) من سورة المائدة .

(٤) آيتي (١٠ ـ ١١) من سورة الشعراء .

(٥) جـ ٧ ص ٧ المصدر السابق .

(٦) تفسير ابن جرير جـ ١٩ ص ٦٤ المصدر السابق .

وقيـل المعنى قـل لهم ألا تتقـون، وجـاء بـاليـاء لأنهم غيب وقت الخطاب[١] فتحصل أن موسى أمر فرعون وقـومه بتقـوى الله المستلزمة لعبـادته وحده لا شريك له وطرح جميع الأصنام كما أمر بني إسرائيل بذلك أيضاً .

وقد تقدم الكلام في قوم موسى هل هم بنـو إسرائيل أو فرعون وقومـه ؟ وذكرت ما ظهـر لي في ذلك، وقـال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . . . ﴾[٢] .

وقد دلت هذه الآية أيضاً على دعوته إلى توحيد الله تعـالى فإن الاخـراج من ظلمـات الكفـر إلى نـور الإيمـان لا يتم إلا عن طـريق إفراد الله وحـده بالعبادة، والإقـرار له بـالعبوديـة. . . . أي أدعهم من الضلالـة إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان قاله ابن عباس[٣] .

والحـاصل أن المقصـود من البعثة واحـد في حق الرسـل جميعاً عليهم الصلاة والسلام وهـو أن يسعوا في إخـراج الخلق من ظلمات الضـلالات إلى أنوار الهدايات .

فهذه الآيات التي ذكـرت دلت على أن موسى دعـا قومـه إلى عبادة رب واحد، وإن كنت إلى الآن لم أعثر في القـرآن على الأمر الصـريح بصيغـة من صيغه المعروفة [٤] من مادة العين والباء والدال .

---

(١) طالع القرطبي عند تفسير هذه الآية جـ ١٣ ص ٩١ ط دار الكتب .

(٢) جزء من آية (٥) من سورة إبراهيم .

(٣) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٢ المصدر السابق .

(٤) وهي فعل الأمر، والمضارع المجزوم بلام الأمر واسم فعـل الأمر، والمصـدر النائب عن فعـل الأمـر نحـو أقـم الصـلاة، ولتكن منكم أمـة يـدعـون إلى الخيـر. . عليكم أنفسكم، فضـرب الرقاب .

ولما اتخذ بنو إسرائيل العجل إلهاً وقالوا: ﴿.. هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾[1].

قال لهم عندما رجع: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2].

أي ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الذي لا إله إلا هو الذي لا يستحق العبادة إلا هو وحده فإن كل شيء مفتقر إليه وعبد له أحصى كل شيء عدداً أحاط علمه بكل شيء.

وقد وردت قصة موسى في القرآن في سور كثيرة فقد ذكر اسمه في القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة، وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل بقصة نبينا محمد ﷺ من حيث إنه أوتي شريعة دينية دنيوية وكون الله به أمة عظيمة[3].

والناظر في قصة موسى عليه السلام يتبين من خلالها منهجه في دعوته، فقد كان يتصف باللين في الخطاب، ويكثر من الموعظة الحسنة، ويجادل قومه بالتي هي أحسن، وكان يتصف بالصفح والاعراض عن جهل قومه وسوء أخلاقهم.

منهجه في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة:

إن موسى عليه السلام علمه الله تعالى كيف يدعو فرعون وقومه فقد رسم له منهجاً يسير عليه في دعوته حيث يقول له آمراً له ولأخيه هارون: .. ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ

(١) جزء من آية (٨٨) من سورة طه.

(٢) جزء من آية (٩٨) من سورة طه.

(٣) انظر دعوة الرسل محمد أحمد العدوي ص ١٨١.

﴿... يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾[1] .

وقد امتثل هو وأخوه فعرضا الدعوة على فرعون بحكمة وموعظة حسنة كما أوضحت ذلك سورة النازعات في قوله تعالى : ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾[2] .

أي اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوقه، ويحتشد بأقصى وسعه .

وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة لئلا تكون له حجة كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ . . **أو يخشى** . . ﴾ أي يخشى أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره وجحوده إلى الهلكة[4] .

صبره وتوكله على ربه :

إن موسى عليه السلام رسم للدعاة منهجاً في الصبر والتوكل على الله تعالى في غاية الروعة فإنه لما ذهب ببني إسرائيل من مصر وتبعه فرعون

---

(١) آيتي (٤٣ - ٤٤) من سورة طه .

(٢) الآيات من (١٧ - ٢٠) من سورة النازعات .

(٣) الآية (١٣٤) من سورة طه .

(٤) طالع الكشاف عند تفسير آية طه هذه جـ ٢ ص ٥٣٨ المصدر السابق .

وجنوده حتى تراءا الجمعان جمع موسى وجمع فرعون وفزع قوم موسى لما يعلمون من تعذيب فرعون لهم وشدة سطوته وبأسه وكثرة جنوده وقالوا لموسى : إنا لمدركون، فهناك ظهر توكله على ربه وثقته فيه فزجر قومه مخبراً لهم أن ربه معه بحفظه ورعايته وأنه ما ذهب بهم من مصر إلا بأمر منه، وأنه سوف يهديه إلى ما فيه نجاتهم من عدوهم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾[1]

فموسى عليه السلام عندما اشتد الموقف وبلغ الخوف من قومه ما بلغ وعاينوا جيش فرعون الكثير ورأوا البحر تلتطم أمواجه أمامهم وتيقنوا الهلاك لأنهم يرون فرعون وجنوده وراءهم متبعين لهم يطلبونهم، ويرون البحر أمامهم، وهذا أمر في غاية الخطورة، ولكن عند ذاك ظهر توكل موسى على ربه وثقته به فقال لهم : ﴿ ... كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

أي لا يصل إليكم شيء مما تكرهون فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير بكم هاهنا وهو لا يخلف الميعاد .

ولما آمن سحرة فرعون برب موسى وبموسى ووقف فرعون مغلوباً مذموماً مدحوراً وهدد السحرة بقطع الأيدي والأرجل من خلاف والتصليب على جذوع النخل وبادر الملأ من قوم فرعون يحرضونه على موسى ومن آمن معه ويقولون له إنه يفسد في أرضه، ويعبد إلهاً غيره، وقال لهم فرعون إنه سيقتل أبناء قوم موسى ويستحيي نساءهم لتكثر المعرة فيهم ظهر هناك صبر موسى وتوكله على ربه حيث قال لقومه : ﴿ ... اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2]

---

(١) آيتي (٦١ - ٦٢) ن سورة الشعراء .

(٢) جزء من آية (١٢٨) من سورة الأعراف.

وقال تعالى حاكياً عنه أمره لقومه بالتوكل على ربهم : ﴿ . . . يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[1] .

وحاصل القول إن موسى عليه السلام نهج منهج اخوانه من النبيين من قبله فدعا قومه إلى عبادة الله وحده وتقوى الله والبراءة من الأصنام والطواغيت كما نهج منهجهم في الصبر على دعونه والتوكل على ربه جل وعلا إلى غير ذلك من المناهج التي اتخذها عليه الصلاة والتسليم .

أسلوبه في دعوته :

إن موسى عليه السلام نوع الأساليب في دعوته لقومه حرصاً على هدايتهم فقد كان يستعمل أسلوب الحوار تارة، وكان ينكر على فرعون وقومه تارة وينكر على بني إسرائيل ما كانوا يرتكبونه من الأمور المنكرة، كما كان يأمر قومه وينهاهم ويرغبهم ويحذرهم، ويذكرهم نعم الله عليهم إلى غير ذلك مما كان يستعمله من الأساليب في دعوته إلى ربه .

أسلوب الحوار :

إن الحوار من الأساليب التي استعملها موسى عليه السلام .

وذلك لأن الرسل بمقتضى أمانتهم وصدقهم لا بد أن يبلغوا عن الله رسالته، ويؤدوا الأمانة التي ائتمنوا عليها، فهم طرف، والطرف الآخر كفار ورثوا الكفر عن آبائهم وقلدوهم في كل شيء .

ومهمة الرسل هي انتزاع هؤلاء الكفار من كفرهم وتخليهم عن عقائدهم وعقائد آبائهم وأجدادهم، فبمقتضى ذلك كله دام الحوار بين الرسل وأقوامهم فقد حاور إبراهيم عليه السلام النمرود كما يأتي إن شاء الله، وحاور الكفار

---

(١) جزء من آية (٨٤) من سورة يونس .

رسل الله كما يأتي أيضاً في قوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ...﴾ الآيات .

وكل هذا الحوار بين رسل الله والأمم المكذبة موضوعه الدعوة إلى الله تعالى .

وقد بين لنا القرآن الكريم حوار موسى مع فرعون عدو الله في شأن دعوته له حيث يقول: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ

عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

سؤال فرعون عن رب العالمين يقتضي أن موسى دعاه إلى طاعة رب العالمين، ويدل لذلك أن الله قال لموسى وهارون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

فلا بد أن يكونا أخبراه أنهما رسولان من رب العالمين، ودعواه إلى طاعته، فهناك سأل فرعون عن رب العالمين ما هو؟

ولما كان فرعون لا يمكن اطلاعه على معرفة الله تعالى الا بآثاره في خلقه، وأظهر آثار خلق الله وأبرزها هو السماوات والأرض وما بينهما فلم يكن لسؤال فرعون جواب غير ما أجابه به موسى حيث قال له: ﴿... **رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنهما إنْ كُنْتُمْ مُوقِنين**﴾ أي إن كنتم موقنين باسناد هذه المحسوسات الى موجود واجب الوجود فهو رب العالمين الذي سألتم عنه.

ولما أجابه بهذا الجواب أبدى عدو الله العجب وكأنه أظهر لملائه ان الجواب غير مطابق للسؤال لأنه سأل عن ذات الله تعالى وأجابه موسى بتأثير تلك الذات في الخلق ﴿**قَالَ فِرْعَون**﴾ لمن حوله.. ﴿**ألا تَسْمَعُونَ**﴾ فأجابه موسى بما هو أقرب إلى الأذهان من الجواب الأول فقال له: ﴿**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمْ الأوَّلِين**﴾ فقد عدل عن التعريف بخالقية السماوات والأرض الى التعريف بكونه خالقاً لهم ولآبائهم، وذلك لأن السماوات والأرض بعظمهما ودوامهما لا يمتنع أن يعتقد أحد وجوب وجودهما لذاتهما واستغنائهما عن الخالق، ولكن لا يمكن أن يعتقد عاقل في أبيه وأجداده وجوب الوجود لأن

(١ ـ ٢) الآيات من (١٦ الى ٣٥) من سورة الشعراء .

المشاهدة شهدت بأنهم وجدوا بعد عدم، وعدموا بعد وجود، ولهذا عدل موسى إلى هذا التعريف لأنه أظهر، وكان جواب فرعون أن قال:

﴿... إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون﴾ يعني أن موسى عرفه على الله بالآثار الخارجية ولم يسأله عن ذلك فهو إذاً مجنون لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عليه، ثم أتى موسى بجواب ثالث فقال: ﴿... رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعدل الى طريق أوضح مما قبلها وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وذهاب النهار، وهذا يدل على أن هذا التدبير المستمر الدائم المتوازن الذي لا يتغير بطول الزمن لا يتم إلا بتدبير مدبر متصرف في هذا الكون وحده خالق له ومميت له، ثم ذيل موسى عليه السلام هذا الجواب بقوله: ﴿... إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُون﴾ أي إن كنتم من العقلاء علمتم أنه لا جواب لسؤالكم إلا ما أجبتكم به.

ولما عجز فرعون وقامت عليه الحجة عدل إلى التهديد فقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ﴾ فأجاب موسى بلين وحكمة: ﴿... أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي أتسجنني ولو جئتك بأمر واضح بيّن لا لبس فيه على أني رسول رب العالمين، وعلى أنه موجود واجب الوجود لذاته. فعند ذلك طغى على فرعون جهله فقال لموسى: ﴿... فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين﴾ أي إئت بهذا الشيء المبين الذي ذكرت أنه دليل لك على أنك رسول من رب العالمين وأن رب العالمين موجود.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

فلما رأى فرعون ذلك ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي

ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ إلى آخر القصة التي نصر الله فيها موسى وأخاه هارون حيث آمن السحرة بموسى (١)(٢).

أسلوب الانكار:

كان موسى عليه السلام ينكر على فرعون وقومه. كما كان ينكر على

---

(١) طالع تفسير الفخر الرازي عند هذه الآيات من سورة الشعراء بتصرف جـ ٢٤ ص ١٢٧ ـ ١٣٠ ط البهية الأولى.

(٢) قلت وقول ابن كثير عند تفسير هذه الآيات: ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا يعني قول فرعون وما رب العالمين ـ سؤال عن الماهية فقد غلط فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وان كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه غير ظاهرة عندي.

وذلك لأن فرعون مقرباً للصانع ولكنه جاحد ومغالط وهو يعلم في نفسه ان دعواه الربوبية كذب ومغالطة، وإنما ذلك كله تلبيس على قومه ومحافظة على منصبه وهيبته، ودليل ما قلنا: أن الله تبارك وتعالى صرح في آيتين من كتابه بأن فرعون إنما كان يعارض موسى ويكذبه ظلماً وعلواً وأنه متيقن للحقيقة ولكنه يغالط نفسه ويعمي على الغير، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ آيتي (١٣ ـ ١٤) من سورة النمل. وقد دلّ لما قلته كلام ابن كثير نفسه فإنه قال عند تفسير آية النمل هذه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ ما نصه: فلما جاءتهم آياتنا مبصرة أي بينة واضحة ظاهرة قالوا: ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين وجحدوا بها: أي في ظاهر أمهرم (واستيقنتها أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها (ظلماً وعلواً) أي ظلماً من أنفسهم سجية ملعونة وعلواً أي استكباراً عن اتباع الحق اهـ.

والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ آية (١٠٢) ن سورة الاسراء. فموسى عليه السلام أقسم في هذه الآية ان فرعون يعلم أن هذه الآيات أنزلها رب السموات والأرض الذي سأل عنه فرعون فكيف يقال انه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عنه بل كان جاحد الله بالكية فيما يظهر. وقد أوضح الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان هذا المعنى الذي ذكرنا، وأوضحه أبو حيان في البحر المحيط جـ ٦ ص ٨٦ وكذلك الألوسي جـ ٥ ص ٨٥ فانظرهم.

بني اسرائيل كلما رأى منكراً سواء كان صادراً من فرعون وأتباعه أو بني إسرائيل .

قال تعالى : مبيناً انكار موسى على فرعون وقومه لما قالوا ان الآيات التي جاءهم بها سحر:

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[1]

فهو يقول لهم منكراً عليهم، أتصفون الحق الذي جئتكم به من عند الله بأنه سحر؟ وكيف تكون هذه الحقيقة التي جئتكم بها سحراً؟ ولا يفلح الساحرون أي لا يفوزون، وقد اختار ابن جرير هذا المعنى وقال ان المقول من ناحية فرعون محذوف، وأن القول: ﴿ . . أَسِحْرٌ هٰذا . . . ﴾ من قول موسى، قال ما نصه :

وأولى ذلك بالصواب عندي أن يكون المقول محذوفاً، ويكون قوله ﴿ . . . أَسِحْرٌ هٰذا . . . ﴾ من قبل موسى منكراً على فرعون وملائه قولهم للحق لما جاءهم ﴿سِحْرٌ﴾ فيكون تأويل الكلام حينئذ: قال موسى لهم : ﴿ . . . أَتَقُولونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ . . . ﴾ وهي الآيات التي أتاهم بها من عند الله حجة له على صدقه ﴿سِحْرٌ﴾ أسحر هذا الحق الذي ترونه؟ فيكون السحر الأول محذوفاً اكتفاء بدلالة قول موسى. أسحر هذا على أنه مراد في الكلام[2].

وأما انكاره على بني إسرائيل فقد بينه الله في كتابه حيث قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾[3].

---

(١) آية (٧٧) من سورة يونس.

(٢) طالع تفسير ابن جرير جـ ١١ ص ١٤٥ المصدر السابق .

(٣) جزء من آية (٥) من سورة الصف.

كما أنكر على بني إسرائيل لما طلبوه أن يجعل لهم إلّهاً حين رأوا أقواماً يعكفون على أصنام يعبدونها وقالوا له: ﴿... يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾(١).

فوصفهم بالجهل انكاراً عليهم قولهم هذا وقال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾(٢).

فقد أخبرهم أن الله مهلك ما فيه هؤلاء من العمل. ومفسده ومعذبهم عليه. ثم يقول لهم عليه السلام: ﴿... أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً...﴾ أي سوى الله التمسكم إلّهاً وأجعله لكم معبوداً تعبدونه؟ والله الذي خلقكم ورزقكم فضلكم على عالمي زمانكم ودهركم أفأبغيكم معبوداً لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه وتتركون عبادة من فضلكم على أهل زمانكم؟ ان هذا لجهل عظيم(٣).

وقد أنكر عليه السلام على بني إسرائيل عبادتهم للعجل في غيبته لمناجاة ربه عز وجل لما صنع لهم السامري عجلاً جسداً له خوار فعبدوه وجعلوه إلّهاً وقالوا: هذا إلّهكم وإلّه موسى حين رجع إليهم أنكر ذلك عليهم غاية الانكار وأخبرهم أن الله وعدهم وعداً حسناً بأنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

---

(١) جزء من آية (١٣٨) من سورة الأعراف.

(٢) آيتي (١٣٩ ـ ١٤٠) من سورة الأعراف.

(٣) طالع ابن جرير جـ ٩ ص ٤٦ المصدر السابق.

قال تعالى مبيناً لنا ذلك: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾[1].

أي بسبب عبادتكم العجل وعكوفكم عليه وتركمكم السير في أثري للموعد الذي كان الله وعدكم .

كما أنكر على السامري ما فعله من تضليل بني إسرائيل بعبادتهم للعجل الذي صوره لهم وأمرهم بعبادته ، قال تعالى في شأن ذلك: ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾[2]

أي ما شأنك يا سامري؟ وما الذي دعاك إلى ما فعلت. إلى غير ذلك من أساليبه الكثيرة في سور القرآن وقد أعطينا للقارىء منها برنامجاً يعتبر به ويهتدي به في طريق دعوته ا هـ .

معجزات موسى عليه السلام:

إن موسى عليه الصلاة والسلام أيده الله بمعجزات كثيرة تدل على صدقه وتقيم الحجة على قومه، وقد صرح القرآن بأن الله أيده بتسع آيات وإن كان العلماء اختلفوا في تعيينها كما يأتي ان شاء الله. قال تعالى في سورة

---

(١) الآيات من (٨٣ ـ ٨٦) من سورة طه .

(٢) آية (٩٥) ن سورة طه .

الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾[1].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[2].

اختلاف العلماء في تعيين هذه الآيات:

اختلف العلماء في تعيين هذه الآيات فبعضهم عد منها ما لم يعده البعض الآخر، وذلك لأن الله أعطى نبيه موسى آيات كثيرة منها ما هو بمصر مع فرعون وقومه، ومنها ما هو بعد عبوره ببني إسرائيل البحر ومدتهم في التيه.

والحاصل أن الله بعث نبيه موسى بتسع آيات وهي الدلائل القاطعة على نبوته وصدقه فيما أخبر به عن من أرسله إلى فرعون وهي:

العصا، اليد، السنون، فلق البحر، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدمر، هذا قول ابن عباس.

وقيل: اليد، العصا، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، الطمس، الحجر ونسب هذا القول لمحمد بن كعب القرطبي.

وقيل: العصا، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد والقمل،

---

(١) آية (١٠١) من سورة الإسراء.

(٢) آية (١٢) من سورة النمل.

والضفادع والدم، ونسب هذا القول لابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة، واستظهر ابن كثير هذا القول وحسنه وقواه، وقد جعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة، والتاسعة عنده: تلقف العصا ما يأفكون[1] فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ...﴾

إلى قوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾[2].

فذكر القرآن هاتين الآيتين هنا: العصا، واليد، وبين الآيات الباقية في سورة الأعراف وفصلها.

وقد أعطى موسى آيات أخرى كثيرة منها: ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وانزال المن والسلوى وغير ذلك مما أعطاه الله بني إسرائيل على يد موسى عليه السلام بعد مفارقتهم مصر ولكن الآيات التي ذكرناها شاهدها فرعون وقومه فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.. فهذا كله يدل على أن المراد بالتسع الآيات ما تقدم ذكره من العصا واليد، والسنسن، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه وخوارق ودلائل

---

(١) قلت: قول الحسن: ان السنين ونقص الثمرات آية واحدة وجيه عندي لأن القحط المعبر عنه بالسنين يستلزم نقص الثمرات بلا شك، أما قوله أن تلقف العصا لما يأفكه سحرة فرعون آية مستقلة فغير وجيه عندي لأن تلقفها واهتزازها كأنها جان وانقلا بهاحية تسعى كل ذلك معجزة واحدة تتعلق بالعصا والله أعلم.

(٢) جزء من آية (١٠ وآية ١٢) من سورة النمل.

صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله[1].

فابن كثير رحمه الله صرح في آخر كلامه بأن الآيات التسع هي: العصا واليد، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وفي أول كلامه قال: بأنه قول ظاهر جلي قوي وحسن.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه آية العصا واليد في سور كثيرة بأساليب مختلفة.

فقد ذكرت في سورة طه، والأعراف، وذكرت العصا في سورة الشعراء، وذكرتا في سورة النمل وسورة القصص الى غير ذلك لأنهما من أعظم معجزات موسى عليه السلام.

فهذه العصا التي تفتح فاها وتلقف الحبال والعصيّ وتارة تكون جانا أي نوعاً من الحيات شديد السرعة كثير الاضطراب، وتارة تكون حية عادية. وهذه اليد التي يدخلها في جيب درعه فإذا أدخلها وأخرجها، خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف.

فهذان أمران خارقان يستحقان الذكر أكثر من غيرهما، وقد قال تعالى في شأنهما بعد أن ذكرهما في سورة القصص ﴿.. فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

والمراد بالسنين: السنوات التي يمسك الله فيها المطر عن الأرض، والمراد بنقص الثمرات قلة ثمر ما يملكون من الأشجار من نخيل وغير ذلك.

واختلفوا في الطوفان، فقال ابن عباس إنه كثرة الأمطار المغرقة المتلفة

---

(١) طالع تفسير ابن كثير في آخر سورة الاسراء.

(٢) جزء من آية (٣٢) ن سورة القصص.

للزروع والثمار، وعنه أيضاً أنه كثرة الموت، وبه قال عطاء، وقال مجاهد: الطوفان الماء والطاعون .

وذكر ابن جرير فيه حديثاً مرفوعاً عن عائشة رضي الله عنها أنه الموت وأما الجراد فهو معلوم عند كل أحد، قيل: إنه كان يأكل مسامير بيوتهم ويترك خشبها .

وأما القمل فقيل: إنه السُّوس الذي يخرج من الحنطة، وقيل انه الجراد الصغير الذي لا أجنحة له، وقيل إنه دواب سود صغار، وقيل إنه البراغيث، وقيل إنه جمع واحدته قملة وهي: دابة تشبه القمل تأكل الابل .

وأما الضفادع فمعروفة قيل إنها ملأت بيوتهم وأوانيهم وأطعمتهم فلا يكشف أحد ثوباً ولا اناء إلا وجد فيه الضفادع .

وأما الدم فإنه أرسله الله عليهم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من اناء الا عاد دماً عبيطاً .

وكل هذه الأمور اذا أصابتهم طلبوا من موسى أن يدعوا الله ليزيلها عنهم فإذا زالت آمنوا به وإذا دعا ربه واستجاب دعاءه وكشف عنهم البلاء رجعوا على ما كانوا عليه من الكفر والتعذيب[1] .

كما قال جل وعلا عنهم: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[2].

(١) طالع ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٣ ط عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) آيتي (١٣٤ ـ ١٣٥) من سورة الأعراف .

وقد ذكر غير واحد من السلف ان موسى عليه السلام لما اجتمع بسحرة فرعون وألقوا حبالهم وعصيهم، ألقى عصاه فصارت حية عظيمة ذات قوائم وعنق عظيم وشكل هائل مزعج بحيث ان الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها وأقبلت على ما ألقوه من الحبال والعصى فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة. والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها(١).

ويكفينا القرآن في ذلك فقد أخبرنا أنه لما ألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

قال تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾(٢) إلى غير ذلك من المواضع التي تكرر فيها ذكر تلقفها لحبال السحرة وعصيهم.

وقد نبه ابن كثير على الفرق بين هذه الآيات التسع وبين الكلمات العشر، وقال ان الكلمات العشر هي: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن الحلف بالله كاذباً، والأمر بالمحافظة على السبت ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة.

أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض، الذي يعطيك الله ربك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على صاحبك شهادة زور، ولا تمد عينك إلى بيت صاحبك ولا تشته إمرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً من الذي لصاحبك ومعناه النهي عن الحسد(٣) وقال في البداية والنهاية بعد

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير جـ ٢ ص ٤٦.

(٢) آيتي (٤٤ ـ ٤٥) من سورة الشعراء.

(٣) انظر قصص الأنبياء لابن كثير جـ ٢ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ المصدر السابق.

بعد كلامه على آيات الاسراء والنمل .

وهذه الآيات التسع غير العشر الكلمات فإن التسع من كلمات الله القدرية، والعشر من كلماته الشرعية. ثم قال: وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة فظن أن هذه هي هذه كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل[1].

وقد ذكر في آخره أيضاً أن الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده[2] والترمذي في تفسير سورة بني إسرائيل وقال حسن صحيح[3] والنسائي وابن ماجه وابن جرير، ومعناه أن يهوديين سألا النبي ﷺ عن آيات موسى التسع فقال: لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق الحديث، وقال انه مشكل وأن فيه عبد الله بن سلمة في حفظه شيء وقد تكلموا فيه ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون والله أعلم فانظره في كلامه السابق في آخر سورة الاسراء إ. هـ.

الدعوة في الآية :

١ ـ في هذه الآية أسلوب من أساليب الدعوة وهو أسلوب التقرير والانكار ففيها تقرير المخاطبين وتوبيخهم على تكذيبهم رسل الله عليهم الصلاة والسلام لما جاؤهم بالبينات فكذبوهم .

٢ ـ في الآية لفت أنظار السامعين إلى إحاطة علم الله بالأشياء حيث أخبر في الآية الكريمة أن بعد قوم نوح وعاد وثمود أمماً لا يعلم عددها أو ذواتها إلا

---

(١) البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٤٨ المصدر السابق .

(٢) جـ ٤ ص ٢٣٩ .

(٣) جـ ٤ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ ط المكتبة السلفية .

الله جل وعلا ، وأن غيره من سائر المخلوقات لا يعلم شيئاً بجانب علم الله .

٣ ـ كما أن فيها لفت أنظار من يدعون إلى النظر فيما حل بأقوام هؤلاء الرسل المكذبين لدعاة الحق المذكورين في هذه الآية .

وهم قوم نوح حيث أهلكهم الله بالطوفان، وقوم عاد حيث أهلكهم بريح صرصر في يوم نحس مستمر، وقوم ثمود حيث أهلكهم بالصيحة فكانوا كهشيم المحتظر.

٤ ـ من أساليب الدعوة قياس الأشباه على النظائر وذلك يتجلى فيما يستفاد من الآية حيث ان قريشاً ومن سار سيرها في تكذيب رسول الله ﷺ والصد عن سبيل الله والكفر به لا بد أن يكون مصيرهم كمصير من تقدمهم من الأمم .

فكذلك من كذب دعاة الحق وصد الناس عن اتباعه وشككها فيه لا بد أن يكون مصيره مثل مصير من كذب رسل الله لأن كلا يدعو إلى حق .

البَابُ الثالث

الباب الثالث

حوار
الرسل وأممهم

يشتمل هذا الباب على ما يلي : -

١ ـ تفسير الآيات تفسيراً اجمالياً .

في ثلاثة فصول : -

الفصل الأول : في اثبات وجود الله تعالى وفيه بيان عقيدة الإسلام اجمالاً ، وبيان عقيدة أهل الكتابين اجمالاً .

الفصل الثاني : في اثبات بشرية الرسل مهما بلغوا من الكمال .

الفصل الثالث : في الربط بين رسالات الأنبياء ومصير المكذبين .

٢ ـ الدعوة في الآيات :

١ - تفسير الآيات تفسيراً إجمالياً

الفصل الأول

في إثبات وجود الله

قوله تعالى: ﴿* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾(١).

هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ والمعنى أفي وحدانيته سبحانه شك؟ وهي في غاية الوضوح والجلاء، وقد ذكر الرسل بعد انكارهم على الكفار ما يؤكد انكارهم ذلك من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه وتعالى ووحدانيته فقالوا: ﴿فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومخترعهما وموجدهما بعد العدم يدعوكم إلى الإيمان به وتوحيده ليغفر لكم من ذنوبكم... ويؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت مسمى عنده سبحانه وهو الموت في وقته المحدد لكم(٢).

هذا وقد دلت هذه الآية الكريمة على وجود الله تعالى، كما تضمنت نوعين من أنواع التوحيد وهما: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

وإليك بيان ذلك: إن الآية الكريمة دلت على وجود الله وذلك لأن همزة الاستفهام أدخلت على الظرف المخبر به عن المبتدأ الذي هو النكرة ﴿شَكٌّ﴾ لأن الكلام ليس في الشك، وإنما هو في المشكوك فيه وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه، فكأن الله تعالى يحكي على ألسنة

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٠.

(٢) طالع الشوكاني جـ ٣ ص ٩٨ المصدر السابق.

رسله بأداة الاستفهام الانكاري أن وجود الله تعالى أوضح من أن يشك فيه شاك[١] .

فالكلام على تقدير مضاف والمعنى : أفي إلهية الله شك، وقيل أفي وحدانيته ؟ ثم نبه المخاطبون على الوصف الذي يقتضي ألا يقع فيه شك البتة وهو كونه منشىء العالم وموجده فقال : ﴿ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ولما ذكر أنه موجد العالم ونبه على الوصف الذي لا يناسب أن يكون معه فيه شك ذكر ما هو عليه من اللطف والاحسان إليهم فقال : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان به كما قال: ﴿ ... إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ .. ﴾[٢] أو يدعوكم لأجل المغفرة[٣]. وقد تقدم الكلام على قوله يغفر لكم من ذنوبكم، وهل ﴿ من ﴾ زائدة أو للتبعيض ؟ في الكلام على دعوة نوح في سورته فانظره، وقال الزمخشري إن وجود ﴿ من ﴾ قبل لفظة الذنوب مطرد بطريق الاستقراء في خطاب الكفار كما هنا وكما في قوله : ﴿ .. يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في شأن الجن وكقوله في نوح : ﴿ يا قوم إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى .. ﴾ .

أما المؤمنون فقال في شأنهم بعد قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ..... ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .. ﴾[٤] .

---

(١) انظر الكشاف هنا جـ ٢ ص ٣٦٩ .

(٢) جزء من آية (١٠) من سورة غافر .

(٣) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٠٨ ط دار الفكر للطباعة .

(٤) آية (٩) من سورة الصف وجزء من آية (١١) منها أيضاً .

وقال: إن ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوي بين الفريقين في المعاد[1] وقال ابن كثير: أفي الله شك يحتمل وجهين:

أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل: ﴿ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ .. ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ....

والوجه الثاني في قولهم أفي الله شك؟ أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره[2].

وقال ابن جرير هنا ما نصه: يقول تعالى ذكره: قالت رسل الأمم التي أتتها رسلها أفي الله أنه المستحق عليكم أيها الناس الألوهية والعبادة دون جميع خلقه شك؟ وقوله: ﴿ ... فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ ﴾ يقول خالق السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم، يقول يدعوكم إلى توحيده وطاعته ليغفر لكم ذنوبكم، يقول فيستر عليكم بعض ذنوبكم بالعفو عنها فلا يعاقبكم عليها ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ ﴾ يقول وينسىء في آجالكم فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم ولكن يؤخركم إلى الوقت الذي كتب في أم الكتاب أنه يقبضكم فيه وهو الأجل الذي سمى لكم اهـ[3].

وكلام المفسرين هنا كثير ومتقارب في المعنى وعلى كل حال فالآية

---

(١) أنظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٩ المصدر السابق.

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٢٥ ط دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

(٣) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٧ المصدر السابق.

الكريمة أثبتت وجود الله تعالى وبينت أنه لا ينبغي أن يشك فيه شاك وأقامت الدليل على ذلك بكونه هو الذي خلق السماوات والأرض وأبرزهما من العدم إلى الوجود لأن خالق هذه الصنعة المشاهدة على هذا النمط بأحكام لا بد أن يكون موجوداً إذا لا يمكن أن يوجد هذا الخلق بدون خالق تعالى الله علواً كبيراً عما يقوله الملحدون - فهذا العالم بسمائه وأرضه وبحاره وأشجاره وجباله وأوديته ودوابه لا يمكن أن يوجد صدفة، ولا يمكن أن يوجده ما يعمونه (الضبيعة) لأن الصدفة لا تكاد توجد في الجزئيات الحقيرة فكيف بهذا العالم على امتداده وسعته وسير نظامه من ليل ونهار وشمس وقمر وكواكب .

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1] .

﴿ ... وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[2] .

إلى غير ذلك مما لا يعلم علمه إلا الله سبحانه وتعالى الذي خلقه وأتقن صنعه كما قال تعالى: ﴿ ... صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ... ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾[4] .

وذكر في الآية الأكبر وهو خلق السماوات والأرض تنبيهاً على القدرة

---

(١) آية (٤٠) من سورة يس .

(٢) جزء من آية (٥٤) ن سورة الأعراف .

(٣) جزء من آية (٨٨) من سورة النمل .

(٤) آية (٧) من سورة السجدة .

على خلق الأصغر بالأولى كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم . . ﴾[2] .

هذا من ناحية دلالة الآية على اثبات وجود الله تعالى وأنه الخالق لجميع العالم .

أما دلالتها على توحيد الألوهية فإنك إذا تأملت كلًا من كلام ابن جرير وابن كثير السابقين علمت دلالتها على ذلك، وذلك أن ابن جرير جعل الآية واردة في توحيد الألوهية حيث لم يفسرها إلا على ذلك وقد تقدم أنه قال: قالت رسل الأمم التي أتتها رسلها : أفي الله أنه المستحق عليكم أيها الناس الألوهية والعبادة دون جميع خلقه شك ؟

وأما ابن كثير فإنه قال كما تقدم أيضاً: والمعنى الثاني في قولهم ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى الخ . وهذا هو توحيد الألوهية بعينه وهو الذي دارت فيه المعارك بين جميع الرسل وأممهم، وهو الذي ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أمره أن يأمر أمته به كما تقدم ذلك غير مرة .

فتوحيد الألوهية هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع

---

(١) جزء من آية (٥٧) من سورة غافر .

(٢) جزء من آية (٨١) من سورة يس .

أنواع العبادات، وإفراد رب السماوات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع. أما دلالتها على توحيد الربوبية الذي هو الإيمان بأن الله هو الخالق الرازق وهو المحيي والمميت، وأنه رب كل شيء، ومالكه ومدبره لا شركة لأحد معه فيه فقد دل على هذا قوله: ﴿ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾.

وهذا المعنى في القرآن كثير مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] وغير ذلك من الآيات وعلى هذا فيكون صدر هذه الآية دل على قسمين من أقسام التوحيد الثلاثة: -

١ - توحيد الألوهية.

٢ - توحيد الربوبية

٣ - توحيد الأسماء والصفات.

ولا مانع أن نلم بتوحيد الأسماء والصفات لما ذكرنا قسميه لنأتي بنبذة قليلة مما يعتقده المسلمون تجاه الله تعالى، ثم أذكر بعد ذلك نبذة قليلة عن ايمانهم بالرسل والملائكة والكتب واليوم الآخر والقدر خيره وشره كل هذا بإيجاز ثم أذكر عقيدة أهل الكتاب في الإله والرسل ليتبين للناظر أن عقيدة المسلمين بنيت على حق، وأن عقيدة أهل الكتاب بنيت على باطل ولا يبنى على الباطل إلا باطل.

وأقول: إن توحيد الأسماء والصفات يرتكز على ثلاثة أسس دل عليها القرآن الكريم.

١ - الأول من هذه الأسس هو تنزيه الله جل وعلا عن مشابهته لخلقه في ذاته وصفاته وأفعاله، ومن شبهه بخلقه فقد كذب القرآن ومن كذب القرآن فقد

---

(١) آية (١) من سورة الفاتحة.

كفر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ...﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ...﴾[3].

وقال تعالى: ﴿...هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾[4].

٢ ـ والأساس الثاني هو: الإيمان بما وصف الله به نفسه لأنه لا يصف الله أعلم به منه، ﴿...ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ...﴾[5].

والإيمان بما وصفه به رسوله محمد ﷺ لأنه لا أحد بعد الله أعلم به من نبيه محمد ﷺ الذي قال في شأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[6].

فيجب على كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه أو وصفه به محمد ﷺ مع كمال التنزيه لربه تعالى عن مشابهة الخلق، كما يجب عليه أن يعلم أن يبين صفة الخالق وصفات خلقه فرقاً كبيراً، فبين الصفة والصفة ما بين الذات والذات، فلله تعالى صفات تناسب قدره العظيم، وللمخلوق صفات تناسب قدره أيضاً، فمن ظن أن صفات الله تعالى تشبه صفات خلقه فقد جهل عظمة خالقه وضل والعياذ بالله، ومن آمن بها منزها ربه عن تشبيه صفاته بصفات خلقه فهو مؤمن منزه سالم من التشبيه والتعطيل، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فالله جل جلاله

---

(١) جزء من آية (١١) من سورة الشورى.

(٢) آية (٤) ن سورة الاخلاص.

(٣) جزء من آية (٧٤) من سورة النحل.

(٤) جزء من آية (٦٥) من سورة مريم.

(٥) جزء من آية (١٤٠) من سورة البقرة.

(٦) آيتي (٣ ـ ٤) من سورة النجم.

يقول بعد قوله : ﴿ ليس كَمِثْلِه شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرِ ﴾ والسمع والبصر من حيث هما: يتصف بهما جميع الحيوانات، فكأن الله تعالى يشير للناس بذكر هاتين الصفتين اللتين يتصف بهما جميع الأحياء بأن لا ينفوا عنه صفة سمعه وبصره بدعوى أن الحوادث تسمع وتبصر وأن ذلك تشبيه، بل الواجب عليهم أن يثبتوا له سمعه وبصره على أساس قوله : ﴿ .. وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ وأن ينفوا عنه المشابهة على أساس قوله : ﴿ .. لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ .. ﴾ والسمع والبصر كغيرهما من سائر الصفات لأن صفات الله من باب واحد .

٣ ـ أما الأساس الثالث فهو قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الذات العلية بصفاتها، وهذا الأساس دل عليه قوله تعالى : ﴿ .. وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[1] .

فالله جل وعلا وصف نفسه بالسمع والبصر فقال: ﴿ .. إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[2].

ووصف الإنسان بالسمع والبصر فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[3]

وهل يخطر ببال مسلم أن سمع الله وبصره يشبهان سمع الإنسان وبصره ؟ ولله المثل الأعلى ، وإذا خطر ببالك أيها المخلوق الذي لا تعرف إلا سمعاً خارجاً من أذن جارحة وبصراً خارجاً من حدقة. وأنك لا تعرف سمع الله وبصره

---

(١) جزء من آية (١١٠) من سورة طه .

(٢) جزء من آية (١) من سورة المجادلة .

(٣) آية (٢) من سورة الانسان .

فاعلم أنه لا غرابة في ذلك لأنك لا تعرف الذات التي اتصفت بهذه الصفات وما دمت جهلت الذات لا بد كذلك أن تجهل اتصافها بصفاتها، فاعلم أن صفاتها تناسبها. فالله جل وعلا ذات وأنت أيها المخلوق ذات ولكن ذاته لا تشبه ذاتك كذلك صفاته لا تشبه صفاتك فمن جهل ذاته جهل صفاته ووجب عليه الإيمان بها إذا ثبتت عنه أو عن رسوله ﷺ وليقل مقالة مالك بن أنس لما سأله سائل عن كيفية استواء الله على عرشه فقال له كيف استوى ؟ قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة[1] .

ولا مانع أن أنقل لك بعضاً من كلام إمام الموحدين أبي الحسن الأشعري في هذا الموضوع في كتابه: (الابانة في أصول الديانة) قال في هذا الكتاب . . .

وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا نرد من ذلك شيئاً وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله استوى على عرشه كما قال:

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾[2] .

وأن له وجهاً كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾[3] .

وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿ . . . خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾[4].

---

(١) طالع محاضرة الشيخ محد الأمين الشنقيطي سلسلة محاضرات الجامعة الاسلامية بعنوان منهج ودراسات للأسماء والصفات ط الجامعة الاسلامية ١٣٩٥ هـ .

(٢) آية (٥) م سورة طه .

(٣) آية (٢٧) من سورة الرحمن .

(٤) جزء من آية (٧٥) من سورة ص .

وكما قال: ﴿ ... بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ... ﴾[1].

وأن له عيناً بلا كيف كما قال: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا .. ﴾[2].

وأن لله علماً كما قال: ﴿ ... أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ... ﴾[3].

وكما قال: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾[4]

ونثبت لله السمع والبصر ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج... ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا.. ونقول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ واجماع المسلمين، ولا نقول على الله مالا نعلم، ونقول إن الله عز وجل يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾[5] ونرى بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنهم كافرون.

ونقول: إن مَن عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبهها مستحلاً لها غير معتقد لتحريمها كان كافراً... وندين بأنه يقلب القلوب، وأن القلوب بين اصبعين من أصابع الله عز وجل وأنه عز وجل يضع السماوات على اصبع والأرضين على اصبع كما جاءت الروايات عن رسول الله ﷺ الخ كلامه الطويل[6] وأكثر كلامه الذي ذكرنا حول الأسماء والصفات كما رأيت اهـ.

---

(١) جزء من آية (٦٤) من سورة المائدة.

(٢) جزء من آية (١٤) من سورة القمر.

(٣) جزء من آية (١٦٦) من سورة النساء.

(٤) جزء من آية (٤٧) من سورة فصلت.

(٥) آية (٢٢) من سورة الفجر.

(٦) ملخصاً من الابانة في أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري مع تقديم وتأخير لكن مع محافظة على اللفظ ص ٨ - ١١.

عقيدة المسلمين إجمالاً :

تقدم ذكر أقسام التوحيد الثلاثة، وسأذكر لك الآن مجمل معتقد المسلمين في الله، والملائكة، والرسل، واليوم الآخر، والكتب السماوية، والقدر خيره وشره. ثم بعد ذلك أذكر معتقد أهل الكتاب مبيناً له من مصادرهم التي بين أيديهم المقدسة لديهم كما وعدت بذلك أول الباب.

وأقول على طريق الاجمال أن المسلمين يؤمنون بوجود الله تعالى وأنه واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

كما قال تعالى: ﴿ ... وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ .... ﴾[1] ﴿ ... إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ... ﴾[2] لا شبيه له ولا مثيل له تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

كما يؤمنون برسل الله جميعاً على الاجمال لا يفرقون بين أحد منهم وبين آخر في الإيمان ويعتقدون أنهم صفوة الله من خلقه اختارهم واسطة بينه وبين عباده، وأنهم أمناء معصومون من الكذب فيما أمروا بتبليغه عن الله تعالى.

معنى العصمة :

العصمة : تخصيص القدرة بالطاعة فلا تخلق لهم قدرة على المعصية وهي واجبة لجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام فقد أجمع أهل الملل والشرائع كلها على وجوب عصمتهم من تعمد الكذب فيما دل المعجز القاطع على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله تعالى الخلائق، وصدور

---

(١) جزء من آية (١٦٣) من سورة البقرة.

(٢) جزء من آية (١٧١) من سورة النساء.

الكذب عنهم فيما ذكر سهواً أو نسياناً منعه الأكثرون وما سوى الكذب في التبليغ فإن كان كفراً فقد أجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها، وإن كان غيره فالجمهور على عصمتهم من الكبائر عمداً ومخالف الجمهور الحشوية(١) .

كما يؤمنون بما ذكر الله من الرسل في القرآن على سبيل التفصيل وهو خمسة وعشرون رسولاً ذكر الله في سورة الأنعام منها ثمانية عشر في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾(٢) .

وبقيت منهم سبعة لم تذكر هنا وهي : محمد ﷺ، وآدم عليه السلام، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل فهذه الخمسة والعشرون نؤمن بها على سبيل التفصيل، ونؤمن بأن الله أرسل رسلاً آخرين ولم يقص خبرهم على نبينا ﷺ كما قال تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ . . . ﴾(٣) .

---

(١) انظر نشر البنود شرح مراقي السعود جـ ٢ ص ١١٩ .

(٢) الآيات من (٨٣ الى ٨٦) من سورة الأنعام .

(٣) جزء من آية (١٦٤) من سورة النساء .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ... ﴾[١].

وقد روى الإمام أحمد حديثاً في عدد الرسل عن أبي ذر قال: (أتيت رسول الله ﷺ في المسجد فقال يا أبا ذر... قلت فأي الأنبياء كان أول قال آدم قلت أو نبي كان يا رسول الله؟ قال نبي مكلم قلت فكم المرسلون يا رسول الله قال ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً)[٢].

الملائكة:

تعريف الملائكة: هذا اللفظ من (ألك) يقال ألك بين القوم يألك ألكاً وألوكه، ومألكا وألوكا ترسل، واستألك ألوكته حمل رسالته، والألوك الرسالة والرسول، والألوكة الرسالة، والمألك والمألكة الرسالة قيل الملك مشتق منه أصله مألك، ومعناه مرسل[٣].

والمألك الرسالة ولا نظير لها أي لم يجيء على مفعل إلا هي، وألكني إليه أي كن رسولي إليه، والملك مشتق منه وأصله مألك قلبت الهمزة إلى موضع اللام فقيل ملأك ثم خففت الهمزة بأن ألقيت حركتها على الساكن الذي قبلها فقيل ملك[٤] وعلى كل حال نؤمن بهم ونعتقد أنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

---

(١) جزء من آية (٧٨) من سورة غافر.

(٢) مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ١٧٩ المصدر السابق.

(٣) محيط المحيط تأليف المعلم بطرس البستاني. المحكم ص ٣٤.

(٤) انظر لسان العرب لابن منظور جـ ١٠ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ مادة ألك.

الكتب السماوية :

إنا معاشر المسلمين نؤمن بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله. كالتوراة التي أنزلت على موسى والانجيل الذي أنزل على عيسى، وزبور داود وصحف إبراهيم وغير ذلك من جميع الكتب التي أنزلها على رسله ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ...﴾(١).

اليوم الآخر :

كذلك نؤمن باليوم الآخر وأن الله يبعث الناس من قبورهم يوم القيامة ويساقون إلى المحشر للقضاء بينهم ويحاسبون على أعمالهم في دار الدنيا فيثاب المطيع ويعاقب العاصي ويفترق الفريقان فريق في الجنة وفريق في السعير.

قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾(٢).

القدر :

كذلك نحن المسلمين نؤمن بالقدر خيره وشره ونعتقد أن الخير والشر كليهما صادران من الله، وأنه لا راد لقضائه وأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون

---

(١) جزء من آية (٢٨٥) من سورة البقرة.

(٢) آيتي (٦ ـ ٧) نم سورة الحج.

وأنه لا يقع في خلقه إلا ما علم أزلاً أنه سيقع وأنه قدر الأشياء قبل وقوعها وخلق كل شيء بقدر .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾[1] .

هذه أدلة أركان الإيمان الستة من القرآن الكريم .

السنة المطهرة :

ثبت في صحيح مسلم بسنده إلى يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلت لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت يا أبا عبد الرحمن انه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون[2] العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون الاقدر وأن الأمر أنف[3] قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ

---

(١) آية (٤٩) من سورة القمر .

(٢) أي يطلبونه ويتتبعونه أو يجمعونه انظر شرح النووي لمسلم عند الحديث جـ ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ ط ٣ دار الفكر بيروت لبنان .

(٣) أي لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى، وإنما يعلمه بعد وقوعه. شرح النووي المصدر السابق نفسه .

فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه[١] وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت، قال فأخبرني عن الاحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن أمارتها قال: أن تلد الأمة ربتها[٢] وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبث ملياً [٣] ثم قال لي ياعمر أتدري من السائل فقلت الله ورسوله أعلم قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم[٤].

وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع برزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فوالله ان أحدكم أو الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل أهل الجنة، وان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها[٥].

---

(١) أي فخذي نفسه .

(٢) كناية عن كثرة التسري شرح النووي .

(٣) أي وقتها طويلاً .

(٤) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٦ ـ ٣٨ المصدر السابق والبخاري في كتاب الإيمان .

(٥) صحيح البخاري في كتاب القدر أول حديث منه .

وقد فرق بعض العلماء بين القضاء والقدر .

قال ابن حجر عند شرح حديث: كان النبي ﷺ يتعوذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ما نصه: قال: - يعني ابن بطال - والمراد بالقضاء هنا المقضي لأن حكم الله كله حسن لا سوء فيه، وقال غيره :

القضاء: الحكم بالكليات على سبيل الاجمال في الأزل، والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل[1] .

فهذا موجز عن اعتقاد المسلمين في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. إ هـ.

عقيدة أهل الكتاب :

لما ذكرنا عقيدة المسلمين وما يؤمنون به في حق الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، كان من الواجب علينا أن نذكر نبذة من اعتقاد، أهل الكتاب في الله والرسل والملائكة .

الإله عند اليهود يلد ويندم :

إن اليهود ينسبون الولد لله بنص القرآن الكريم قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ .. ﴾[2]

ويقولون في التوراة:

١ - وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أنبياء الله رأوا بنات الناس أنهم حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا

---

(١) فتح الباري جـ ١١ ص ١٤٩ ط السلفية ومكتبتها .

(٢) جزء من آية (٣٠) من سورة التوبة .

فقال الرب: لا يدين روحي في الانسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة، كان في الأرض طغاة في تلك الأيام، وبعد ذلك أيضاً إذا دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الانسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم[1].

٢ ـ أنتم أولاد للرب إلهكم لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا فزعة بين أعينكم لأجل ميت لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض [2] إ. هـ.

من معتقداتهم في الرسل:

١ ـ الأنبياء عند اليهود يشربون الخمر ويسكرون كما في العهد القديم:

يقولون: وأبتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخوته خارجاً، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته، وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم[3] [4].

---

(١) انظر سفر التكوين الأصحاح ٦ فقرة (١) فما بعدها.

(٢) التثنية أيضاً الأصحاح ٢١ فقرة ٤١ فما بعدها.

(٣) سفر التكوين الأصحاح ٩ فقرة ٢٠ وما بعدها.

(٤) وهذا النص هو الذي اعتمد عليه الانجليز وحلفاؤهم في استعباد افريقيا فقد جمعوا رجالاً لإصدار فتوى تبيح لهم ضرب الرق على الافارقة فجاء العلماء بهذا النص وأباحوا لهم ذلك.

٢ ـ أنبياء بني إسرائيل يدعون إلى الوثنية ويصنعون الآلهة بأيديهم:

ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون إنزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأئتوني بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلاً مسبوكاً فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بني إسرائيل بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال: غدا عيد للرب فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب(١)(٢) .

٣ ـ الأنبياء في العهد القديم يسكرون ويزنون ببناتهم:

يقولون: وصعد لوط من صوفر وسكن في الجبال وابنتاه معه. .وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقي أبانا خمراً وتضطجع معه فنحى من أبينا نسلاً فسقتاه الخمر ودخلت البكر واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، ثم سقتاه في الليلة الثانية خمراً واضطجعت معه الصغيرة ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحملتا من أبيهما وولدت البكر ابناً ودعت اسمه مؤاب وهو أبو المؤابيين الى اليوم، وولدت الصغيرة ابناً ودعت اسمه ابن عمى وهو أبو بني عمون إلى اليوم(٣) .

---

(١) سفر الخروج: الاصحاح ٣٢ فقرة (١) فما بعدها .

(٢) انظر إلى هذه القصة فإن فيها زيادة على ما نسبوه لنبي الله هارون تناقضاً صريحاً للقرآن حيث أخبر أن الذي صنع العجل هو السامري وأن هارون أخبرهم بأنهم فتنوا به، وأن ربهم الرحمن .

(٣) سفر التكوين الاصحاح ١٩ فقرة ٣٠ وما بعدها بتصرف يسير .

٤ ـ الأنبياء في العهد القديم يسطون على زوجات الغير ويتحيلون على قتل أزواجهم .

٥ ـ الجندي العادي في العهد القديم أملك لنفسه وأضبط لها عند اثارة شهوته من النبي .

٦ ـ الجندي العادي أنصح لرعية النبي منه .

وكان في وقت المساء أن داود (عليه السلام) قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بشتبع بنت أليعام امرأة اوريا الحثيّ فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى فأرسل داود إلى يؤاب القائد الذي أرسله مع عبيده لخراب بني عون وحصار ربة؟ يقول: أرسل إلى أوريا الحثيّ فأرسل يؤاب أوريا الى داود فأتى أوريا اليه فسأله عن سلامة يؤاب وسلامة الشعب ونجاح الحرب وقال داود لأوريا انزل الى بيتك واغسل رجليك فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك ونام أوريا على بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته فقال داود لأوريا أما جئت من السفر فلماذا لم تنزل إلى بيتك فقال أوريا لداود ان التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يؤاب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر فقال داود لأوريا أقم هنا اليوم أيضاً وغداً أطلقك فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج المساء ليضطجع مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل، وفي الصباح كتب كتاباً ودفعه إليه يأمر يؤاب أن يجعله في وجه الحرب

ويأمرهم بالرجوع من ورائه ليضرب ويموت ففعل يؤاب فمات أوريا الحثيُّ فأرسل يؤاب يخبر داود بموته، فلما سمعت المرأة بموته ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة الخ[1].

٧ ـ الأنبياء في العهد القديم يعبدون الأصنام تبعاً لرغبة نسائهم:

وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه فذهب سليمان وراء عشتروت آلهة الصيد ونييس، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عين الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون، وهكذا فعل بجميع نسائه الغربيات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن.. الخ[2].

٨ ـ الأنبياء في العهد القديم يتزوجون أخواتهم من النسب:

فقال إبراهيم أني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة فيقتلونني لأجل امرأتي وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي غير أنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة[3][4].

---

(١) انظر صموئيل الثاني الاصحاح ١١ فقرة ٢ فما بعدها.

(٢) الملوك الأول الاصحاح ١١ فقرة (٤) وما بعدها.

(٣) التكوين الأصحاح ٢٠ فقرة ١١ فما بعدها.

(٤) (فإن قيل) كان أولاد آدم يتزوجون بأخواتهم اللاتي لسن شقائق لهم وعليه فيكون هذا دليلاً على جواز تزوج غير الشقيقة في شرائع الأنبياء قبل شريعة نبينا ﷺ فالجواب عن ذلك من وجوه:

١ ـ الأول أن ذلك كان مباحاً لذرية آدم، ثم نسخ وحرم على الأنبياء فحرم على موسى وغيره من الأنبياء. انظر القرطبي جـ ٢ ص ٦٣ ط دار الكتب العربية.

٢ ـ أن ذلك إنما كان مباحاً لذرية آدم للضرورة لأنه لا يوجد في ذلك الوقت غيرهم فأبيح لهم ذلك بخلاف غيرهم من الأمم فإن النساء كثرن وعمرت الأرض من السكان فزالت الرخصة.

[illegible] ...اجع تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً﴾ جزء من =

الأنبياء في العهد القديم يسجدون للمخلوق:

وماتت سارة في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكي عليها، وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني حث قائلاً أنا غريب ونزيل عندكم فأعطوني ملك قبر معكم لأدفن فيه ميتي من أمامي فأجاب بنو حث ابراهيم قائلين له سمعنا يا سيدي أنت رئيس من الله بيننا في أفضل قبورنا أدفن ميتك لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك .

فقام ابراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث[(١)]

الملائكة في العهد القديم يأكلون كالبشر:

١ - فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال: اسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً اعجني واصنعي خبز ملة، ثم ركض ابراهيم إلى البقرة وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا إ. هـ.[(٢)].

= آية (٢٧) من سورة المائدة .

وقال القرافي أن الله شرع لأدم تزويج الأخ بأخته غير توأمته وقد نسخ ذلك طالع شرح تنقيح الفصول للقرافي ص ٣٠٣ ط دار الفكر .

وإن هذه القصة وهي تزويج الأخ بأخته لم يثبت فيها شيء مرفوع عن رسول الله ﷺ وان كانت رواها كثير من السلف عن بعض الصحابة كابن عباس وابن مسعود وغيرهم ولكنها من المحتمل أن تكون مما روى عن أهل الكتاب الذين نهينا عن تصديقهم حتى نقف على ما رووه في شرعنا اثباتاً أو نفياً، وقد روى عن ابن عباس أن سبب قتل ابن آدم لأخيه غير قضية الزواج وذلك يؤيد عدم ثبوت قضية الزواج أما قضية قتل ابن آدم أخاه وتقديمهما القربان فإن ذلك ثابت بالكتاب طالع تفسير ابن كثير عند آية المائدة المتقدمة تجد ما يؤيد عدم ثبوت أن سبب قتل ابن آدم أخاه قضية تزوجه بأخته .

(١) التكوين الاصحاح ٢٣ فقرة (١) فما بعدها .

(٢) سفر التكوين الاصحاح ١٩ فقرة (٦) فما بعدها .

٢ ـ فجاء الملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم . . فمالا إليه ودخل بيته فصنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا[١].

العهد الجديد :

من معتقدات النصارى في الإله :

تقدم أن النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله وذلك في قوله تعالى : ﴿ . . . **وقالت النصارى المسيح ابن الله** . . . ﴾ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وإليك بيان ذلك أيضاً من أناجيلهم .

١ ـ احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظركم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات . . . لكي تكون صدقتك في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية[٢].

٢ ـ النصارى لا يكتفون بدعوى الولد لله حتى أثبتوا في أناجيلهم أنه تكلم بذلك .

وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الأردن وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماوات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه وكان صوت من السماء أنت ابني الحبيب الذي به سررت[٣] .

---

(١) التكوين أيضاً الاصحاح ١٩ فقرة (١) .

(٢) انجيل متى الاصحاح ٦ فقرة (١) وفقرة (٥) .

(٣) انجيل مرقس الاصحاح (١) فقرة (١) فما بعدها .

٣ ـ العهد الجديد يثبت أن عيسى يقول ان النصارى أبناء الله:

بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً فيكون أجركم عظيماً وتكونوا بني العلي فإنه منعم على غير الشاكرين والأشرار فكونوا رحماء كما أن أباكم رحيم[١].

٤ ـ فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه، أجابهم يسوع أعمالاً كثيرة حسنة أرأيتكم من عند أبى بسبب أي عمل منها ترجمونني.. الخ[٢].

من معتقدات النصارى في الرسل:

العهد الجديد يقرر أن سليمان عليه السلام ومن بعده من ذريته من الأنبياء بما في ذلك عيسى عليه السلام أولاد زنا لأن في سلسلة نسب عيسى عندهم أن مريم عليها السلام من ذرية سليمان ابن داود، وسليمان أثبتوا أنه ولد امرأة أوريا التي زنى بها داود فحملت منه بسليمان حاشا الأنبياء مما يقوله النصارى واليهود.

١ ـ ويسمى ولد داود الملك، وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا[٣].

٢ ـ وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة إرحمني يا سيدي يابن داود ابنتي مجنونة جداً فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: إصرفها لأنها تصيح وراءنا فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة فأتت وسجدت[٤] له قائلة يا سيدي أعني[٥]

---

(١) انجيل لوقا الاصحاح ٦ فقرة (٣٦) فما بعدها.

(٢) انجيل يوحنا الاصحاح ١٠ فقرة ٣١ فما بعدها.

(٣) انجيل متى الاصحاح الأول فقرة ٧ فما بعدها.

(٤) هذا النص يثبت أن عيسى أقر على السجود لغير الله.

(٥) انجيل متى الاصحاح ١٥ فقرة ٢٣ وما بعدها.

وفي هذا القدر كفاية من معتقد أهل الكتابين في الإلـه والرسـل والملائكـة ذكـرناه ليتبين منـه للناظـر أن هؤلاء لم يبنوا ديـانتهم على أسـاس صحيـح وتركنا ما هو أسوأ إ. هـ.

الفصل الثاني

إثبات بشرية الرسل

قوله تعالى: ﴿... قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾[1].

دور الكفار من المحاورة:

يقول الكفار لرسل الله ما أنتم إلا بشر مثلنا ولستم ملائكة وإنما تريدون صدنا عما كان آباؤنا يعبدونه من الأصنام، وإذا كان ما تدعونه من الرسالة حقاً فأتونا عليه بحجة بينة تثبت دعواكم الرسالة من الله.

لماذا كان الرسل من جنس المرسل إليهم؟

تمهيد:

إن من لطف الله تعالى بخلقه أنه إذا أراد أن يرسل للناس رسلاً يقيمون عليهم الحجة أرسلهم اليهم من جنسهم ليفقهوا عنهم ما يبلغونهم عن الله لتمكنهم من مخاطبتهم ومكالمتهم، ولو بعث إلى الناس رسل من الملائكة لما استطاعوا مواجهتهم ولا الأخذ عنهم، وقد امتن الله على هذه الأمة حيث بعث فيها رسولاً منهم فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ...﴾[2].

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٠.

(٢) جزء من آية (١٦٤) من سورة آل عمران.

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴾[1]
ولكن الكفار لم ينتبهوا لهذه النعمة العظيمة واللطف الكبير فجعلوهما موضع تعجب واستنكار واستغربوا أن يكون الله أرسل إليهم رسلاً من جنسهم وهذه سنة الله في جميع الأمم من لدن قوم نوح إلى أمة محمد ﷺ كلهم كانوا يتعجبون من هذا وكان سبباً في إعراضهم عن الإيمان بالرسل تشبثاً بهذه الشبهة الواهية. وهل قام لديهم دليل قاطع على أن جنس الملائكة أفضل من جنس البشر؟ أما علموا أن الله أعلم حيث يجعل رسالته؟

الآيات التي استنكرت فيها الأمم كون الرسل من البشر:

قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

وقال في قوم صالح على الصحيح لا في قوم هود لأن الله قال فيهم فأخذتهم الصيحة وقوم عاد أهلكوا بريح صرصر، قال فيهم: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾

---

(١) جزء من آية (١٢٨) من سورة التوبة.
(٢) آيتي (٢٣ - ٢٤) من سورة المؤمنون.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1]

وقال تعالى في شأن قوم موسى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾[2].

وقال تعالى عن أمة محمد ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾[3]

وقد رد الله عليهم مقالتهم هذه فأخبرهم أنه ما أرسل قبله نبياً إلا كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ..﴾[4]

وقد أخبر الله تعالى أن هذه الشبهة هي التي منعت الأمم على العموم من الإيمان أو منعت أهل مكة على الخصوص[5] وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾[6].

فالهمزة في قوله: ﴿أبعث﴾ للإنكار منهم أن يكون الله بعث بشراً رسولاً: أي ما منعهم من الإيمان بمحمد ﷺ، أو بالرسل على العموم إلا

---

(١) الآيات (٣٢ - ٣٣) ن سورة المؤمنون.

(٢) الآيات (٤٥ - ٤٧) من سورة المؤمنون.

(٣) آية (٧) من سورة الفرقان.

(٤) جزء من آية (٢٠) من سورة الفرقان.

(٥) انظر فتح القدير جـ ٣ ص ٢٦ المصدر السابق.

(٦) آية (٩٤) من سورة الاسراء.

مقالتهم هذه وقد رد الله عليهم مقالتهم هذه بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾(١) أي لو كان سكان الأرض بدلاً منكم ملائكة مستقرين فيها لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً من جنسهم، فلما كنتم مستوطنين هذه الأرض مستقرين فيها كان المناسب أن يبعث إليكم رسولاً من جنسكم،وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾(٢).

فالاستفهام في قوله: ﴿أَكَانَ﴾ لانكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ وليس في هذا ما يقتضي العجب فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن الله تعالى إلا من كان من جنسه(٣) وقال تعالى عن جملة الأمم الماضية مخاطباً هذه الأمة بشأنهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾(٤)
والآيات بمثل هذا كثيرة جداً تدل على أن هذه الشبهة تشبث بها جميع الأمم إ. هـ. ولنعد إلى تفصيل الكلام على آخر الآية.

قال الكفار من قوم هؤلاء الرسل ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فضل لكم يؤهلكم لما تدعون من الرسالة ﴿تُرِيدُونَ﴾ بما أنتم عليه من الدعوة والارشاد ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾ بما تدعونا إليه من التوحيد وتخصيص

---

(١) آية (٩٥) من سورة الاسراء.

(٢) جزء من آية (٢) من سورة يونس

(٣) فتح القدير جـ ٢ ص ٤٢٢ المصدر السابق.

(٤) آيتي (٥ - ٦) من سورة التغابن.

العبادة بالله وحده ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤنا﴾ أي عما استمر على عبادته آباؤنا من غير شيء يوجبه، وان لم يكن الأمر كما قلنا وكنتم رسلاً من الله كما تدعون ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يدل على صحة ما تدعون من الرسالة حتى نترك ما كنا نعبده أباً عن جد، وهذا الطلب كان بعد اقامة الحجة عليهم من قبل الرسل عليهم الصلاة والسلام بالآيات الظاهرة والبينات الباهرة ولكن حملهم على ذلك العناد والمكابرة(١) فكأنهم لم يعتبروا ما جاءوهم به من البينات والحجج واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتاً ولجاجاً(٢) .

جواب الرسل للمكذبين:

إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ردوا هذه الشبهة التي تعلقت بها أممهم فأخبروهم بأنهم بشر مثلهم في البشرية ولكن ذلك لا يمنع أحداً أن يمن الله عليه بفضله لأنه يعطى من يشاء ويمنع من يشاء فقد سلموا لهم المشاركة في الجنس وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله تعالى ومنه عليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

فالرسل في حوارهم مع أممهم أقروهم على قولهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا فأثبتوا البشرية لأنفسهم، ولكنهم أخبروهم أن الاشتراك في البشرية لا يقتضي المساواة من كل وجه فإن الله يمن بفضله على بعض البشرية دون بعض، كما أخبروهم أنهم لا يمكن أن يأتوهم بسلطان الا بارادة الله تعالى، وأنهم متوكلون عليه غاية التوكل لأن أمرهم للمؤمنين به يدخلون فيه دخولاً أولياً، فقد سلموا لهم المساواة في البشرية فقط، وأما ما

---

(١) انظر روح المعاني جـ ١٣ ص ١٧٧ ادارة الطبعة المنيرية بمصر .

(٢) تفسير البيضاوي ص ٢٣٧ .

سوى ذلك من الأوصاف التي اختصوا بها دونهم فلم يكونوا مثلهم فيها .

ولم يذكروا ما هم عليه من الأوصاف التي تميزوا بها تواضعاً منهم ونسبوا ذلك الى الله ولم يصرحوا بمن الله عليهم وحدهم ولكنهم أبرزوه في عموم من يشاء من عباده كما أخبروهم أن الآية التي اقترحوها ليس لهم الاتيان بها ولا هي في استطاعتهم وانما ذلك أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى(١) .

وحاصل شبهة هؤلاء أنهم ادعوا أن الأشخاص الانسانية متساوية في تمام الماهية فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الأشخاص إلى هذا الحد بحيث أن يكون الواحد منهم رسولاً من عند الله مطلعاً على بعض المغيبات مخالطاً لزمرة الملائكة، والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الأحوال، فكأنهم يقولون ان كنتم فارقتمونا في هذه الأحوال العالية الإلٓهية الشريفة وجب أن تفارقونا في الأحوال الخسيسة كالحاجة إلى الأكل والشرب والوقاع وغير ذلك(٢) .

وقد قيل هنا ﴿لهم﴾ دون قولهم السابق قالت رسلهم لاختصاص الكلام هنا بهم حيث أريد إلزامهم، بخلاف ما سبق من إنكار وقوع الشك في الله سبحانه فإن ذلك عام وان اختص بهم ما يعقبه(٣) .

قلت: إن هذه الشبهة صرح القرآن الكريم بردها في غير ما آية منه رداً على مشركي هذه الأمة حيث قالوا: ﴿.. لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ ﴾(٤)

فقد أخبر الله أنه ما أرسل لبني البشر رسلاً من قبل رسالة محمد ﷺ الا من جنس البشر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم

---

(١) طالع البحر المحيط لأبي حبان جـ ٥ ص ٤١١ المصدر السابق .

(٢) انظر الفخر الرازي جـ ١٩ ص ٩٥ المصدر السابق .

(٣) انظر تفسير ابي السعود جـ ٣ ص ١٢٠ ط أولى .

(٤) جزء من آية (٨) م سورة الأنعام .

مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنا ولَنَصْبِرَنَّ على ما آذَيْتمونا وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتوكَّلِ المُتوكِّلون﴾.

يقول رسل الله في محاورتهم للأمم: إننا لما خصنا الله بهذه الدرجات الروحانية والمعارف الإلٰهية فكيف يليق بنا ألا نتوكل على الله، بل اللائق بنا ألا نتوكل ولا نعول إلا عليه فإنه من كانت هذه حاله يقبح عليه أن يرجع في أمر من الأمور الى غير الحق، ﴿وَقَدْ هَدَانا سُبُلَنا﴾ أي وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى ما آذَيْتُمونا﴾ أي والله لنصبرن على أذيتكم لنا فإن الصبر مفتاح الرحمة، والحق لا بد أن يصير غالباً قاهراً، والباطل لا بد أن يصير مغلوباً مقهوراً[3] قال الزمخشري: فإن قلت: كيف كرر الأمر بالتوكل؟

قلت: الأول استحداث التوكل، وقوله فليتوكل المتوكلون معناه فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم فانظره هنا.

وقال أبو السعود: إن الاظهار في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّه﴾ لاظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكره تعالى فانظره هنا أيضاً.

---

(١) جزء من آية (١٠٩) من سورة يوسف.

(٢) آية (٤٣) من سورة النحل.

(٣) تفسير الفخر الرازي جـ ١٩ ص ٩٧ المصدر السابق.

دور الكفار من الحوار أيضاً :

ولما توكل الرسل على الله وأمروا المؤمنين بالتوكل عليه والتزموا بالصبر على الأذى من المشركين، بالغ المشركون، في السفاهة والجهل كما بين ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنَا أو لَتَعُودَنَّ في مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ والمعنى أن الكفار أقسموا للرسل ليكونن أحد أمرين لا محالة .

إما أن نخرجكم من أرضنا ونستريح منكم ، وإما أن تعودوا إلى ملتنا وإنما قالوا هذا لأن أهل الحق في كل زمان قليلون وأهل الباطل في كل زمان كثيرون ، والظلمة والفسقة دائماً يكونون متعاونين متعاطفين فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة[1] .

وقال ابن جرير معناه لنخرجنكم من أرضنا إلا أن تعودوا أو حتى تعودوا في ملتنا .

قال ابن العربي وهو غير مفتقر الى هذا التقدير فإن أو على بابها من التخيير، خير الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم ، أو يخرجوهم من أرضهم ، وهذه سيرة الله في رسله وعباده ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ . . ﴾[2]

الآية[3] قلت : ذكر المفسرون في قوله تعالى : ﴿ . . . أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا ﴾ إشكالاً وأجابوا عنه بأجوبة ، وسأذكر إن شاء الله أقربها الى الصواب في نظري .

---

(١) انظر الفخر الرازي جـ ١٩ ص ٩٩ المصدر السابق .

(٢) جزء من آية (٧٦) من سورة الاسراء .

(٣) انظر أحكام القرآن لابن العربي جـ ٣ ص ١١١٦ ـ ١١١٧ ط دار المعرفة بيروت .

وحاصل الإشكال أن قوله : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا ﴾ يوهم أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها ثانياً ، ورسل الله لم يكونوا على ملة هؤلاء الكفار أبداً حتى يعودوا اليها حاشاهم من ذلك وقد أجاب الفخر الرازي عن ذلك بأجوبة .

١ ـ الأول أن أولئك الأنبياء انما نشأوا في تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل ، وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار فظن القوم لهذا السبب أن الرسل في أول الأمر كانوا على دينهم فقالوا قولتهم هذه .

٢ ـ أن هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب في كل ما قالوه أن يكون صدقاً فلعلهم توهموا ذلك مع أن الأمر بعيد مما توهموا .

٣ ـ أن الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل الا أن المقصود به أتباعهم ولا بأس بأن يقال أنهم كانوا على ملة أولئك الكفار .

٤ ـ أن العود هنا بمعنى الصيرورة وذلك كثير في كلام العرب .

٥ ـ ٥ ـ قالوا لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل ارسالهم على ملة من الملل ، ثم أوحى الله إليهم بنسخها وأمرهم بشريعة أخرى ، وبقي الأقوام على تلك الشريعة التي صارت منسوخة مصرين عليها فطلبوا منهم العود الى تلك الملة .

٦ ـ أن المعنى : أو لتعودن في ملتنا أي إلى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايب ديننا وعدم التعرض له بالطعن(١) .

هكذا ذكر الرازي هذه الأجوبة(٢) .

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ١٩ ص ٩٩ ـ ١٠٠ المصدرالسابق .

(٢) قلت : أقرب هذه الأجوبة إلى الصواب عندي هو الثالث والرابع ، وأبعدها عندي الوجه الخامس ، أما توجيه القولين : الثالث والرابع فلأننا بطريق الاستقراء وجدنا الخطاب في القرآن

وقال أبو السعود : ﴿ وَقَالَ الَّذينَ كَفَروا لِـرُسُلِهِمْ ﴾ لعل القـائلين بعض من الكفرة التي نقلت مقالتهم الشنيعـة دون غيرهـم كقـوم شعيب دون جميعهم ولهذا لم يقل وقالوا .

= يوجه إلى رسول الله ﷺ والمراد به غيره من أمته بلا شك وذلك نحو قوله تعالى :
﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين نن قبلك لئن أشركت ليحيطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ .
آية ٦٥ من سورة الزمر فهذا الخطاب موجه للرسـول ﷺ والمقصود أمتـه لأن الله قد عصمـه من الشرك . وقال تعالى :
﴿ . . . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قـولاً كـريماً ، واخفض لهمـا جنـاح الـذل من الـرحمـة . .﴾ جـزءين من آيتي ٢٣ - ٢٤) من سـورة الاسراء . فالخطاب هنا للرسول ﷺ ، ومعلوم أن أبويه لم يبلغا ولا أحدهما الكبـر عنده لأن أبـاه مات وهو حمل ، وأمه ماتت وهو صغير جداً .
فدل هذا على أن المراد أمته . وبه يتجه القول الثالث وهو أن المراد بقوله : **أو لتعـودن في ملتنا** أي من آمن مع الأنبياء لا الأنبياء وأما توجيه القول الثالث فلأن العرب قد كثر استعمالهم لعاد وغيرها من الألفاظ بدل صـار حتى كادوا لا ينـطقون بكلمـة صار إلا قليـلاً فقد استعملوا عشـرة ألفاظ بكثرة بدلها وأكثر هذه الألفاظ استعمالاً (عـاد)، ولذلـك هي التي استعمل القـرآن الكريم كما هنا وفي سورة الاعراف في قوله تعالى : **﴿قال المـلأ الذين استكبـروا من قومـه لنخرجنـك بشعيب والـذين آمنوا معـك من قريتنـا أو لتعودن في ملتنـا . .﴾** جـزء من آيـة (٨٨) من سـورة الأعراف . والألفاظ العشرة هي : تحول، آ ص، عاد، رجع، راح، غدا، استحال، ارتد، قعد، حـار، قال الخضـري في حاشيتـه على ابن عقيل، وقـد جاء مثـل صار في العمـل والمعنى ما جمعتـه بقولي : بمعنى صارفي الافعال عشـر . . تحـول آض عـاد ارجـع لتغنم . . . ورا غـدا استحال ارتد فاقعد . . وحار فهاكهـا . والله أعلم . . ثم قال : وقـد استعملوا كان وظـل وأضحى وأصبح وأمسى بمعنى صار كثيراً نحو **﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾** آية (١٩) من سورة النبأ طالع حاشية الخضري على ابن عقيل جـ ١ ص ١١٢ ط عيسى البابي الحلبي وشركاؤه .
بهذا يتجه القول الرابع، وقد اقتصر الزمخشري على هذين الجوابين اللذين اخترنا ولم يذكـر غيرهما فانظره هنا .

الفصل الثالث

الربط بين رسالات السماء ومصير المكذبين

قوله تعالى : ﴿ ... فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾(١)

تمهيد :

إن الله تبارك وتعالى أرسل للناس رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس عليه حجة بعد الرسل ، وإثبات رسالتهم بالمعجزات التي يؤيدهم الله بها تصديقاً لما أخبروا به عن ربهم ، وإذا ثبتت رسالتهم من الله قامت الحجة على من أرسلوا اليهم فمن هداه الله للايمان بما جاءو به كان مصيره خيراً اذ فاز بسعادة الدارين ، ومن لم يوفقه الله للايمان بما جاءو به كان مصيره عذاب الدنيا والآخرة الذي لا ينقطع ولا يخفف عنه منه بحيث لا يقضي عليه فيموت ولا يخفف عنه من العذاب .

وقد بينت هذه السورة الكريمة الربط بين رسالات الأنبياء ومصير أممهم فقد بينت لنا تقارب أحوال الرسل في دعوتهم وأن دعوة هذا الى الحق هي دعوة هذا بعينها وأن أتباع هذا الرسول الذين كذبوه يحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم من المكذبين أو أشد .

---

(١) جزء من آية (١٤) من سورة إبراهيم .

وأنه ما من نبي أرسله الله الا كذبه قومه وتتابعت الأمم على ذلك كما قال تعالى :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]

وسترى إن شاء الله في الآيات التالية مصير المكذبين لرسل الله وكيفية عذابهم في الآخرة ومخاصمة الأتباع والمتبوعين في النار الى غير ذلك مما يرغب السامع في اتباع دعوة الحق ، وينفره من الإعراض عنها وعن السخرية من أهلها .

رسالات السماء

إن رسالات السماء وحدة متكاملة في حلقات متصلة يصدق ، اللاحق من الرسل السابق له ويبشر السابق بمن بعده ، وموضوع الرسالة واحد ، لأن كل رسل الله دعوا الى توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، وكلهم دعوا الى شرع الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وكل الرسل دعوا الى مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال ، وبينوا الحلال والحرام وبشروا وأنذروا ودعوا الى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر والايمان بالمغيبات ، أدوا الأمانة جميعاً ونصحوا الأمم وبلغوا الرسالة وجاهدوا في الله حق الجهاد .

وختمت هذه الرسالات برسالة محمد ﷺ رسالة الاسلام ديناً عاماً خالداً صالحاً لكل زمان ومكان .

ولما كان هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ كاملاً شاملاً خالداً مؤيداً . وافياً بشؤون الحياة ومتطلباتها قطع الله الرسالة به وختم الأنبياء بصاحبه كما

---

(١) آية (٤٤) من سورة المؤمنون .

قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ... ﴾(1)

ومما يدل على وحدة الرسالة والربط بينها قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... ﴾(2)

وقوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا (١٦٣) ﴾(3) .

وقال تعالى : عن عيسى عليه السلام ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد .... ﴾(4) .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا

---

(1) جزء من آية (٤٠) من سورة الأحزاب .

(2) جزء من آقية (١٣) من سورة الشورى .

(3) آية (١٦٣) من سورة النساء .

(4) جزء من آية (٦) من سورة الصف .

﴿... مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[1]

الربط بين مصير الأمم

كما ربط القرآن الكريم بين رسالات الأنبياء وجعلها وحدة متكاملة . ربط كذلك بين مصير الأمم المكذبين متأخرهم ومتقدمهم فأهلك هؤلاء في الدنيا وعذبهم في الآخرة كما أهلك أولئك في الدنيا وعذبهم في الآخرة .

وكان أنبياء الله يحذرون أممهم مما أصاب من قبلهم من العذاب فهذا نبي الله هود قال لقومه: ﴿ ... **واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ..** ﴾[2]

وهذا نبي الله صالح يقول لقومه : ﴿ .. **واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾[3] .

وهذا نبي الله شعيب يقول لقومه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[4]

وقال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾[5]

---

(١) آية (٨١) من سورة آل عمران .

(٢) تقدمت .

(٣) تقدمت .

(٤) آية (٨٩) من سورة هود.

(٥) آيتي (٣٨ ـ ٣٩) من سورة الفرقان .

وقال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1] . وهذا كثير في القرآن جداً[2] .

وفي الحقيقة أن هذا الفصل يدور حول أمور:

الأول : بيان وحدة رسالات السماء والربط بينها وبيان أنها سلسلة متكاملة تدعو الى مبدأ واحد هو : انقاذ العباد من الكفر الى الايمان وعبادة رب واحد فرد صمد .

وأمران آخران رئيسيان هما : بيان صفات الكفار والمعاندين وما ينتظرهم من عقاب في الدنيا والآخرة هذا أولاً .

وثانياً : صفات المؤمنين المطيعين وما أعد لهم من سعادة في الأولى والآخرة ، فالكافرون والظالمون حتم الله إهلاكهم بسبب ظلمهم وكفرهم وجبروتهم وعنادهم وتبديلهم نعمة الله كفراً وإحلالهم قومهم دار البوار وجعلهم لله أنداداً وإضلالهم الناس عن سواء السبيل .

---

(١) الآيات من (٣٨ ـ ٤٠) من سورة العنكبوت .

(٢) طالع بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة اللجنة الأولى اعداد الشيخ أبو طالب شاهين .

وهؤلاء ينتظرهم من الله سبحانه وتعالى الدمار والهلاك بشتى أنواع الإهلاك ففي الدنيا الدمار بأسوأ أنواع الهلاك .

وفي الآخرة أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . . ومأويهم جهنم يشربون من الصديد الذي يتجرعونه ولا يكادون يستسيغونه ، ويأتيهم الموت والرعب والخوف . . من كل مكان وليسوا بميتين لأن الله جعلهم أحياء ليذوقوا العذاب الغليظ ﴿ . . . وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾[1]

أما المؤمنون فقد وعدهم الله تعالى بالإسكان في الأرض يعني أرض الكفار بعد هلاكهم يعمرونها ويحيون فيها حياة طيبة كما قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ . . . ﴾[2] .

هذا في الدنيا .

أما في الآخرة فهم أهل الجنة ينعمون فيها ، وذلك بسبب إيمانهم وخوفهم مقام ربهم ووعيده كما قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[3] .

---

(١) جزء من آية (١٥) وآيتي (١٦) و (١٧) من سورة ابراهيم .

(٢) جزء من آية (٥٥) من سورة النور .

(٣) آية (٤٦) من سورة الرحمن .

واقامتهم الصلاة وايتائهم الزكاة كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] .

وسترى تفصيل ذلك في مواضعه من هذا الفصل إن شاء الله .

معنى الآية

تقدم الكلام على أول الآية وهو قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ... ﴾[2] .

وسأتكلم الان على قوله تعالى : ﴿ ... **فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾ . أوحى الله جل وعلا الى رسله وأقسم لهم بأنه سيهلك الظالمين أي المكذبين لهم وأنه يورثهم الأرض من بعدهم أي أرض الظالمين التي كانوا يسكنون ونظير هذا قوله تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ... ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ... ﴾[4] .

قال الزمخشري : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5] حكاية تقتضي اضمار القول أو إجراء الايحاء مجرى القول لأنه ضرب منه إ . هـ .

---

(١) آية (٥٦) من سورة النور .

(٢) جزء من آية (١٣) من سورة إبراهيم .

(٣) جزء من آية (١٣٧) من سورة الأعراف .

(٤) جزء من آية (٢٧) من سورة الأحزاب .

(٥) سورة إبراهيم الآية ١٣ .

ولما أقسم الكفار على اخراج الرسل من الأرض ، أو عودتهم الى ملتهم ، أقسم الله تعالى على اخراج الكفار من أرضهم وإقامة الرسل وأتباعهم مقامهم ، فقوله : ﴿ ... ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[1] .

في ذلك أي توريث الأرض الأنبياء بعد إهلاك الظالمين لمن خاف مقامي وخاف وعيد، فقوله: ﴿ مقامي ﴾ يحتمل أن يكون مصدراً ميمياً ويحتمل أن يكون اسم مكان ، قال الفراء هو مصدر أضيف الى فاعله أي لمن خاف قيامي عليه بالحفظ لأعماله ومراقبتي اياه كقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[2]

وقال الزجاج إنه اسم مكان أي خاف وقوفه بين يدي للحساب وهو موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتن[3] ﴾[4]

وقوله ﴿ وَخَافَ وَعِيد . . ﴾ أي خاف ما أوعدت به من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾[5] .

اختلف المفسرون في معنى هذا الاستفتاح فقال بعضهم إن المراد به الاستنصار أي استنصر الأنبياء الله على أعدائهم فنصرهم كقوله : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ . . ﴾[6] ،

---

(١) جزء من آية (١٤) من سورة إبراهيم
(٢) جزء من آية (٣٣) من سورة الرعد .
(٣) تقدمت .
(٤) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤١١ ـ ٤١٢ المصدر السابق .
(٥) آية (١٥) من سورة إبراهيم .
(٦) جزء من آية (١٩) ن سورة الأنفال .

وقيل إنه من الفتاحة وهي الحكومة أي استحكم الأنبياء الله وطلبوا منه القضاء بينهم وبين الأمم كما في قول شعيب عليه السلام : ﴿ ... رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[1] .

وقال ابن زيد : إن الضمير في قوله : واستفتحوا عائد على الأمم أي واستفتح الكفار كما قالت قريش : ﴿ ... رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾[2]

وقولهم ﴿ ... ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[3]

فكأنهم لما طال تكذيبهم ولم يعاجلوا بالعقوبة ظنوا أن ما جاءبه الرسل باطل وأنهم على حق فاستفتحوا تهكماً واستهزاء كما قال قوم نوح ﴿ ... فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[4]

وقول قوم عاد : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[5]

الى غير ذلك من الآيات[6] وجمهور المفسرين على خلاف قول ابن زيد وقالوا إن الضمير في استفتحوا عائد على الرسل وقوله .. ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي هلك كل متكبر جائر حائد عن الاقرار بتوحيد الله واخلاص العبادة

---

(١) جزء من آية (٨٩) من سورة الأعراف .

(٢) جزء من آية (١٦) من سورة ص .

(٣) جزء من آية (٣٢) من سورة الأنفال .

(٤) جزء من آية (٣٢) من سورة هود .

(٥) آية (١٣٨) من سورة الشعراء .

(٦) انظر البحر المحيط لأبي حبان جـ ٥ ص ١٢٩ المصدر السابق .

له ، والعنيد والعاند والعنود بمعنى واحد[1] وقوله : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ ﴾[2] .

لما وصف الله تعالى المكذبين بالهلاك والخيبة ذكر لنا أنواعاً من عذابهم ومصيرهم يوم القيامة فقال: ﴿ من ورائه جهنم ﴾ أي أمام هذا الجبار المتكبر جهنم لأن الوراء يستعمل في الامام ، قال الشاعر[3]

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

وقيل : إن الوراء من الأضداد يقع على الخلف والقدام ومنه قوله تعالى :

﴿ ... وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾[4]

وقيل : الوراء يطلق بمعنى البعدية فيكون المعنى : من بعده جهنم أي من بعد خيبته جهنم ، ذكر ذلك الرازي ، وقال ابن جرير : من ورائه جهنم أي أمام كل جبار جهنم يردونها ووراء في هذا الموضع بمعنى أمام كما يقال : إن الموت من ورائك أي قدامك فانظره هنا ، وقوله : (ويسقى معطوف على محذوف تقديره : من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد كأنه أشد عذابها) . قوله تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ ﴾[5]

---

(١) انظر تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٩ المصدر السابق .

(٢) آية (١٦) من سورة إبراهيم

(٣) البيت لهدبة بن خشرم العذري انظر تعليق محمد محي الدين عبد الحميد علي ابن عقيل جـ ١ ص ٣٢٧ .

(٤) جزء من آية (٧٩) من سورة مريم .

(٥) آية (١٧) من سورة إبراعيم .

قوله يتجرعه : قال أبو السعود أن المراد منه الاستئناف لا الحال ولا الصفة للماء كأنه قيل فماذا يفعل به ؟ قيل يتجرعه أي يتكلف جرعه[1] وكذلك قال صاحب الكشاف فانظره أخبر تعالى أن الجبارين المتكبرين عن الحق في دار الدنيا واتباع رسل الله مصيرهم في الآخرة الخلود في جهنم يلقون فيها ويسقون من ماء صديد يسيل من جلود أهل النار يتكلفون استساغته ولا يكادون أي لا يقاربون أن يستسيغوه وقيل إن الصديد هو القيح والدم، فقوله صديد عطف بيان على ماء .

وقوله : ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت : كأن أصناف الموت وأسبابه كلها تألبت عليه وأحاطت به من جميع الجهات تفظيعاً لما يصيبه من الآلام ، وقيل : من كل مكان من جسده حتى من ابهام رجله ، وقيل من أصل كل شعرة ، ومن ورائه أي من بين يديه عذاب غليظ أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ[2]

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ ﴾[3]

لم تزل الآيات تتوالى وتحكي لنا مصير الكافرين المكذبين لدعوة الحق العاندين والمعادين لرسل الله عليهم الصلوات والتسليم، فتحكي لنا الآية الكريمة صفة أعمال الكفار التي كانوا يعملونها في الدنيا ويظنون أنها تنفعهم فأخبرتنا أنها كرماد اشتدت به الريح فلم يقدروا على شيء منها، واختلف

---

(١) انظر تفسير أبي السعود هنا .

(٢) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٧١ المصدر السابق .

(٣) آية (١٨) من سورة إبراهيم

علماء العربية في رافع مثل فقال بعضهم إنه مبتدأ وخبره محذوف تقدير عند سيبويه فيما يتلى عليكم مثل، والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة، وأعمالهم كرماد مبتدأ وخبر جملة استئنافية على تقدير سؤال كأنه قيل كيف مثلهم؟ فقيل أعمالهم كرماد كما تقول صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول، وقيل إن مثل رفع بالابتداء وأعمالهم بدل من مثل بدل اشتمال وكرماد الخبر وقيل مثل مبتدأ وأعمالهم مبتدأ ثان وكرماد الخبر الثاني والجملة خبر المبتدأ الأول وهذا القول رجحه ابن عطية ورده أبو حيان وقال إنه لا يصح لعدم الرابط في الجملة الأخيرة وذكر أن الحوفي قال بهذا القول أيضاً ولكنه [illegible]جعده ورده لأن الجملة ليست نفس المبتدأ ولا تشتمل على رابط[1] وقيل إن تقدير الكلام على الغاء مثل والتقدير: والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد، وليس هذا القول يوجبه عندي لعدم الداعي إليه ولأن الأسماء لا تزاد وإنما الزيادة في الحروف والقرآن ينزه عن الغاء شيء منه إذ ليس فيه حشو، والمعنى على كل حال أن أعمال الكفار محبطة غير مقبولة والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء فضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف والعصف شدة الريح، ووصف اليوم بالعصوف مع أن العُصوف للريح قيل لأن الريح تكون فيه فجاز أن يقال يوم عاصف كما يقال يوم حار ويوم بارد لأن الحر والبرد فيهما. وقيل المراد في يوم عاصف الريح لأنها ذكرت في أول الكلام، وقيل إنه نعت للريح غير أنه لما جاء بعد اليوم اتبع إعرابه فجر بالمجاورة كما قالوا جحر ضب خرب[2] وقوله: ﴿ لا يقدرون ﴾ يعنى أن الكفار لا يقدرون ﴿ على شيء مما كسبوا ﴾ في الآخرة أي من ثواب ماعملوا من البر في الدنيا كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين

---

(١) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤١٥ المصدر السابق .

(٢) انظر القرطبي جـ ٥ ص ٣٥٨٢ المصدر السابق .

وإطعام الجائع، ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾[1].
أي الخسران الكبير، وقال ابن جرير ذلك هو الضلال البعيد أي الخطأ البين البعيد عن طريق الحق فانظر فيه، قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾[2]
يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ألم تر يا محمد بعين قلبك فالرؤية هنا قلبية فتعلم أن الله أنشأ السماوات والأرض بالحق منفرداً بذلك من غير ظهير ولا معين، وقوله: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُم وَيأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيد ﴾،
معناه أن الذي تفرد بخلق ذلك وانشائه من غير معين ولا شريك إن شاء أن يذهبكم فيفنيكم أذهبكم وأفناكم وأتى بخلق جديد سواكم مكانكم، وما ذلك أي إفناؤكم وانشاء خلق آخر جديد مكانكم بمتعذر عليه ولا ممتنع لأنه القادر على ما يشاء[3].

وقوله بالحق أي بالحكمة والأمر العظيم، ولم يخلق ذلك عبثاً ولا سهوا كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ .. ﴾[4]
وقيل إن معنى خلق السماوات والأرض متلبساً بالحق، فالجار والمجرور في موضع الحال، قال أبو حيان والظاهر أن قوله: ﴿يذهبكم﴾ خطاب عام للناس وعن ابن عباس خطاب للكفار ويأت بخلق جديد يحتمل أن يكون المعنى يذهبكم أيها الناس ويأت بناس آخرين آدميين من جنسكم ويحتمل من غير جنسكم والأول قول جمهور المفسرين وذكر انه حقق في سورة النساء عند قوله

---

(١) جزء من آية (١٨) من سورة إبراهيم.
(٢) آية (١٩) من سورة إبراهيم.
(٣) طالع تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٣٢ المصدر السابق.
(٤) جزء من آية (٢٧) من سورة صۤ.

تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ...﴾[1]

أنه لا يحتمل إلا الوجه الأول فانظره، قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾[2]

تقدم معناه في تفسير الآية السابقة، قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾[3]

لما ذكر الله مصير هؤلاء المكذبين وأنواع.. عذابهم ذكر بعد ذلك نوعاً آخر من العذاب وهو افتضاح الرؤساء وخجلهم أمام أتباعهم ومخاصمة الجميع أمام الله تعالى:

قوله: ﴿وبرزوا﴾ أي ويبرزون يوم القيامة وإنما جيء بلفظ الماضي لأن ما أخبر الله به لتحقق وقوعه كأنه كان ووجد ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾[4]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[5]

وأمثال ذلك ومعنى بروزهم لله والله لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له أنهم كانوا يستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله

---

(١) جزء من آية (١٣٣) م سورة النساء.

(٢) آية (٢٠) نم سورة إبراهيم.

(٣) آية (٢١) من سورة إبراهيم.

(٤) جزء من آية (٤٨) ن سورة الأعراف.

(٥) جزء من آية (٤٤) من سورة الأعراف.

تعالى فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية، أو المعنى: خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه[1] والضعفاء هم العوام والأتباع، والذين استكبروا هم الرؤساء والقادة الذين أغووا العوام وصدوهم عن اتباع الرسل، يخاطبونهم بين يدي الله قائلين لهم

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾[2]

(فمن) في الموضعين للتبعيض أي فهل أنتم مغنون عنا بعض شيء؟ هو عذاب الله أي بعض عذاب الله، ذكر ذلك الرازي وقال الزمخشري: يحتمل أن تكون الأولى للتبيين والثانية للتبعيض أي فهل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويحتمل أن يكونا معاً للتبعيض كما قال الرازي، ورد أبو حيان هذا القول وأطال في رده فانظره. والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع والا فقد علموا أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً، والمعنى: إنا تبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال كما أمرتمونا وما أغنيتم عنا شيئاً، فلذلك جاء الجواب من الرؤساء ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾[3]

قالوا ذلك على سبيل الاعتذار والخجل، وردوا الهداية لله تعالى: أي لو أرشدنا الله لأرشدناكم، وقوله: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾[4]

يقولون لهم أي يقول القادة للاتباع سواء علينا أي مستو علينا الجزع والصبر، والهمزة وأم للتسوية، ثم قالوا لهم ما لنا جميعاً من محيص أي منجي من العذاب ومهرب وملجأ، والمعنى أننا ما لنا وجه نتباعد به عن النار.

روى أن أهل النار يقول بعضهم لبعض يا هؤلاء قد نزل بكم من البلاء

---

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٢ المصدر السابق.

(٢)(٣)(٤) جزء من آية (٢١) من سورة إبراهيم.

والعذاب ما قد ترون فهلم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم فجزعوا فنادوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ذكر هذا الأثر القرطبي عن محمد بن كعب القرطبي[1] قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[2].

هذا نوع آخر من أنواع العذاب للمكذبين لدعوة الرسل وهو تبرؤ إبليس اللعين منهم على رؤوس الأشهاد وإخباره لهم بأنه وعدهم وعداً كاذباً وأنهم ليست لهم حجة عليه، وإنما يلومون أنفسهم لأنه ما زاد على أن دعاهم إلى الباطل وزين لهم ووسوس فاستجابوا له، ولا إغاثة منه لهم ولا منهم له.

قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ الآية يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه يوم القيامة لما قضى الله بين عباده وأدخل عباده المؤمنين الذين اتبعوا الرسل الجنات، وأسكن الكافرين الذين كذبوا الرسل أسفل الدركات.

وقد استظهر ابن كثير أن هذه الخطبة من إبليس بعد دخول أهل النار النار ودخول أهل الجنة الجنة كما ذكرنا، ولكنه ذكر حديثاً طويلاً رواه ابن أبي حاتم وابن جرير يدل على أن هذه الخطبة وقعت بعد القضاء بين الخلق وقبل

---

(١) القرطبي جـ ٥ ص ٣٥٨٤ المصدر السابق.

(٢) آية (٢٢) من سورة إبراهيم.

افتراق الفريقين فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير، وعلى كل فإنه قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي بالبعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصي فصدق وعده، ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ أنا أنه لا بعث ولا نار ولا جنة ولا ثواب ولا عقاب ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كما ذكر الله ذلك في قوله: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾[1]

ثم يقول لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي لم يكن لي دليل ولا برهان فيما وعدتكم به أي ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينته لكم في دار الدنيا، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي لكني دعوتكم فأغويتكم فاتبعتموني واستجبتم لي باختياركم.

وقيل المعنى: وما كان لي عليكم من سلطان أي على قلوبكم وموضع إيمانكم، ولكن دعوتكم فاستجبتم لي وإذا ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فإنكم اتبعتموني من غير حجة ولا برهان يستوجب اتباعكم إلي، فاللوم عليكم وحدكم دوني، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي لست بمغيثكم ولستم بمغيثي، يقال صرخ فلان يصرخ صراخاً وصراخاً وصرخة إذا استغاث، والمصرخ المغيث، والمستصرخ المستغيث[2].

ثم قال في آخر خطبته ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿ما﴾ في قوله: بما أشركتمون مصدرية ومن قبل متعلق بأشركتمون والمعنى: اني كفرت اليوم باشراككم إياي من قبل هذا اليوم في دار الدنيا كما قال تعالى: ﴿.. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾[3].

---

(١) آية (١٢٠) من سورة النساء.

(٢) طالع القرطبي جـ ٥ ص ٣٥٨٦ المصدر المتقدم.

(٣) جزء من آية (١٤) من سورة فاطر.

وقيل: إنها موصولة بمعنى الذي، ومن قبل متعلق بكفرت أي كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو الله عز وجل، وذكر هذين القولين أبو حيان، وقال ان القول الثاني فيه اطلاق لفظة ﴿ما﴾ على الله تعالى والأصح في ﴿ما﴾ أنها لا تطلق على أحاد من يعلم هكذا قال وليس قوله بمسلم عند البعض، وقيل: ان المعنى اني جحدت أن أكون شريكاً لله فيما أشركتموني فيه من عبادتكم من قبل في الدنيا ذكر هذا ابن جرير هنا فانظره .

واختلف في قوله: ﴿ ... إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1] فقيل إنه من كلام إبليس كما قدمنا حكى الله عنه ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون تنبيهاً للسامعين على النظر في عاقبتهم، وللاستعداد لما لا بد منه وأن يتصوروا ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم من ذلك الموقف وينجيهم واستظهر هذا القول أبو حيان .

وقيل هو من كلام الله تعالى، وقيل من كلام الخزنة[2] وقد اقتصر ابن جرير على القول الأول .

مصير المؤمنين برسل الله :

لما ذكر الله تعالى حال أهل النار الذين كذبوا رسل الله في دار الدنيا ومصيرهم السيء ومخاصمتهم فيما بينهم وعجز الرؤساء عن منفعة المرؤوسين، وتوبيخ الشيطان لهم حيث أخبرهم أنه لم يقم لهم حجة على ما دعاهم إليه،وإنما وسوس لهم وزين لهم الهلاك فاتبعوه دون مبرر، لما عرض القرآن علينا ذلك كله ذكر لنا مصير المؤمنين برسل الله العاملين وفق ما أمرهم

---

(١) جزء من آية (٢٢) من سورة إبراهيم .

(٢) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٢ المصدر السابق .

الله به وأمرتهم رسله فقال: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]

يخبر تعالى أنه يدخل المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الأعمال الصالحة في دار الدنيا جنات تجري من تحتها الأنهار، أو تدخلهم ملائكته تلك الجنات أي يدخلون في جنات من جنان الجنة، وهذه الجنان تجري من تحتها الأنهار ويدخلونها مقدرين الخلود فيها إلى الأبد ﴿بإذن ربهم﴾ أي بأمره، وقيل بمشيئته وتسيره، وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فيها سلامٌ﴾ أي تحية الله لهم، وقيل تحية الملائكة لهم، وقيل تحية بعضهم لبعض سلام[2] .

وأقول إن لكل من هذه الأقوال الثلاثة دليلاً من القرآن .

فدليل القول الأول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[3]

ودليل القول الثاني قوله تعالى: ﴿ . . وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[4] .

ودليل القول الثالث قوله تعالى في هذه الآية وفي سورة يونس تحيتهم فيها سلام على أحد التأويلات فيها فإن كثيراً من العلماء قالوا: إن المراد به

---

(١) آية (٢٣) من سورة إبراهيم .

(٢) طالع تفسير القرطبي في تفسير سورة يونس عند قوله تعالى: وتحيتهم فيها سلام .

(٣) الآيات من (٥٥ ـ ٥٨) من سورة يس .

(٤) آية (٢٤) وجزء من آية (٢٣) من سورة الرعد .

تحية بعضهم لبعض، والتحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة، ومعنى السلام السلامة من كل مكروه فهو مشتق من السلامة، فهؤلاء سلموا من آفات الدنيا وحسراتها ومن عذاب الآخرة وأهوالها وغمومها .

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[١].

لما ذكر الله مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . . ذكر مثل أعمال المؤمنين فضرب لذلك مثلاً، وفسر ذلك المثل بأنه الكلمة الطيبة، قال ابن عباس: الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة: المؤمن، وقال ابن جريج: الكلمة الطيبة: الإيمان، وقال مجاهد وعكرمة: الشجرة الطيبة النخلة، وعليه فالمعنى: أصل الكلمة الطيبة في قلب المؤمن وهي كلمة التوحيد مثل النخلة، شبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة، وشبه ثواب الله له بالثمر وعلى هذا المعنى يكون قوله: كلمة بدلاً من قوله مثلاً، ومثلاً مفعول به لضرب[٢] .

وعن ابن عباس أن الشجرة المذكورة هنا شجرة من شجر الجنة، وقوله تعالى: ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ ﴾[٣]

قيل غدوة وعشياً، وقيل كل شهر، وقيل كل شهرين، وقيل: كل ستة أشهر، وقيل كل سبعة أشهر، وقيل كل سنة .

---

(١) آيتي (٢٤ و٢٥) من سورة إبراهيم .

(٢) انظر القرطبي جـ ٥ ص ٣٥٩٠ المصدر السابق .

(٣) جزء من آية (٢٥) ن سورة إبراهيم .

قلت: على القول بأن المراد بالشجرة النخلة كما فسرها بذلك كثير من المفسرين ونقلوه عن المتقدمين يكون أقرب الأقوال الى الصواب في معنى إتيانها ثمرها كل حين أنه كل سنة لأن ذلك شأن النخلة وليس من شأنها أن تؤتى أكلها كل غدوة وعشية، ولا كل شهر، ولا شهرين... وإنما يصح هذا على قول من قال إنها شجرة من شجر الجنة كما روى عن ابن عباس وغيره، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي بإرادته ومشيئته[١].

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[٢] يضرب الله جل وعلا الأمثال للناس أي الأشباه لعلهم يعتبرون بها لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وفيه تذكير وتصوير للمعاني، قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[٣].

ضرب الله تعالى المثل أيضاً للكافر وعمله فأخبر أن كلمة الكفر مثل شجرة خبيثة، واختلف في هذه الشجرة الخبيثة أيضاً كما اختلف في الشجرة الطيبة، واختلف أيضاً في الكلمة الخبيثة فقيل: إن الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر كما أن الكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد، وقيل هي الكافر نفسه كما قيل إن الكلمة الطيبة هي نفس المؤمن وان كنا لم نذكره، وقيل: إن الشجرة الخبيثة هي شجرة الحنظل، قال ذلك ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وعن ابن عباس أن الشجرة الخبيثة شجرة لم تخلق على وجه الأرض، وقيل إنها شجرة الثوم[٤] وعلى كل حال ففي هاتين الآيتين الحث على العمل الصالح

---

(١) طالع أبا السعود جـ ٣ ص ١٢٤ - ١٢٥ ط أولى محمد محمد عبد اللطيف المكتبة الحسينية المصرية.

(٢) جزء من آية (٢٥) نم سورة إبراهيم.

(٣) آية (٢٦) من سورة إبراهيم.

(٤) انظر القرطبي جـ ٥ ص ٣٥٩٠ - ٣٥٩١ المصدر السابق.

والترغيب فيه وتصويره في حالة رائعة جميلة مشوقة، كما أن فيهما التنفير من الأعمال السيئة وتصويرها في حالة سيئة منفرة مشوهة، وفيها أيضاً ضرب الأمثال لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم غالباً فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل الفهم وتوصل إلى المطلوب[١].

وقوله تعالى: ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[٢]

هذه صفة ثانية لهذه الشجرة الخبيثة فأخبر أنها اقتلعت من فوق الأرض أي اقتلعت من أصلها يعني أنها ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض، أي ليس لها أصل في الأرض ولا ثبات، فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه ولا يصعد له عمل طيب ولا قول صالح[٣] قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[٤].

في هذه الآية أسلوبان من أساليب الدعوة وهما أسلوب الترغيب والترهيب، فإذا كان القول الحق الذي هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يثبت الله صاحبه في الدنيا عليه بحيث لا يزل ولا يتزعزع عند ورود الشبه ويثبته كذلك إذا وضع في قبره وجاءه الملكان الموكلان بسؤال القبر حتى يجيبهم بما كان عليه في دار الدنيا فإن هذا من أعظم أنواع الترغيب في الإيمان، وإذا كان الله لا يوفق الكافر والمنافق لما هدى اليه المؤمن مما يكون

---

(١) طالع تفسير الفخر الرازي جـ ١٩ ص ١٢٠ ـ ١٢١ المصدر السابق.

(٢) جزء من آية (٢٦) من سورة إبراهيم.

(٣) طالع القرطبي في الصفحة المتقدمة.

(٤) آية (٢٧) من سورة إبراهيم.

سبباً في ثباته في حياته وآخرته فإن في هذا أعظم تنفير عن الكفر والنفاق، وقد اختلف في وقت هذا التثبيت فالصحيح الذي عليه الجمهور ودلت له الأحاديث الكثيرة أن هذا التثبيت المذكور في الدنيا بتثبيتهم على الحق بحيث لا يزيغون عنه بهداية الله وتوفيقه لهم وتثبيتهم في الآخرة هو ثباتهم على ما كانوا عليه من التوحيد والإيمان بالنبي ﷺ عند فتنة القبر، وقيل إن المراد بالتثبيت في الآخرة؛ هو ثباتهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم تحيرهم أهوال الساعة عما كانوا عليه من الايمان الحق ذكر هذا القول الزمخشري، وأقول: إذا ثبت عن الشارع إن أهل الحشر يسألون عن معتقدهم ودينهم كان لهذا القول وجه من النظر وإذا لم يثبت ذلك فيتعين حمل التثبيت في الآخرة على سؤال القبر لثبوته عن الشارع والله أعلم.

وإنما أطلق على صاحب القبر أنه من أهل الآخرة لأنه انقطع من أحكام الدنيا بالموت ودخل في أحكام الآخرة ومعنى الآية أن الله تعالى يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وذلك تثبيته اياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ وفي الآخرة بمثل الذي ثبتهم به في الحياة الدنيا وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ وقوله: ﴿ويضل الله الظالمين﴾ يعني أن الله لا يوفق المنافق والكافر في الحياة الدنيا وفي الآخرة عند المسألة في القبر لما هدى له المؤمن من الإيمان بالله ورسوله ﷺ[1] ولست أريد أن أطيل الكلام في شأن سؤال القبر واثباته لأن ذلك معلوم عند الجميع ولله الحمد فليراجع في مواضعه.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ

---

(١) طالع ابن جرير عند تفسير الآية فقد ذكر أحاديث كثيرة ثبت سؤال القبر وذكر آثاراً كثيرة عن السلف فسروا بها الآية كما ذكرنا جـ ١٣ ص ١٤٢ ـ ١٤٥ المصدر السابق.

ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[1]

يبدأ هذا الشوط الثاني من نهاية الشوط الأول قائماً عليه متناسقاً معه مستمداً منه .

لقد تضمن الشوط الأول رسالة الرسول ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ورسالة موسى عليه السلام لقومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويذكرهم بأيام الله فبين لهم وذكرهم بنعمة الله عليهم وأعلن لهم ما تأذن الله به لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد، ثم عرض عليهم قصة النبوات والمكذبين بدأها ثم توارى عن السياق وتابعت القصة أدوارها ومشهدها حتى انتهت بالكافرين الى ذلك الموقف الذي يستمعون فيه من الشيطان عظته البليغة حيث لا تنفع العظات، فالآن يعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد ﷺ بعدما عرض عليهم ذلك الشريط الطويل - أولئك الذين أنعم الله عليهم - فيما أنعم - بخروجهم من الظلمات إلى النور فإذا هم يكفرون النعمة ويردونها ويستبدلون بها الكفر ويؤثرونه على الرسول وعلى دعوة الإيمان معنى الآية يقول تعالى: ألم تنظر يا محمد إلى حال هؤلاء القوم الذين بدلوا نعمة الله عليهم ببعثتك فيهم ومنهم فأخرجك منهم وبعثك فيهم رسولاً ورحمة لهم ونعمة عليهم فكفروا بك وكذبوك فبدلوا نعمة الله عليهم بك كفراً، وأنزلوا قومهم من مشركي قريش. دار البوار، وهي دار الهلاك يقال بار الشيء يبور بوراً إذا هلك وبطل[2] ثم بيّن تعالى دار البوار فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[3]

---

(١) آيتي (٢٨ و٢٩) من سورة إبراهيم .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٤٥ المصدر السابق .

(٣) آية (٢٩) من سورة إبراهيم .

فقوله جهنم عطف بيان على دار البوار، فأخبر أنهم يدخلون جهنم وبئس المستقر .

وفي هاتين الآيتين ما ينفر من استبدال نعم الله بالكفر والعصيان وفيهما التحذير لمن أنعم الله عليه بدعاة حق يدعونه إلى سواء السبيل يبينون له مبادىء دينه وينصحون له ويقربونه من الله ومن الجنة ويباعدونه من النار ففيهما التحذير من الاعراض عن هؤلاء الدعاة فإنهم نعمة أنعم الله بها على عباده حيث انقطعت الرسالة بعد بعثة نبينا محمد ﷺ ولكن الرسول ﷺ خلف بعده دعاة يدعون لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن أعرض عنهم وكفر بما دعوه إليه من الإيمان الحق بالله وبرسوله محمد ﷺ فقد أحل نفسه وأهله دار البوار جهنم. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾[1]

هذا من تمام الكلام قبله فالقرآن يحكي لنا أن هؤلاء الكفار استبدلوا نعمة الله التي هي بعثة محمد ﷺ اليهم كفراً وأنهم جعلوا لله شركاء معه في العبادة يعبدونهم كعبادته ويدينون لسلطانهم كما يدينون لسلطانه ويعترفون لهم بما هو من خصائص ألوهيته جل وعلا، وقد جعلوا هذه الأنداد ليضلوا الناس عن سبيل الله المستقيم الحق أي عن دينه ،وعلى قراءة فتح الياء من يضلوا فالمعنى أنهم جعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيل الله ، قال القرطبي أي عاقبتهم إلى الاضلال والضلال فهذه لام العاقبة فانظره هنا، ثم توعدهم الله تعالى فقال لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء ﴿تمتّعوا﴾ في حياتكم هذه ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾[2]

---

(١) آية (٣٠) من سورة إبراهيم .

(٢) جزء من آية (٣٠) من سورة إبراهيم

ففيه اشارة إلى تقليل وتحقير ما هم فيه من ملاذ الدنيا لأنه منقطع وأخبرهم أن مرجعهم ومردهم إلى النار.

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾(١).

لما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بلذات الدنيا، أمر المؤمنين بالمجاهدة بالنفس والمال فأمرهم بمجاهدة أنفسهم بإقام الصلاة، وأمرهم بالمجاهدة بالمال حيث أمرهم أن ينفقوا مما أعطاهم من المال من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا بيع فيه ولا خلال، أي لا فداء ولا مخاللة ولا قرابة، بل هو يوم يفر فيه من الخليل خليله، ويود فيه المراء لو لم يولد، يوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه، فكأن الله يقول لهم أنفقوا أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق في هذا اليوم الذي لا تحصل فيه مبايعة ولا مخاللة كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾(٢)

وقوله يقيموا الصلاة مضارع مجزوم وقع جواباً لأمر محذوف هو مقول القول تقديره: قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا: يقيموا الصلاة وينفقوا، ويجوز أن يكون أمراً هو مقول القول حذفت منه لام الأمر والأصل: ليقيموا الصلاة وإنما جاز حذف اللام لأن قوله قُلْ عوض عنه، وقد ذكر أبو حيان في البحر المحيط أعاريب غير ما ذكرت فليراجعه من شاء.

---

(١) آية (٣١) من سورو إبراهيم

(٢) جزء من آية (٢٥٤) من سورة البقرة

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1] .

(الاستدلال على وجود الصانع بالصنعة هدف من أهداف الدعوة) :

لما أطال الله الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء وكان حصول السعادة بمعرفة الله وصفاته، وحصول الشقاوة بالجهل بذلك ختم الكلام على ذلك بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته وارادته فذكر عشرة أنواع من الدلائل على وجوده تعالى فأخبر أنه خلق هذه السماوات التي نشاهدها مرفوعة بغير عمد ترى لا تشقق فيها ولا فطور ولا تتغير بطول الزمان، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والأشجار والبحار، وأنزل المطر من السماء فأخرج به للناس أنواع الثمار وأنبت به الكلأ لمواشيهم، وسخر الفلك أي السفن لبني البشر تجري في البحر لمنافع العباد يحملون فيها تجارتهم ويتنقلون عليها[2] كما قال تعالى : ﴿ .. وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾[3]

---

(١) آيات (٣٢ - ٣٤) من سورة إبراهيم .

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي جـ ١٩ ص ١٢٥ .

(٣) جزء من آية (١٦٤) من سورة البقرة .

ويدخل تحت تسخير السفن تسخير البحار وتسخير الرياح، كل هذا بأمره تعالى قال الزمخشري بقوله وسخر الأنهار بتفجيرها للانتفاع بها كالشرب وسقي الحرث وغير ذلك، وسخر الشمس والقمر دائبين أي في حال كونهما يدأبان في سيرهما وانارتهما وإصلاحهما ما يصلح بهما من الأرض والنبات والابدان وعن ابن عباس دائبين في طاعة الله وسخر الليل والنهار للعباد بأن جعلهما للمنام والمعاش، ولما ذكر ما تقدم من النعم العظيمة أخبر تعالى أنه لم يقتصر على ذلك فقال وآتاكم من كل ما سألتموه أي أعطى العباد كل ما سألوه، والمعنى أنه تعالى أعطى الانسان كل ما من شأنه أن يسأل وينتفع به، وان كان هذا لا يطرد في كل واحد واحد من آحاد الناس ولكن هذه النعم تفرقت في البشر فما لم يعط هذا أعطيه هذا فيقال بحسب هذا الجميع أوتيتم كذا على جهة التقرير للنعمة(١).

ثم قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(٢)

أخبر أن العباد إذا أرادوا أن يعدوا نعم الله على الاجمال لا يستطيعون الى ذلك سبيلاً ولا يطيقونه أما عدها على التفصيل فإنه لا يقدر عليه إلا الله تعالى، ثم قال تعالى: **﴿إن الانسان لظلوم كفار﴾** يعني أن جنس الانسان توجد فيه هاتان الخصلتان: الظلم، والكفر فيظلم النعمة بعدم شكرها ويكفرها بجحدها وقيل ظلوم في الشدة فيشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع، وقال ابن جرير يقول: إن الإنسان الذي يبدِّلُ نعمة الله كفراً لظلوم يقول: لشاكر غير من أنعم عليه فهو بذلك من فعله واضع الشكر في غير موضعه وذلك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم واستحق عليه اخلاص العبادة له فعبد غيره وجعل له انداداً ليضل عن سبيله وذلك هو ظلمه .

---

(١) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ المصدر السابق .

(٢) جزء من آية (٣٤) من سورة إبراهيم .

وقوله: كفار أي جحود لنعمة الله التي أنعم بها عليه لصرفه العبادة الى غير من أنعم عليه وتركه طاعة من أنعم عليه فانظر فيه هنا، إ.هـ.

٢ ـ الدعـوة في الآيات

اشتملت هذه الآيات التي ذكـرت في هذا البـاب على كثير من أهـداف الدعوة إلى الله تعالى وأساليبها .

١ ـ الأهداف :

١ ـ في الآيات الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا، وذلك في قوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾[١]

يعني أن وجود الله تعالى لا يمكن أن يشك فيه شـاك، وفيها لفت الأنـظار إلى الدليل على وجوده بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض، لأن هذه السماوات والأرضين لا يمكن وجودها دون موجد.

٢ ـ وفيها من أهداف الدعوة أيضـاً: الدعـوة إلى التوكـل على الله تعالى لأن ذلك هدف سام من أهداف الدعوة، وذلك في قول الله حكـاية عن رسله، ﴿.. وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٢]

---

(١) جزء من آية (١٠) من سورة إبراهيم .

(٢) جزء من آية (١١) وآية (١٢) من سورة إبراهيم .

٣ ـ كما أن في الآيات أيضاً هدفاً ثالثاً من أهداف الدعوة وهو بيان عاقبة المكذبين ومصيرهم وما أعده الله من العذاب للكفار الذين كذبوا دعاة الله من رسله فقد بينت كيفية عذابهم، وكيفية ذهاب أعمالهم التي عملوها في الدنيا من أنواع الخير فقد بينت أنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف .

ثم بعد ذلك بينت عاقبة المؤمنين الذين صدقوا رسل الله وآمنوا بما جاءوهم به عن الله جل وعلا وذلك في قوله: ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ (١٦) يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴾[1]

وفي قوله: ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ (٢٣) ﴾[2] .

٤ ـ كما دعت الآيات الى هدف آخر سام وهو: الإيمان باليوم الآخر حيث ذكرت ذلك اليوم الذي يجتمع فيه الخلائق ويتخاصم الاتباع والمتبوعون فيه ويطلب الأتباع من المتبوعين النفع ولم يحصلوا على شيء وبينت خطبة الشيطان وتبرأه من أتباعه على رؤوس الأشهاد وتوبيخه لهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ (٢١) وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا

---

(١) آيات (١٥ ـ ١٧) من سورة إبراهيم .

(٢) آية (٢٣) من سورة إبراهيم .

﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ . . .﴾[1] .

٥ ـ كما ذكرت الآيات سؤال القبر وبينت أن الله يثبت المؤمنين عند فتنة القبر على ما كانوا عليه من اليقين بالله جل وعلا ودين الاسلام ومحمد ﷺ، وأنه تعالى يضل الكافرين عن طريق الحق في ذلك الوقت كما كانوا عليه من قبل في دار الدنيا وذلك في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[2]

٦ ـ دعت الآيات الى اقامة شعائر الإسلام والمحافظة عليها فقد ذكر فيها الأمر باقام الصلاة التي هي عماد الدين والتي هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله، كما ذكرت قرينة الصلاة التي هي الزكاة بل دعت إلى مكارم الأخلاق لأن الانفاق يشمل الواجب والتطوع .

وذلك في قوله: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾[3]

إلى غير ذلك مما تضمنته هذه الآيات الكريمة من اهداف الدعوة إلى الله عز وجل .

٢ ـ الأساليب :

اشتملت آيات هذا الباب أيضاً على كثير من أساليب الدعوة المتنوعة .

---

(١) آية (٢١) وجزء من آية (٢٢) من سورة إبراهيم .

(٢) آية (٢٧) من سورة إبراهيم .

(٣) آية (٣١) من سورة إبراهيم .

١ ـ أسلوب الحوار فالحوار أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله لأنه أخذ ورد وتجاذب في الكلام ومناوبات، وأسئلة وأجوبة، وقد استعمله كثير من الرسل في دعوتهم كما تقدم عن موسى، وكما سيأتي عن إبراهيم وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾[1].

﴿.. قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

٢ ـ أسلوب الترغيب وذلك في قوله: ﴿.. يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[2].

٣ ـ ضرب الأمثال وذلك أسلوب من أساليب الدعوة يصور المعقولات في طابع المحسوسات حتى تصير كأنها محسوسة، وذلك في قوله (مثل الذين كفروا بربهم أعملهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف..) وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[3].

٤ ـ أسلوب التهديد، وذلك في قوله تعالى: ﴿.. قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾[4].

٥ ـ لفت الأنظار إلى نعم الله جل وعلا وأنه هو المنعم بها.

(١ و٢) جزء من آية (١٠) من سورة إبراهيم.
(٣) آيات (٢٤ ـ ٢٦) من سورة إبراهيم.
(٤) سورة إبراهيم الآية ٣٠.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ... ﴾[1].

٦ ـ في الآيات الكريمة أساليب الخبر وأساليب الطلب.

ففيها أولاً ﴿ **أفي الله شك** ﴾ وذلك من أساليب الطلب لأن الاستفهام نوع من أنواع الطلب وفيها الأمر الصريح، والخبر كقوله: ﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا**..﴾ وقوله: ﴿.. **فأتونا بسلطان مبين**﴾ وفيها النهي الصريح وذلك في قوله: ﴿.. **فلا تلوموني**..﴾ إلى غير ذلك من أساليب الدعوة الكثيرة التي اشتملت عليها هذه الآيات الكريمة إ.هـ.

---

(١) آية (٣٢ ـ ٣٣) وجزء من آية ٣٤ من سورة إبراهيم.

البـابُ الرَّابـع

الباب الرابع

دعوة إبراهيم عليه السلام، وفيه عدة مباحث

يشتمل هذا الباب على ما يلي : -

١ ـ التعريف بإبراهيم وتفسير الآية الكريمة التي ذكر فيها إبراهيم .

٢ ـ تدرج إبراهيم عليه السلام في دعوته .

٣ ـ مناظرته للنمروذ وقوته في المحاجة.

٤ ـ ابتلاآته عليه السلام أثناء الدعوة .

٥ ـ هجرته عليه السلام لنجاح دعوته .

٦ ـ إيراد بعض الشبه التي وجهت حول إبراهيم الخليل ورد ذلك إن شاء الله .

٧ ـ الدعوة في الآية الكريمة وتفسير بقية السورة .

١ - التعريف بإبراهيم

من هو إبراهيم؟

هو إبراهيم بن تـارخ[١] بن ناحـور، بن ساروغ بن راعـو بن فالـغ، بن عابر بن شالح، بن أرفخشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام، وقد تقدم نسب نوح[٢].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾[٣].

تفسير الآية:

لما ذكر الله شأن الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وجعلوا لـه أنداداً عبـدوهم

---

(١) هكـذا يقول أهـل الكتاب وأهـل التاريخ أن اسم أبي إبراهيم تـارخ أو تارح والـذي أقول: إن إبراهيم بن آرزكما أخبرنا الله جل وعلا بذلك في قـوله: (وإذ قـال إبراهيم لأبيه آزر..) فالله صرح بأن آزر أبو إبراهيم ولا داعي للقول بغير ذلك تبعاً لما عند اهل الكتاب لما ثبت لدينا من كتابنا من تحـريفهم وتبديلهم وعـدم الثقة فيمـا عندهم لا سيمـا إذا خالف القـرآن الكريم، أمـا المؤرخون فإنهم تبع لأهل الكتاب في ذلك ومعلوم أن التاريخ ينقـل الثابت وغيـر الثابت وعليـه فإن إبراهيم ابن آزر.

(٢) انـظر البدايـة والنهـاية لابـن كثيـر جـ ١ ص ١٣٩ المصـدر السـابـق مـع أن بعض الأسمـاء يخالف الأسماء الموجودة في التوراة ولكن العدد متفق وبعض الأسماء متفق أيضاً.

(٣) آية (٣٥) من سورة إبراهيم.

معه، والمراد قريش كما تقدم ومن تبعهم من العرب الذين اتخذوا آلهة دون الله، وكان من نعم الله عليهم أن أسكنهم حرمه الشريف، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم عليه السلام لأنه أبو العرب من ذرية إسماعيل، وذكر جل وعلا تباعد نبيه إبراهيم من عبادة الأصنام وسؤاله ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها لأنها صارت سبباً في اضلال كثير من الناس. والمراد بالبلد مكة حرسها الله.

سأل إبراهيم ربه أن يجعل هذا البلد ذا أمن، أو آمناً أهله، فدعا أولاً بما يعين على طاعة الله تعالى، وهو كون محل العبادة آمناً لا يخاف فيه عابد الله بحيث يتمكن من العبادة، ثم دعا ثانياً بأن يبعده ربه ويبعد بنيه من عبادة الأصنام.

قال العلماء والمراد ببنيه أولاده من صلبه وقد أجاب الله دعاءه فجعل الحرم آمناً يلجأ إليه الخائف ولم يعبد احد من أبنائه لصلبه الأصنام[1].

والمعنى ثبتنا يا رب وأدمنا على اجتناب عبادتها، وللمفسرين أقوال كثيرة في شأن عبادة أبناء إسماعيل للأصنام، فبعضهم يحمل الصنم على انه التمثال ويقول: إن العرب إنما كانوا يعبدون الحجارة ويدورون كما يدورون بالبيت فليراجع ذلك من شاء.

وقال أبو السعود: الفرق بين قوله هنا: ﴿هٰذا الْبَلَدَ﴾ وبين قوله في البقرة ﴿بَلَداً آمِناً﴾ أن المسؤول هناك البلدية والأمن معاً، وهنا الأمن فقط حيث جعل هو المفعول الثاني للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الأول[2].

قال القرطبي: وكان بنوه ثمانية فما عبد أحد منهم صنماً فانظره.

---

(١) انظر البحر المحيط لأبي حيان جـ ٥ ص ٤٣٠ المصدر السابق.

(٢) انظر تفسير أبي السعود جـ ٣ ص ١٣٠ المصدر السابق.

٢ - تدرج إبراهيم في دعوته وتلطفه فيها

إن إبراهيم عليه وعلى رسل الله أفضل الصلاة والتسليم رسم للدعاة منهجاً يسيرون عليه في دعوتهم لأنه القدوة الحسنة في هذا الشأن كما أخبرنا الله بذلك في كتابه بقوله: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾[١].

تدرجه وتلطفه في الدعوة:

قال تعالى مبيناً تدرج إبراهيم في دعوته وتلطفه بمن يدعوهم واستمالته لهم: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾[٢].

---

(١) جزء من آية (٤) من سورة الممتحنة . (٢) الآيات من (٤١ - ٤٥) من سورة مريم .

بينت لنا هذه الآيات الكريمة منهج إبراهيم وأسلوبه في دعوته. وذلك أنه لما بدأ يدعو إلى توحيد الله وعبادته وحده كما هو منهج من سبقه ومن تأخر عنه من إخوانه من الرسل كما تقدم ذلك بما يغني عن اعادته.

لما بدأ ذلك بدأ يتدرج في دعوته فدعا أباه لأنه أقرب الناس إليه، ثم بعد ذلك شرع يدعو قومه كما سيأتي ذلك إن شاء الله، فقد سلك عليه السلام أحسن منهج وأقوم سبيل في دعوته لأبيه إذ دعاه بأدب وحسن خلق لئلا يكابر ويعاند ولكنه سبق في علم الله أنه من المخذولين فإبراهيم عليه السلام سأل أباه بأسلوب الاستفهام. لم تعبد هذا المعبود الذي لا يسمع دعاءك وثناءك عليه ولا يبصر خشوعك بين يديه ولا يدفع عنك ضراً لحقك، لأن العاقل ينتبه من خلال هذا الكلام ويعلم أن الإنسان الذي يفهم ويعقل ويبصر ويعلم من أين أتاه النفع والضر، ومن يدفع عنه الضر ومن يكشف عنه النفع أفضل من الجماد الذي لا يعلم شيئاً من ذلك، والمفروض أن المفضول لا يعبده الفاضل، كما بين له برفق ولين دون أن يصفه بالجهل وان كان جاهلاً، ودون أن يصف نفسه بكمال العلم وان كان في الدرجة العليا منه وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾[1]

فأخبره أن الله أعطاه من العلم ما لم يعطه دون أن يعرفه حقيقة ما هو عليه من الجهل وما عليه ابراهيم من العلم، كما أخبره أنه ان اطاعه اهتدى إلى طريق مستقيم موصل للنجاة، ثم نهاه عن طاعة الشيطان لأنه هو الذي زين له عبادة الأصنام، واتباعه له بمنزلة عبادته وإلا فإن أبا إبراهيم لم يعبد الشيطان مباشرة، ثم علل نهيه له عن عبادة الشيطان بأن الشيطان عاص لله جل وعلا،

---

(١) آية (٤٣) من سورة مريم.

والمطيع للعاصي عاص ثم حذره سوء عاقبة عبادة الشيطان وأنها وخيمة لأنها تؤول الى موالاة الشيطان أي المقارنة معه في اللعن والخلد في النار، وقد طلب إبراهيم عليه السلام من أبيه أن يبين له العلة الباعثة له على عبادة هؤلاء المعبودين مع أنهم لا نفع فيهم ولا يستطيعون أن يدفعوا ضراً عن أنفسهم ولا عن من عبدهم، ثم بعد ذلك حذره عاقبة ذلك الفعل القبيح، كل هذا بأسلوب حسن لين مميل مستعطف داع إلى قبول الدعوة واتباع الحق[1].

وقد رسم إبراهيم الطريق السوي للدعاة وعلمهم كيف يدعون وبيّن لهم منهج الدعوة الصحيح وأنه لا بد أن يكون بحكمة وموعظة حسنة ومجادلة بالتي هي أحسن، فالواجب على الدعاة أن يتأسوا به في دعوتهم قال تعالى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[2]

أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من يزهد فيها وينأى بنفسه عنها، وقال بعضهم لا يرغب عن ملته إلاَّ من جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها، وقال بعضهم، فعل بها من السفه ما صار به سفيهاً.

نوع آخر من التدرج:

إن إبراهيم عليه السلام كما دعا أباه أولاً إلى الإيمان بالله واتباع إبراهيم ولم يؤثر ذلك في أبيه بدأ يدعو قومه إلى الإيمان فأمرهم بعبادة الله وحده وبتقوى الله وحذرهم معصيته وأخبرهم أن ذلك خير لهم من عبادتهم الأصنام، وما هم عليه من الكفر بالله وبرسوله، والاتيان بصيغة التفضيل مع أن ما هم عليه من الكفر لا خير فيه البتة: باعتبار زعمهم الباطل أنه فيه الخير فأخبرهم إنهم إن كانوا يميزون بين الخير والشر، أو يعلمون شيئاً من الأشياء بوجه من

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ملخصاً منه جـ ٣ ص ٢٨٣ المصدر السابق.

(٢) جزء من آية (١٣٠) من سورة البقرة.

الوجوه فليعلموا أن عبادة الله وتقواه خير مما هم عليه، ثم أخبرهم أنما يعبدونه من دون الله أوثان صنعوها بأيديهم وعبدوها وهي كذب لا أصل لعبادتها لأنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك رزقاً لعابديها وأمرهم أن يطلبوا الرزق من الله عز وجلّ وأن يشكروا له نعمه وأخبرهم أنهم راجعون إليه بعد الموت ومجازيهم على أعمالهم وعلى رأسها اشراكهم معه غيره في العبادة من لا يستحق أن يعبد فإن المستحق للعبادة هو الذي يحيي ويميت ويرزق وترجع إليه الخلائق يوم الحشر وبعد هذا كله أخبرهم أنهم إن كذبوه فليس ذلك ببدع فقد كذبت الأمم من قبلهم رسلهم وليس ذلك بضائر له ولا لرسل الله من قبله فإنهم جميعاً أدوا ما عليهم إذ ليس عليهم الا التبليغ البين أي الواضح وليست الهداية بأيديهم، وقد عرض القرآن الكريم لنا هذا المنهج في سورة العنكبوت حيث يقول: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾[1]

ومعنى وتخلقون افكاً أي تخلقون هذه الأصنام لأنها من صنع أيديكم، وقيل معناه تكذبون كذباً حيث تسمون هذه الأصنام آلهة وأنها شفعاء عند الله لكم[2] وقال بعض العلماء ان المراد بقوله ﴿وان تكذوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ قال: إن الخطاب فيها لهذه الأمة وأنهم إذا

---

(١) من آية (١٦ ـ ١٨) من سورة العنكبوت.

(٢) انظر تفسير الطبري جـ ٢٠ ص ١٣٧ المصدر السابق.

كذبوا محمداً ﷺ فإن أمم الرسل من قبلهم كذبت رسلها وما ضر ذلك الرسل فقد أدوا مهمتهم وبلغوا رسالة ربهم. ولم يذكر ابن جرير غير هذا القول والعلم عند الله تعالى.

ثم ذكر القرآن لنا نوعاً آخر من منهج إبراهيم عليه السلام في دعوته وهو أنه لما دعا أباه أولاً وثنى بدعوة قومه قرن بين دعوة أبيه وقومه.

فقد بين لنا القرآن الكريم أنه سأل أباه وقومه معاً ماذا يعبدون؟ ولما أخبروه أنهم يعبدون الأصنام وأنهم يظلون عاكفين لها سألهم أيضاً هل هي تسمعهم حين يدعونها؟ وهل هي تنفعهم أو تضرهم أو يعبدونها عبادة عمياء دون تفكير في حالها؟ وانما قصد بهذا كله تنبيههم ولفت أنظارهم إلى أن ما يعبدونه لا يستحق نوعاً من العبادة ولكنه صاغ لهم ذلك في أسلوب بديع خال من القساوة والتنفير موجب للاصغاء والتفكير، فقد سألهم عن هذه الأصنام هل تسمع الدعاء، أي هل يسمعون دعاءكم، أو ينفعونكم بسبب عبادتكم، أو يضرونكم إذا تركتم عبادتهم، فلم يترك لهم طريقاً إلا أتاهم منها ليبين لهم بطلان ما هم عليه دون أن يجرح من شعورهم وقد أقام عليهم الحجة من حيث لا يشعرون. يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يتلو قصة إبراهيم في دعوته لأبيه وقومه وبيانه لهم فيها أن الأصنام لا تنفع عابدها، ولا تضر من ترك عبادتها ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

---

(١) الآيات من (٦٩ ـ ٧٤) من سورة الشعراء.

وهذا الكلام هو الذي تقدم أنه قاله لأبيه وَحْدَهُ لما دعاه حيث قال له:

﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾(١)

الا أنه غاير بين الخطابين والمعنى واحد .

ماذا كان الجواب من أبي إبراهيم وقومه؟

كان الجواب من هؤلاء عبدة الأصنام أن اعترفوا بأنها لا تنفعهم إن عبدوها ولا تضرهم إن تركوا عبادتها فقد قالوا ضمناً (لا) ما يسمعوننا إذا دعوناهم ولا ينفعوننا ولا يضروننا، دل على هذا الجواب قولهم: ﴿ .. بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾(٢)

فاعترفوا بأنهم إنما يفعلون فعل آبائهم الأقدمين فقط دون أن يفكروا في عاقبة ذلك الفعل ونتيجته الحاضرة .

وقد بين لنا القرآن الكريم أيضاً دعوته لأبيه وقومه بأسلوب لطيف لين جذاب مميل وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾(٣).

فإبراهيم عليه السلام قال لأبيه وقومه معاً ماذا تعبدون؟ أي أي شيء تعبدونه؟ أئفكاً آلهة دون الله تريدون أي أتريدون آلهة دون الله من أجل إفككم، ويجوز أن يكون قوله: (إفكاً) مفعولاً به لتريدون، ثم فسر بقوله: آلهة، ويصح أن يكون (إفكاً) حالاً أي أتريدون آلهة دون الله في حال كونكم

---

(١) آية (٤٢) من سورة مريم .

(٢) جزء من آية (٧٤) من سورة الشعراء .

(٣) الآيات من (٨٣ ـ ٨٧) من سورة الصافات .

أفكين اي مفترين على الله في ذلك[1] ثم قال لهم عليه السلام: فما ظنكم برب العالمين ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم على ما فعلتم من اشراك غيره معه في العبادة التي لا يستحقها الا هو وحده. وقيل المعنى: فما ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رباً للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة وأشركتم معه أخس مخلوقاته التي خلقها.

ومن تدرجه في دعوته: ما قصه القرآن الكريم في سورة الأنعام من اظهاره لقومه ربوبية الكواكب كي يتمكن من ابطالها ويقنع قومه عن طريق التدرج قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[2].

اختلف المفسرون في هذا المقام فبعضهم قال: إنه مقام نظر، وبعضهم قال: مقام مناظرة، وبعضهم قال: ان هذا صدر من إبراهيم قبل البلوغ، وقال بعضهم: انه قال ذلك حين خرج من السرب الذي وضعته فيه أمه عندما ولدته خوفاً عليه من النمرود، وقال بعضهم إنه قال هذا الكلام بعد البلوغ وأنه لما

---

(١) انظر تفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٢٧٣ المصدر السابق.

(٢) الآيات من (٧٥ ـ ٧٩) من سورة الأنعام.

تبين له عدم صلاحية الكواكب للربوبية تبرأ منها .

ومال إلى هذا القول ابن جرير الطبري واستدل له بقوله تعالى :

﴿ .. لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[1] .

وقد أصاب ابن كثير وأجاد وأفاد حيث جزم بأن هذا مقام مناظرة لا مقام نظر وإن قصد إبراهيم أن يبين خطأ هؤلاء في عبادتهم الهياكل التي هي الكواكب السيارة على سبيل التدرج حيث يثبت لهم أن هذا لا يصلح للألوهية لأفوله أي ذهابه، وأن هذا المعبود الآخر كذلك لا يصلح لأفوله أيضاً وأن الشمس كذلك وان كانت أكبر من النجم ومن القمر، كما بين خطأ أبيه وقومه في عبادتهم الأصنام بقوله: ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[2] .

قال رحمه الله بعد أن ذكر كثيراً من كلام المفسرين راداً عليهم ما قالوا :

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام فبين لهم في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أصغر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه .

وبيّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة وهي : القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل .

---

(١) آية (٧٧) من سورة الأنعام .

(٢) آية (٧٤) من سورة الأنعام .

وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم: الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة فبين أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية لأنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً.. ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما تقدم في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أشد ما تقع عليه الأبصار نوراً وتحقق ذلك بالدليل القاطع قال: ﴿.. يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1]

أي بريء من عبادتها وموالاتها فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[2]

إلى أن قال: وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[3]

وقال في حقه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[4].

وقال في حقه: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا

---

(١) جزء من آية (٧٨) من سورة الأنعام.

(٢) آية (٧٩) من سورة الأنعام.

(٣) آية (٥١) من سورة الأنبياء.

(٤) الآيات من (١٢٠ - ١٢٣) من سورة النحل.

﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾[1]

ثم ذكر حديث الصحيحين: « **كل مولود يولد على الفطرة** »[2] . . الحديث وحديث مسلم: « **وإني خلقت عبادي**[3] **حنفاء** » . . الحديث. وذكر قول الله تعالى: ﴿ . . فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ . . ﴾[4] .

وقال فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتاً حنيفاً ولم يك من المشركين ناظراً في هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ ﴾[5] الآيات[6] .

ومما يؤيد كون إبراهيم عليه السلام أراد بهذا المقام التدرج مع قومه ليلقمهم حجراً ويثبت لهم بطلان ما هم عليه من عبادة الشمس والقمر والنجوم ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره من جملة أجوبة ذكرها عن قول إبراهيم في هذا المقام قال:

---

(١) آية (١٦١) من سورة الأنعام.

(٢) ونصه (ما من مولوداً الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء أحد ألفاظ البخاري أخرجه في كتاب الجنائز في باب إذا أسلم الصبي وفي التفسير في سورة الروم، ومسلم في كتاب القدر في باب معنى كل مولود يولد على الفطرة الخ جـ ٤ ص ٢٠٤٧ المصدر السابق.

(٣) (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها في باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار جـ ٤ ص ٢١٩٧ المصدر السابق.

(٤) جزء من آية (٣٠) من سورة الروم.

(٥) الآيات (٨٠ ـ ٨٣) من سورة الأنعام.

(٦) طالع تفسير ابن كثير كتاب الشعب جـ ٣ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

الوجه السادس أنه ﷺ أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طبائعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوا ولم يلتفتوا إليه فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة وذلك بأن ذكر كلاماً يوهم كونه مساعداً لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه صلوات الله وسلامه عليه كان مطمئناً بالإيمان ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وافساده وان يقبلوا قوله[1] وقد نصر أبو السعود هذا القول الذي ذكره الرازي وابن كثير .

وقال الزمخشري : ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدْعَى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة[2] وقد رد قول ابن جرير الماضي ونصر قول ابن كثير الشيخ محمد الأمين الشنقيطي حيث قال . . لأن الله نفى كون الشرك الماضي عن إبراهيم في قوله : ﴿. . . وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في عدة آيات، ونفى الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما . . إلى أن قال فدل على أنه قال ذلك موقناً مناظراً ومحاجاً لهم كما دل عليه قوله : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ وقوله : ﴿وتلك حجتنا أثبتها إبراهيم على قومه﴾[3] .

---

(١) انظر تفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٤ ص ١١٢ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣١ المصدر السابق .

(٣) أنظر أضواء البيان جـ ٢ ص ١٨٠ المصدر السابق .

٣ ـ مناظرته للنمرود وقوته في المحاجة

إن إبراهيم عليه السلام أعطاه الله القوة في المحاجة والمناظرة كما نوه القرآن الكريم بذلك حيث يقول في شأن محاجته مع النمرود ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[1].

نوه الله جل وعلا بهذه المحاجة فقد ذكرت في آية البقرة هذه، كما ذكرت في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ

(١) الآية (٢٥٨) من سورة البقرة.

أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.. ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾[١].

وقد أخبر جل وعلا أن ما أورده إبراهيم على خصومه من الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى واستحقاقه العبادة وحدة أخبر أن ذلك كله حجة آتاه اياها وأرشده اليها وذلك في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتَنا آيتناها إبراهيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عليمٌ﴾[٢].

أي نرفع درجات من نشاء بالهداية والارشاد إلى الحق وتلقين الحجة، أو بما هو أعم من ذلك ﴿إنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ﴾ في كل ما يصدر عنه ﴿عَليمٌ﴾ بحال عباده يعلم من يستحق الرفع منهم ومن لا يستحق[٣].

وقد رسمت لنا هذه المحاجة طريقاً نسير عليه في دعوتنا وكيف نلقم خصومنا الحجر ذلك لأن إبراهيم عليه السلام لما سأله النمرود عن ربه غروراً منه بما أعطاه الله من الملك وطول العمر حتى ادعى الربوبية أجابه إبراهيم بأن ربه هو الذي يحيي ويميت أي أن ربي هو الذي يحدث هذه الأشياء بعدما كانت معدومة ويعدمها بعد أن كانت موجودة وهذا دليل على وجود الفاعل المختار لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من محدث وهو الرب سبحانه، فأجاب النمرود ملبساً على قومه ومدعياً لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة: ﴿أنا أحْيِي وأُميتُ..﴾ قال غير واحد: إنه أحضر رجلين كانا في السجن استحقا القتل فقتل أحدهما وعفا عن الآخر، ﴿... قالَ إبراهيمُ...﴾ لما

---

(١) أيتي (٨٠ ـ ٨١) وجزء من آية (٨٣) من سورة الأنعام.

(٢) آية (٨٣) من سورة الأنعام.

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني جـ ٢ ص ١٣٥ المصدر السابق.

ادعى النمـرود هذا ﴿... فَـإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِـالشَّمسِ مِنَ المَشْرِقِ فَـأْتِ بِهَا مِنَ المَغْـربِ..﴾ أي إذا كنت تدعي أنـك تحيي وتميت فالـذي يحيي ويميت هـو الذي يتصـرف في الكون، وهـذه الشمس تبدو لنـا كـل يـوم من المشـرق فحولهـا أنت وأتنـا بها من جهـة المغرب،وعنـد ذلك بهت النمرود وقـامت عليه الحجة، وبهذا صار المقام الأول بمنزلة المقدمة للمقـام الثاني، وظهـر بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني[1]

وقد أعرضنا عن كثير من كـلام المفسرين حـول هذه الآيـات واختلافهم في وقت المناظرة وسببها كما أعرضنا عن كلام المنطقيين هنا لأن الذي يهمنـا هو اثبات هذه المناظرة والتأسي بـالداعيـة العظيم إبـراهيم خليل الـرحمن أبي الأنبياء إ. هـ.

---

(١) طالع تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآيات .

٤ ـ ابتلاءاته عليه السلام

إن إبراهيم عليه السلام ابتلاه الله أثناء دعوته بأمور كثيرة اختباراً له وامتحاناً ولكن إبراهيم عليه السلام وفى ذلك كله كما أمر.

وقد ذكر الله جل وعلا في القرآن أنه ابتلى نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام بكلمات وأخبرأنه أتم هذه الكلمات أي وفاهن بأن أكملهن بالقيام بما أوجب عليه فيهن كما صرح بذلك في سورة النجم بقوله :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]

يعني أنه وفى بما عهد اليه بالكلمات: بما أمره فيها من الأوامر فأدى جميع ذلك حسبما أمره الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[2]

واختلف المفسرون كثيراً في هذه الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم وأتمها مع اتفاقهم على أن الابتلاء هوالإختبار، وكان هذا الابتلاء بفرائض فرضها عليه وأوامر أمره بها أوحى إليه بذلك وكلفه العمل به اختباراً له.

---

(١) آية (٣٧) من سورة النجم .

(٢) آية (١٢٤) من سورة البقرة .

وقد روى عن ابن عباس أنها شرائع الإسلام وهي ثلاثون سهماً، وقد روى ابن جرير عنه أثراً في ذلك صححه أحمد محمد شاكر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن شبوبة قال: حدثنا علي بن الحسن قال: حدثنا خارجة بن مصعب عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: الإسلام ثلاثون سهماً وما ابتلى بهذا الدين أحد فأقامه الا إبراهيم قال الله ﴿وإبراهيمُ الَّذي وَفَّى﴾ فكتب الله له براءة من النار[1].

وقد ذكر آثاراً أخر بينت أسهم الإسلام الثلاثين المذكورة فقال: إن عشرة منها في سورة التوبة من قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[2] وعشرة في سورة الأحزاب من قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾. إلى قوله ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[3] وعشرة في سورة ﴿سأل سائل﴾[4] فانظره، وقال بعضهم وهو مروي عن ابن عباس أيضاً إنها خصال عشر من سنن الإسلام: خمس منها في الرأس، وخمس في باقي الجسد ففي الرأس قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفي الجسد خمس وهي: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان،

---

(١) أنظر تفسير الطبري جـ ٣ ص ١٢٤ ط دار المعارف بمصر تحقيق محمود محمد شاكر تخريج أحمد محمد شاكر.

(٢) آية (١١٢) من سورة التوبة.

(٣) آية (٣٥) من سورة الأحزاب.

(٤) سورة المعارج الآيات (٢٢ - ٣٤).

ونتف الأبط وغسل الغائط والبول بالماء، وروى ابن جرير هذا بسند صححه أحمد محمد شاكر عن ابن عباس أيضاً فانظره.

وقال بعضهم إنها مناسك الحج ، وقال البعض إن بعضاً منها في المناسك وهو أربعة وهي : الطواف، والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار، والافاضة، وستة في الجسد وهي : حلق العانة والختان، ونتف الأبط، وتقليم الاظفار، وقص الشارب، وغسل يوم الجمعة إلى غير ذلك مما ذكروا من الأقوال.

والواجب علينا أن نعتقد أن الله تعالى ابتلى نبيه وخليله إبراهيم بكلمات أوحاهن إليه وأمره بامتثال ما فيها والعمل به، وان إبراهيم عليه السلام امتثل ذلك الأمرووفى بما أمربه سواء أكانت الكلمات جميع ما ذكر العلماء أم بعضه ونقطع بأنه أتم تلك الكلمات ووفاهن كما قال الله عنه ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ وقال: ﴿وإِبْراهيمُ الّذي وَفَّى﴾ إ. هـ.

ابتلاؤه عليه السلام بالأمر بذبح ولده:

إن من جملة الابتلاآت التي ابتلي الله بها نبيه إبراهيم عليه السلام أن أمره بذبح ولده فلذة كبده، وقد نص القرآن الكريم على أن هذا الأمر بالذبح بلاء من الله تعالى له كما سيأتي في الآيات التالية.

وقد ذكر الله جل وعلا هذا الابتلاء العظيم في سورة الصافات في الكلام على قصة إبراهيم وتفنيده لعبادة الأصنام واخباره لقومه بأنها كذب على الله واختلاق وأنها لا تضر ولا تنفع كما قدمنا، وتكسيره لها واقامة الحجة عليهم بأنهم يعبدون ما ينحتونه بأيديهم، وأن الله خلقهم وخلق ما يعملون ، وقد ألقوه في النار ونجاه الله منها كما يأتي.

وبعد أن هاجر من أرضهم وسكن الشام وجال إلى مصر، رزقه الله

الأولاد كما قال الله عنه ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾(١)

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. ﴾(٢)

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ إلى أن قال ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾(٣)

إن ابتلاء الله نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والتسليم بذبح ولده فلذة كبده لمن أعظم الابتلاأت ويكفينا ان الله تعالى صرح بأنه ابتلاء وذلك في قوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾(٤)

---

(١) الأيات من (٩٩ ـ ١١٠) من سورة الصافات .

(٢) جزء من آية (٤٩) من سورة مريم .

(٣) الأيات من (٨٣ ـ ٨٧) ومن آية (١٠١ ـ ١٠٨) من سورة الصافات .

(٤) آية (١٠٦) من سورة الصافات .

أي الاختيار البين الذي يتميز فيه المخلصون عن غيرهم ـ والمحنة البينة التي لا محنة أصعب منها، وإنما شاور إبراهيم ابنه وعرض عليه الأمر حيث قال له: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾[١]

مع العلم أن هذا الأمر محتوم لأن رؤيا الأنبياء حق وإبراهيم ممتثل لا محالة أمر ربه ، فعل ذلك ليعلم ما عند الابن من التسليم فيما نزل من بلاء الله فيثبت قدمه إذا جزع ويأمن عليه ان سلمُ ليوطن نفسه عليه فيهون ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله[٢] وقد جد إبراهيم عليه السلام في تنفيذ هذه المهمة ممتثلاً أمر ربه تعالى وقد انقاد هو وابنه لأمر الله وخرج معه الابن طيبة نفسه بأمر الله لأبيه قائلاً له ﴿يا أبت ٱفْعَلْ مَاتُؤْمَرَ سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابرين﴾[٣]

فأخذه وصرعه على وجهه عازماً على ذبحه غير متردد في ذلك فمن حرصه على امتثال امر ربه لم تأخذه الشفقة على الولد ولا العاطفة فأمر السكين بقوة مراراً فلم تقطع فعند ذلك ناداه الله يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا بعزمك على الإتيان بما أمرت به وترتيب مقدماته، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٤]

تعليل لتفريج تلك الكربة عنهما باحسانهما وامتثالهما أمر ربهما، ثم أخبر الله أنه فدى هذا الغلام بذبح عظيم، عظيم القدر وعظيم الجثة لأنه فداء نبي ابن نبي ، قيل ان هذا الفداء كبش من الجنة، وعن ابن عباس انه الكبش الذي قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى في الجنة إلى ذلك الوقت وقيل غير ذلك والله تعالى أعلم.

---

(١) جزء من آية (١٠٢) من سورة الصافات .

(٢) انظر تفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٢٧٤ المصدر السابق .

(٣) جزء من آية (١٠٢) من سورة الصافات .

(٤) جزء من آية (١٠٥) من سورة الصافات .

قلت من تأمل السياق في هذه السورة يتبين له أن الذبيح إسماعيل لأن الله قال هنا ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ .... ﴾[1].

فلما انتهت القصة بكاملها وفدى الله الذبيح قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢ ﴾[2]

فكيف يكون هو الذبيح وهو بشر به أبوه بعدما انتهى من مهمة الذبح بكاملها وفدى الله ابنه، وليس هذا موضع بحث الذبيحين.

ابتلاؤه عليه السلام بإلقائه في النار:

ذكر لنا القرآن الكريم في آيات متعددة أن إبراهيم عليه السلام ألقاه قومه الذين كان يدعوهم إلى توحيد الله في النار يريدون بذلك أن يستريحوا منه، وقد صاروا الأسفلين الأخسرين، وذكر لنا القرآن الكريم ان الله جعل تلك النار برداً وسلاماً فلم تصر عليه برداً فقط لئلا يضره بردها بل صارت عليه برداً وصاحبته السلامة من جميع أذيتها.

قال تعالى بعد أن ذكر قصة إبراهيم مع الأصنام وتكسيره لها ورجوع عبدتها إلى أنفسهم واعترافهم بظلمهم، بعد هذا كله قال لهم إبراهيم: ﴿ ... أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ ﴾[3].

فعندما جابههم بهذا الكلام، ارادوا به كيداً فجعلهم الله الأخسرين

---

(1) آية (١٠١) وجزء من آية (١٠٢) من سورة الصافات.

(2) آية (١١٢) من سورة الصافات.

(3) آية (٦٧) وجزء من آية (٦٦) من سورة الأنبياء.

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[1]

وقد ألقوه في النار ظناً منهم أنها تحرقه وأن ذلك يكون نصراً لآلهتهم وقد ذكر المفسرون حكايات كثيرة في ذلك فقد نقل عن ابن إسحاق أنهم جمعوا الحطب شهراً وأوقدوا فيه ناراً عظيمة حتى ان الطائر ليمر في الجو من فوقها فيحترق، ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه فيها، ويقال: إن إبليس صنع لهم المنجنيق ليلقوه فيها لأنها لا يكاد أحد يقربها، وضجت السماوات والأرض ومن فيهن الا الثقلين ، وعندما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خزان الماء فقالوا يا إبراهيم ان أردت أخمدنا النار بالماء فقال: لا حاجة لي اليكم، وأتاه ملك الريح فقال له لو شئت طيرت النار فقال لا ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري[2] حسبي الله ونعم الوكيل، وحكى أن جبريل عرض له عند القائه في النار فقال له يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا فقال جبريل فاسأل ربك فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي فعند ذلك قال الله تعالى: **﴿يا نارُ كوني بَرْداً وَسَلاماً على إبْراهيم﴾**[3]

ولو لم يقل برداً وسلاماً لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل على إبراهيم لكان بردها باقياً إلى الأبد[4] وقد نجاه الله وأمره بالذهاب إلى الأرض المباركة أرض الشام ووهب له أولاداً وجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير وأوحى اليهم بفعل العبادات وأخبر أنهم مطيعون له. وثبت في صحيح

---

(١) الآية (٦٨) من سورة الأنبياء .

(٢) ان صح هذا الأثر فهو قبل اسلام زوجه سارة ووجود ابن أخيه لوط لأن الأنبياء قدمنا أنهم معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها، وعليه ففي الأثر دلالة على عدم الصحة والله أعلم.

(٣) جزء من آية (٦٩) الأنبياء .

(٤) انظر القرطبي جـ ١١ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ ط دار الكتب .

البخاري عن ابن عباس: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، وفيه عن ابن عباس أيضاً قال: كان قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾[1] وقد ذكر الله هذا الابتلاء في سورة العنكبوت أيضاً فقال بعد أن ذكر أن إبراهيم أمر قومه بعبادة الله وحده وأن ذلك خير لهم وذلك في قوله:

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[2].

ولما قال لهم ما قال كان الرد منهم هو ما قصه الله علينا في قوله: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[3]

ثم اتفقوا على تحريقه فأنجاه الله من أذية النار، وفي ذلك الانجاء حيث لم تحرقه آيات عظيمة للمؤمنين، وكذلك ذكر القرآن قصة القاء إبراهيم في النار في سورة الصافات بعد أن ذكر قصته مع الأصنام . . حيث كسرها الا كبيرها وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟

---

(١) صحيح البخاري جـ ٦ ص ٤٨ ـ ٤٩ ط دار احياء التراث العربي .

(٢) آيتي (١٦ ـ ١٧) من سورة العنكبوت .

(٣) آية (٢٤) من سورة العنكبوت .

بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1]

فقد دلت هذه الآيات على أن الله نصر نبيه إبراهيم على أعدائه وأذلهم بين يديه فأرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقّنه الله الحجة التي ألقمتهم حجراً كما قال . .

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[2].

ولما مالوا إلى المكر والبطش أذلهم الله وجعلهم الأسفلين الأخسرين الأذلين إ .هـ .

ابتلاؤه عليه السلام ببناء البيت الحرام:

إن أمر الله لنبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ببناء بيت عظيم ما كان يدري المحل الذي سيبنيه فيه ولا معين له على ذلك البناء بعد ربه الا ذلك الابن الصغير لمن أعظم الابتلاآت وكان بناؤه له بناء شاقاً حيث بناه من الحجارة فقد حكى بعضهم أنه بناه من حجارة خمسة جبال: منها جبل طورسينا والجودي ، وحراء ذكر ذلك أبو السعود في تفسيره والله تعالى أعلم . وقد ذكر الله جل وعلا أمره لنبيه إبراهيم ببناء هذا البيت وذكر مساعدة ابنه له في ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3]

قال بعض العلماء إن إبراهيم هو الذي تولى البناء وكان إسماعيل يناوله الحجارة وقال بعضهم إنهما كانا يبنيانه من طرفين، وقال بعضهم لعل تأخير وإسماعيل المعطوف على إبراهيم وتقديم المفعول به الذي هو القواعد للايذان بأن الأصل في الرفع هو إبراهيم وإسماعيل تبع له .

وعلى كل حال سواء أكان إسماعيل بناه معه أمْ ساعده بمناولة الحجارة

---

(١) آيتي (٩٧ ـ ٩٨) من سورة الصافات .

(٢) جزء من آية (٨٣) من سورة الأنعام .

(٣) آية (١٢٧) من سورة البقرة .

فـإن بناء هـذا البيت في ذلك المكـان الذي لا يـوجـد فيـه من المسلمين غيـر إبراهيم وابنه إسماعيل وأمه ان كانت حيـة وامتثال إبـراهيم أمر ربـه وتنفيذه مـا أمره به مع قلة عدده وعدته، إن هذا ابتلاء من الله عظيم من جملة ما ابتلي به إبراهيم ووفى به كما شهد له الله بذلك في قوله: **﴿وإبراهيم الذي وفى﴾** وقد ذكر الله جل وعلا أنه بين لإبـراهيم مكان البيت الـذي يبنيه فيـه ذلك لأن هـذا البيت العـظيم اندرس محله من زمن طـوفـان نـوح عليـه السـلام، فهـدى الله إبراهيم خليل الرحمن إلى مكانه وبناه على الأسس التي كـان عليها وذلـك في قوله تعالى في سورة الحج ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾[1]

فأعلم الله إبراهيم مكان البيت بريح أرسلها يقال لها الخجـوج كنست ما حـوله فبناه على أسسه القديمه[2].

---

(١) آية (٢٦) وجزء من آية (٢٧) من سورة الحج.

(٢) انظر الكشاف جـ ٣ ص ١٠ المصدر السابق.

٥ - في هجرته عليه السلام لنجاح دعوته

إن هجرة الداعية إلى الله تعالى من بلد لا يتمكن فيه من عبادة الله عز وجل إلى بلد يتمكن فيه من ذلك من أعظم أسباب نجاح دعوته، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء وأعظم الدعاة بعد نبينا محمد ﷺ هو أول من اتخذ هذه الوسيلة لنجاح دعوته فقد هاجر من بلاده وترك أوطانه وتغرب عنها، كل ذلك في سبيل الدعوة إلى الله تعالى فقد خرج من أرض بابل مهاجراً إلى بلاد الشام المباركة هو وابن أخيه لوط وامرأته سارة، ولما هاجر هذه الهجرة رزقه الله أولاداً صالحين وجعل في ذريته النبوة والكتاب فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء فهو على أحد نسله وعقبه مثوبة من الله له على تركه بلاده، وأهله وأقرباءه وهجرته إلى بلد يتمكن فيه من عبادة ربه ودعوة الخلق اليه ، وقد خرج من الشام إلى أرض مصر ثم رجع إلى الشام، ثم خرج إلى مكة المكرمة حيث ترك فيها ابنه إسماعيل وأمه هاجر كما هو مشهور معلوم.

وقد ذكر الله هجرته إلى الشام في كتابه العزيز في مواضع متعددة فقال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ

ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]

وقال تعالى في سورة الأنبياء ﴿**ونجينه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم آيمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلوة وايتاء الزكوة وكانوا لنا عبدين**﴾[2]

وقال تعالى: في سورة الصافات: ﴿**وَقَالَ إِنِّي ذاهبٌ إلى ربيِّ سَيْهدين ربِّ هَبْ لي مِنْ الصَّالِحين بَبَشَّرْناهُ لِغلامٍ حليمٍ**﴾[3]

والأرض التي قصدها إبراهيم هي أرض الشام كما قدمنا وهو قول أبي بن كعب وأبي العالية وقتادة وغيرهم ، وروي العوفي عن ابن عباس أنها أرض مكة مستدلاً بقوله تعالى: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي بمكة مباركاً وهدى للعالمين**﴾[4]

وفي الصحيح أن إبراهيم عليه السلام أتى ذات يوم على جبار ومعه زوجه سارة وكانت من أجمل النساء فأرسل إليها الجبار وعصمها الله منه فكان كلما مد يده لها أخذ دونها فعل ذلك عدة مرات ويقول لها أدعي الله لي ولا أمسك فتركها وأخدمها هاجر أم إسماعيل إذ وهبتها سارة له[5] ويذكر أهل التاريخ وأهل الكتاب أن هذا الجبار ملك مصر في ذلك الزمان، وأهل الكتاب يقولون إنه ذهب إلى مصر بسبب قحط أصاب بلاد الشام وذكروا قصة سارة

---

(١) آية (٢٦ ـ ٢٧) من سورة العنكبوت .

(٢) تقدمت.

(٣) آيات (٩٩ ـ ١٠١) من سورة الصافات .

(٤) أنظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ المصدر السابق

(٥) البخاري في أحاديث الأنبياء واتخذ الله ابراهيم خليلاً ، ومسلم في كتاب الفضائل .

والجبار وقالوا انه رجع إلى بلاد الشام ومعه دواب وأموال وعبيد[1] إ. هـ.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]

هذا من تمام كلام إبراهيم عليه الصلاة والتسليم كما سأل الله أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام أتبع ذلك بذكر السبب الحامل له على ذلك فقال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ أي صرن سبباً في إضلاله بسبب عبادته لها، والمعنى أن الناس ضلوا بعبادتها كما يقال فتنتهم الدنيا أي افتتنوا بها واغتروا بسببها، وقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]

يعني أن من تبعه على الإيمان وما هو عليه من الهدى واخلاص العبادة لله وحده وطرح عبادة الأوثان فإنه منه أي مستن بسنته وعامل بمثل عمله، يقول ﴿ومن عصاني﴾ أي ومن خالف أمري فلم يقبل دعوتي وأشرك بك فإنك غفور لذنوب المذنبين رحيم بهم تعفو عمن تشاء منهم بفضلك وتجازي من تشاء بعد لك[4] قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[5]

هذا دعاء من إبراهيم خليل الرحمن لربه عندما أسكن ولده إسماعيل وأمه هاجر في مكة المكرمة وكانت مكة بلداً لا يثمر ولا يزرع فدعا الله تعالى أن

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٥٠ المصدر السابق.

(٢) آية (٣٦) من سورة ابراهيم.

(٣) آية (٣٦) من سورة ابراهيم.

(٤) طالع ابن جرير عند تفسير الآية جـ ١٣ ص ١٥١ المصدر السابق.

(٥) آية (٣٧) من سورة ابراهيم.

يرزق أهله من ثمرات البلاد الأخرى واختلف في وقت هذا الدعاء فذكر بعض المفسرين أنه دعا بهذا الدعاء عندما وضع ولده إسماعيل وأمه عند مكان زمزم ورجع ولما رجع تبعته هاجر فقالت إلى أي شيء تكلنا؟ إلى طعام تكلنا إلى شراب تكلنا فجعل لا يرد عليها شيئاً فقالت لله أمرك بهذا؟ قال نعم قالت إذاً لا يضيعنا فرجعت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادي فقال: **﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم**(١) **يشكرون﴾** وهذا قول ابن جرير ومن وافقه، وقال ابن كثير إن هذا الدعاء وقع بعد ما بنى إبراهيم البيت واستدل لذلك بقوله: عند بيتك المحرم والبيت أوان مجيء هاجر وابنها غير موجود ومال إلى هذا القول أبو حيان أيضاً، وأجاب ابن جرير عن ذلك بأجوبة فليراجعها من شاء، وعلى كل حال فابراهيم دعا بهذا الدعاء لذريته لما علم أن هذا الوادي وادٍ غير ذي زرع ، وكونه غير ذي زرع يستلزم انه غير ذي ماء إذ لا يمكن ان يوجد زرع الا حيث يوجد ماء فنفى ما يتسبب عن الماء وهو الزرع لانتفاء سببه وهو الماء ذكر ذلك ابن عطية(٢) وقوله ليقيموا الصلاة دعاء منه لذريته بأن يقيموا الصلاة ، وخص الصلاة دون سائر العبادات لأنها أفضلها أو لأنها سبب لكل خير، وقيل ان اللام في قوله ليقيموا الصلوة متعلق بقوله أسكنت، والنداء معترض بينهما فيكون المعنى انه لا يخلو هذا البيت المعظم من العبادة(٣) وقال مجاهد لو قال أفئدة الناس تهوى اليهم لا زدحمت عليه فارس والروم، قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأنبياء .

(٢) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٣١ المصدر السابق .

(٣) البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٥٣ المصدر السابق

وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾[1]

لما ترك إبراهيم إسماعيل وأمه هاجر وولى عنهما قال: ﴿رَبَّنا إِنَّك تَعْلَمُ ما نُخفي وَما نُعْلِنُ﴾ يعني أن الله يعلم ما يخفيه من الوجد بإسماعيل وأمه وما يعلنه من ذلك ، وقيل ان المعنى: ليس يخفي عليك شيء من أحوالنا بما في ذلك وجدنا بإسماعيل وأمه، وقوله : ﴿وَما يَخْفي عَلى اللّهِ مِنْ شَيْءٍ في الأَرْضِ وَلاَ في السَّمَاءِ﴾ قيل من قول إبراهيم وقيل من قول الله لما قال إبراهيم ﴿ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾[2].

إن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أن يهب له أولاداً صالحين وذلك في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالِحين﴾[3]

عندما كبر سنه وكبر سن زوجه سارة وذلك أنه روى عن ابن عباس أنه ولد إسماعيل وعمره تسع وتسعون سنة وولد إسحاق وعمره مائة واثنتا عشرة سنة، وعن سعيد بن جبير إنه بشر بإسحاق وعمره مائة وعشر سنوات أو سبع عشرة سنة واستجاب الله دعاءه فحمده على ذلك فقال الحمدلله الذي وهب لي على الكبر أي مع الكبر فعلى هنا بمعنى مع وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبة الولد في ذلك الوقت أعظم لأنه وقت يأس من الولادة، والظفر بالحاجة بعد اليأس من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر ولأن الولادة في تلك السِّنّ العالية كانت آية لابراهيم[4] قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ

---

(١) آية (٣٨) من سورة ابراهيم .

(٢) آية (٣٩) من سورة ابراهيم .

(٣) آية (١٠٠) من سورة الصافات .

(٤) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٨١ البحر المحيط المصدر السابق .

﴿ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]

بعدما حمد الله إبراهيم على ما وهبه من نعمة الولد بعد اليأس منه دعا الله أن يجعله مؤدياً ما ألزمه من فريضة الصلاة التي افترضها عليه، وسأله أيضاً أن يجعل من ذريته من يقيم الصلاة محافظاً عليها مقيماً لحدودها ، كما سأله أيضاً أن يتقبل دعاءه أي عبادته، قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾[2]

وهذا دعاء من إبراهيم أيضاً خاص وعام فقد سأل الله غفران الذنوب له ولوالديه وهذا قبل أن يتبرأ من أبيه بعد ما علم أنه عدو لله كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾[3] ثم دعا لعامة المؤمنين بالله المصدقين من تبعني على الدين الذي أنا عليه فأطاعك في أمرك ونهيك ، يوم يقوم الحساب، يعني يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذكر الحساب عن ذكر الناس لأنه مفهوم منه[4]

---

(١) آية (٤٠) من سورة ابراهيم .

(٢) آية (٤١) من سورة ابراهيم .

(٣) آية (١١٤) من سورة التوبة .

(٤) طالع تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٥٦ المصدر السابق .

٦ ـ بعض الشبه التي أوردت حول إبراهيم وردها

إن إبراهيم نبي الله وخليله عليه الصلاة والسلام أثيرت حوله شبه من أعداء الدين الاسلامي، بل أثيرت حوله من بعض علماء المسلمين، وسأنقل لك بعضاً من ذلك وأرده إن شاء الله تعالى.

الشبهة الأولى:

ورد في دائرة المعارف التي أصدرها بالانجليزية والفرنسية والألمانية المستشرق (**فنسنك**) وجماعة من الأوروبين ما نصه:

كان شيرنجر جـ ٢ ص ٢٧٦ وما بعدها أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم كما في القرآن مرت بأطوار قبل ان تصبح في نهاية الأمر مؤسسة للكعبة وجاء (**سنوك هرجرونييه**) ص ٢٠ وما بعدها بعد ذلك بزمن فتوسع في بسط هذه الدعوى فقال: أن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي: الذاريات آية (٢٤) وما بعدها[١] والحجر آية (٥١) وما بعدها[٢].

والصافات آية (٨١) وما بعدها [٣] الأنعام آية (٧٤) وما بعدها[٤].

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿ هل أتيك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ﴾.

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿ ونبئهم عن ضيف ابراهيم ﴾.

(٣) يريد قوله: ﴿ وإن من شيعته لابراهيم ﴾.

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿ وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً الهة اني أريك وقومك في ضلل مبين ﴾ ...

هود آية (٧٢) وما بعدها[١] مريم آية (٤٢) وما بعدها[٢] الأنبياء آية (٥٢) وما بعدها[٣] العنكبوت آية (١٥) وما بعدها[٤] هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل ولم تذكر لاسماعيل صلة به، وإلى جانب هذا يشار إلى أن الله لم يرسل من قبل إلى العرب نذيراً: السجدة آية(٢)[٥] سبأ آية (٤٣)[٦] يس آية (٥)[٧] ولم يذكر قط أن إبراهيم هو واضع البيت ولا أنه أول المسلمين. أما السور المدينة فالأمر فيها على غير ذلك فابراهيم يدعى حنيفاً مسلماً وهو واضع ملة إبراهيم رفع مع إسماعيل قواعد بيتها المحرم - الكعبة - البقرة (١١٨) وما بعدها[٨] آل عمران آية (٦٠)، وآية (٨٤) إلى آخر كلامه[٩].

---

(١) يشير الى قوله تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلما قال سلم فما لبث أن جاء بجعل حنيذ﴾... وقد غلط في الرقم فالآية رقم (٦٩) لا رقم (٧٢) كما قال.

(٢) يعني قوله تعالى:
﴿واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾.. وقد غلط أيضاً فالآية رقم (٤١) لا كما قال.

(٣) يريد قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾...

(٤) يريد قوله:
﴿وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون﴾...

(٥) يريد قوله:
﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾ والآية رقم (٣) لا رقم (٢) كما قال.

(٦) يريد قوله:
﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير﴾ رقم (٤٤).

(٧) يريد قوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾.

(٨) يريد قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم﴾.. آية (١٢٧) لا كما قال.

(٩) يريد قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ رقم (٦٥) لا كما قال. وقوله: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط...﴾.

وسر هذا الاختلاف أن محمداً كان قد اعتمد على اليهودية في مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء فلم يكن له بد من أن يلتمس غيرهم ناصراً، هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب إبراهيم، وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم، تلك اليهودية التي كانت ممهدة للإسلام.

ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح إبراهيم أيضاً المشيد لبيت هذه المدينة المقدس اهـ[1].

قلت: أورد هذه القصة بعض المعاصرين مثل عبد الله بن علي محمد أبو سيف في رسالته التي أخذ بها الماجستير في شأن إبراهيم عليه السلام الموجودة بمكتبة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية، أوردها على أنها طعن في إبراهيم وشبهة حوله

وفي رأيي أن الهدف الرئيسي منها هو الطعن في رسالة محمد ﷺ كما أنها تفيد الطعن في رسالة اسماعيل عليه السلام إلى العرب.

وإن كان فيها نوع من الطعن في إبراهيم الخليل فإنه إضافي بالنسبة إلى ما فيها من الطعن في القرآن ورسالة نبينا ﷺ ومن خلال الرد عليها يتبين ذلك للناظر المتأمل.

الرد على الشبهة المذكورة:

إن قول (سنوك هرجرونييه) إن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي: الذاريات آية كذا الخ كلامه يريد بهذا الكلام التعريض برسالة محمد ﷺ وأن القرآن لم يكن من عند الله بل من اختراع الرسول ﷺ يأتي منه في مكة بما

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية: القرن العشرين جـ ١ ص ٢٧ ـ ٢٨.

تدعو إليه السياسة، ويأتي منه بالمدينة بما تحتاج إليه سياسته في تلك المرحلة أيضاً.

وقوله: ولم تذكر لاسماعيل صلة به أي بابراهيم فإن هذا كذب وافتراء فإن سورة إبراهيم مكية بلا خلاف، وفيها التصريح برابطة اسماعيل بأبيه ابراهيم عليهما السلام حيث جاء فيها قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾(١).

فكيف يقول قائل بعد هذا: أن القرآن المكي لم تذكر فيه صلة لاسماعيل بابراهيم عليه السلام.

وقوله: وإلى جانب هذا يشار إلى أن الله لم يرسل من قبل إلى العرب نذيراً فيه التعريض أيضاً برسالة إسماعيل، لأن اسماعيل أرسل إلى العرب الذين تربى فيهم وتعرب كما هو معلوم عند كل أحد.

أما آية السجدة وسبأ ويس فليس فيها دليل على عدم ارسال رسول للعرب، وإنما دلت الآيات على أن آباء المخاطبين الأقربين لم يرسل إليهم رسول، ولا يمنع ذلك ارسال اسماعيل عليه السلام إلى العرب في زمنه،

وأما قوله: وأما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك فإبراهيم يدعى حنيفاً مسلماً وهو واضع ملة إبراهيم الخ كلامه فمفهومه أن السور المكية لم يدع فيها إبراهيم بالحنيفية، وذلك كذب وافتراء، ففي سورة الأنعام وهي مكية بالإجماع.

قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾(٢).

---

(١) آية (٣٩) من سورة ابراهيم.

(٢) آية (٧٩) من سورة الأنعام.

وفيها قوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) ﴾[١].

وفي سورة النحل وهي مكية أيضاً: التصريح بحنيفية إبراهيم وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾[٢].

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾[٣]

وهل يسوغ العاقل أن يقول بعد هذه الآيات أن إبراهيم لم يدع في الوحي المكي بالحنيفية ؟ لن يقول ذلك الا مكابر معاند معاد لدين الإسلام يحاول الطعن في كتاب الله .

وأما قوله: وسر هذا الأختلاف إلى آخر كلامه المفتري فإن التاريخ يشهد بأن نبينا ﷺ لم يعتمد يوماً على اليهود، بل إن القرآن المكي أظهر معايب اليهود وقرأ ذلك رسول الله ﷺ جهاراً ولم يجعل منهم أنصاراً البتة .

ففي سورة الأنعام التصريح ببغي اليهود والإشادة بما حرم الله عليهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾[٤].

---

(١) آية (٦١) من سورة الأنعام .

(٢) آية (١٢٠) من سورة النحل .

(٣) آية (١٢٢) من سورة النحل .

(٤) آية (١٤٦) من سورة الأنعام .

وفي سورة النحل وهي مكية كما تقدم التصريح بظلم اليهود لأنفسهم وذلك في قوله : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾[1] .

وأمثال هذا في القرآن المكي كثيرة جداً .

وأما قوله بيهودية إبراهيم فإن ذلك كذب وافتراء، وليس هذا الكذب بجديد، بل تناقله الأبناء عن الآباء، وذلك لأن الله صرح في كتابه العزيز أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وذلك في قوله : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[3] فاليهودية انما نشأت بعد إبراهيم بمدة طويلة .

وقوله : ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول الخ ففيه التعريض أيضاً بالقرآن وأنه من عند محمد ﷺ يتكلم به حسب رغباته، وقد قدمنا أن القرآن من عند الله وأن الرسول لا يستطيع أن يغير فيه ولا ينقص منه حرفاً ولا يزيد فيه حرفاً بما أغنى عن اعادة ذلك هنا .

وقد تبين من خلال الرد على هذه الشبهة أنها تتركز على الطعن في رسالة نبينا محمد ﷺ وفي رسالة اسماعيل إلى العرب والله تعالى أعلم اهـ .

---

(١) آية ١١٨) من سورة النحل .

(٢) آية (٦٧) من سورة آل عمران .

(٣) آية (٦٥) من سورة آل عمران .

الشبهة الثانية :

إن إبراهيم عليه السلام أثيرت حوله شبهة أثارها بعض علماء المسلمين وغيرهم .

قالوا : إن ابراهيم عليه السلام خالطه الشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى آخذين ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[1] .

وممن انتصر لهذا القول من علماء المسلمين كبير المفسرين الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى ٣١٠هـ فقد ذكر أسباباً عديدة لسؤال إبراهيم ربه كيف يحيي الموتى واختار منها السبب الذي يوهم التهمة المذكورة فقال :

قيل : إن سبب ذلك أنه رأى دابة قد تقسمتها السباع والطير فسأل ربه أن يريه كيفية إحيائه إياها . . . . ليرى ذلك عياناً فيزداد يقيناً برؤيته ذلك عياناً إلى علمه به خبراً فأراه الله ذلك .

وُقيل : إن سبب ذلك المحاجة التي وقعت مع النمرود فسأل ابراهيم ذلك فقال الله له أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي من غير شك في الله ولا في قدرته ولكنه أحب أن يعلم ذلك وتاق إليه قلبه فقال ليطمئن قلبي .

وقيل : إن سبب السؤال أنه لما علم بأن الله اصطفاه خليلاً سأل ذلك ليكون علامة له على ذلك ليطمئن قلبه، ثم قال :

وقال آخرون قال ذلك لربه لأنه شك في قدرة الله على احياء الموتى .

---

(١) جزء من اية (٢٦٠) من سورة البقرة .

ثم أيد هذا القول واستدل له . بحديث الصحيحين « **نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . . .** »[1].

فإنه قال ما نصه: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال وهو قوله: « **نحن أحق بالشك من ابراهيم . .** » الحديث وأن تكون مساءلته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه كالذي ذكرنا عن ابن زيد آنفاً من أن إبراهيم لما رأى الحوت الذي بعضه في البر وبعضه في البحر قد تعاوره دواب البر والبحر وطير الهواء، ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليعاين ذلك عياناً فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي ألقي فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك فقال له ربه: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ﴾ يقول: أولم تصدق يا إبراهيم بأني على ذلك قادر ؟ قال بلى يا رب لكن سألتك أن تريني ذلك ليطمئن قلبي فلا يقدر الشيطان أن يلقي في قلبي مثل الذي فعل عند رؤيتي هذا الحوت، انتهى محل الغرض من كلامه[2] .

الرد على الشبهة :

لقد رد علماء الإسلام هذه الشبهة وفندوها من أصلها ونصوا على فساد كلام ابن جرير هذا وصرحوا برده .

وقال بعضهم إن هذا القول لا يقوله إلا جاهل بل لا يصدر من مسلم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في سورة البقرة باب واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحي الموتى ، ومسلم في كتاب الايمان في باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة .

(٢) انظر تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٤٩ ـ ٥٠ المصدر السابق .

كما سترى إن شاء الله. وممن رد هذه الشبهة: القاضي أبو محمد عبد الحق المعروف بابن عطية فقد ردها في تفسيره عند هذه الآية فقال: وترجم الطبري في تفسيره فقال: وقال آخرون سأل ذلك ربه لأنه شك في قدرة الله تعالى وذكر تحت الترجمة... وذكر حديث أبي هريرة « **نحن أحق بالشك من إبراهيم** » ثم رجع الطبري هذا القول... إلى أن قال:

وما ترجم به الطبري عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة مسؤول وأما قول عطاء دخل قلب ابراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فمن حيث المعاينة على ما تقدم، وأما قول النبي ﷺ: « **نحن أحق بالشك من إبراهيم** » فمعناه أنه لو كان شاكاً لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم.

والذي فيه عن النبي ﷺ أنه قال ذلك محض الإيمان إنما هو في الخواطر التي لا تثبت، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام إلى أن قال... وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً، وذلك أن الاستفهام (بكيف) إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول نحو: قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ومتى قلت كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله.. وكيف في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الأحياء، والاحياء معلوم متقرر(١).

وقال القرطبي: ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث، وقد أخبر تعالى أن

---

(١) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحق ابن عطية ملخصاً مع حذف وتصرف يسير جـ٢ ص ٣٠١ ـ ٣٠٣ ط وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية المملكة المغربية.

أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ... ﴾[1]

وقال اللعين ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2].

وإذا لم يكن له عليهم سلطان فكيف يشككهم، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين فقوله له أرني كيف طلب مشاهدة الكيفية... وليست الألف في قوله ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ ألف استفهام وإنما هي ألف ايجاب وتقرير كما قال جرير: (ألستم خير من ركب المطايا) الخ كلامه الطويل[3] وقد رد الفخر الرازي في تفسيره هذه الشبهة من غير تعرض لذكر ابن جرير، قال بعد أن ذكر أحد عشر قولاً في سبب سؤال إبراهيم هذا لربه.... الثاني عشر ما قاله قوم من الجهال وهو أن إبراهيم ﷺ كان شاكاً في معرفة البدء وفي معرفة المعاد أما شكه في معرفة البدء فقوله: هذا ربي، وقوله: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، وأما شكه في المعاد ففي هذه الآية، وهذا القول سخيف بل كفر، وذلك لأن الجاهل بقدرة الله تعالى على احياء الموتى كافر فمن نسب النبي المعصوم إلى ذلك فقد كفر النبي المعصوم فكان هذا بالكفر أولى، ثم قال: ويدل على فساد ذلك وجوه: أحدها قوله تعالى: أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ولو كان شاكاً لم يصح ذلك،... ومنها أن الشك في قدرة الله تعالى يوجب الشك في النبوة

---

(١) جز من آية (٤٢) من سورة الحجر.

(٢) آية (٨٣) من سورة ص.

(٣) القرطبي ملخصاً مع حذف بعض الكلام للاختصار جـ ٣ ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

فكيف يعرف نبوة نفسه[١] .

ونص الحديث الذي أشار له ابن عطية هكذا : (نحن أحق بالشك من ابراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي)[٢] وسوف نلم ببعض كلام العلماء في شرحهم لهذا الحديث ان شاء الله ليتبين من خلال ذلك رد هذه الشبهة: قال الحافظ ابن حجر عند شرح هذا الحديث. . . ثم اختلفوا في معنى قوله ﷺ : نحن أحق بالشك من إبراهيم فقال بعضهم نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية، ذلك من إبراهيم، وقيل معناه إذا لم نشك نحن فابراهيم أولى أن لا يشك أي لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنهلم يشك وإنما قال ذلك تواضعاً منه أو من قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم وهو كقوله في حديث أنس عند مسلم: أن رجلاً قال للنبي ﷺ يا خير البرية قال: ذاك ابراهيم[٣]، وقيل: إن سبب هذا الحديث أن الآية لما نزلت قال بعض الناس شك إبراهيم ولم يشك نبينا فبلغه ذلك فقال نحن أحق بالشك من إبراهيم وأراد ما جرت به العادة في المخاطبة لمن أراد أن يدفع عن آخر شيئاً قال: مهما أردت أن تقول لفلان شيئاً فقله لي ومقصوده لا تقل ذلك، وقيل: أراد بقوله أمته الذين يجوز عليهم الشك واخراجه هو منه بدلالة العصمة، وقيل معناه: هذا الذي ترون أنه شك أنا أولى به لأنه ليس بشك انما هو طلب البيان، وحكى بعض علماء العربية أن

(١) تفسير الفخر الراوي جـ ٢ ص ٤٩٢ عند تفسير آية البقرة هذه .

(٢) البخاري في كتاب التفسير في سورة البقرة في باب واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى . ومسلم في كتاب الايمان في باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة .

(٣) مسلم في كتاب الفضائل .

أفضل ربما جاءت لنفي المعنى عن الشيئين نحو قوله تعالى: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ أي لا خير في الفريقين ونحو قول القائل: الشيطان خير من فلان أي لا خير فيهما، وعلى هذا فمعنى قوله ﷺ نحن أحق بالشك من إبراهيم لا شك عندنا جميعاً اهـ[1].

وقال الألوسي في روح المعاني: عند هذه الآية: ويعجبني ما حرره بعض المحققين في هذا المقام وبسطه في الذب عن الخليل عليه السلام من الكلام وهو أنّ السؤال لم يكن عن شك في أمر ديني والعياذ بالله ولكنه سؤال عن كيفية الاحياء ليحيط علماً بها، وكيفية الاحياء لا يشترط في الإيمان الاحاطة بصورتها، فالخليل عليه السلام طلب علم مالا يتوقف الإيمان على علمه ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا أن يقول القائل كيف يحكم زيد في الناس فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته ولو كان سائلاً عن ثبوت ذلك لقال أيحكم زيد في الناس؟ ولما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فتنسب إلى إبراهيم وحاشاه شكاً من هذه الآية قطع النبي ﷺ دابر هذا الوهم بقوله: على سبيل التواضع: نحن أحق بالشك من إبراهيم أي ونحن لم نشك فلأن لا يشك ابراهيم أحرى[2] هذا وقد وقدمنا في تدرج إبراهيم عليه السلام في دعوته أن قوله: هذا ربي في المواضع الثلاثة المذكورة في سورة الأنعام قدمنا أن ذلك نوع من التدرج في الدعوة ليتمكن من القام خصومه الحجر وبهذا ينتفي عن إبراهيم خليل الرحمن أبي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كل ما أثير حوله من الشبهات وما قيل عنه ويبقى إبراهيم نبي الله وخليله أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين آتاه الله رشده وحجته على خصومه وجعل

---

(١) فتح الباري جـ ٦ ص ٤١٢ ط السلفية.

(٢) روح المعاني جـ ٣ ص ٢٣ ط ادارة الطباعة المنيرية بمصر.

الأنبياء من بعده من ذريته وجعل الكتب السماوية من بعده لا تنزل إلا على نسله وابتلاه ربه فوفى جميع ما أمره به كما شهد له بذلك في قوله: وإبراهيم الذي وفى وفي قوله: وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن إلى غير ذلك من خصال ابراهيم التي لا تنحصر ويكفي أن الله جعله من أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين اهـ .

أما ما أورده طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) وظنه بعض الناس طعناً في إبراهيم واسماعيل فإن ذلك في رأيي أيضاً ليس بطعن في إبراهيم ولا اسماعيل وإنما هو طعن في القرآن والتوراة، ويتبين ذلك من خلال نقل كلامه، قال في كتابه المذكورص ٢٦ .

. . . والأمر لا يقف عند هذا الحد فواضح جداً لكل من له إلمام بالبحث التاريخي ويدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم واسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الأسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى، وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة انما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون شمال البلاد العربية ويبنون فيه المستعمرات، فنحن نعلم أن حروباً عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت إلى شيء من الملاينة والمسالمة ونوع من المخالفة والمهادنة

فليس ببعيد أن يكون هذا الصلح الذي استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام .

ويقول في ص ٢٧ . . . ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن ظهور الاسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين ديانة النصارى وديانة اليهود. فما الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود، وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح فمن المعقول جداً أن تبحث هذه المدنية الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الأساطير .

ثم قال في ص ٢٩ أمر هذه القصة إذاً واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضاً وإذا فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى اهـ[١] .

هذا وقد ذكر محمد أحمد عرفه أن هذا الكلام سرقه طه حسين من كتاب (ذيل مقالة في الإسلام) وهو كتاب لأحد المبشرين الطاعنين في الإسلام[٢] فطه حسين في كلامه هذا أنكر وجود ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وكذب القرآن والتوراة وقال إن ما ورد فيهما لا يكفي في ثبوت القضايا التاريخية كما أنكر وجود اسماعيل بمكة .

---

(١) في الشعر الجاهلي بواسطة نقل كتاب نقض مطاعن في القرآن الكريم بقلم محمد أحمد عرفه تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ص ١٠٤ ـ ١٠٨ .

(٢) الكتاب نفسه ص ١٠٢ .

كل هذا طعن في القرآن وتكذيب له تكذيباً صريحاً ونيل من محمد ﷺ ومن دين الإسلام وليس فيه ما يمس من كرامة إبراهيم في رأيي لأن من أنكر وجود ابراهيم واسماعيل انما كذب الله ورسوله محمداً ﷺ وخالف اجماع المسلمين وأهل الكتاب وعليه فلا يحتاج هذا الكلام عندي إلى دفاع عن نبي الله إبراهيم عليه السلام وإنما نقلته ليتبين لمن اطلع عليه المبدأ الذي عليه طه حسين .

وقد نقل محمد أحمد عرفه كلام صاحب الذيل الذي سرق منه طه حسين في كتابه أي كتاب محمد أحمد عرفة من ص ١٠٢ ـ ١٠٨ خلله بكلام طه حسين وقال: إن كلام صاحب الذيل يبدأ من ص ٣٥٢ وكل هذا الكلام ذكره محمد أحمد عرفه تحت عنوان (طه حسين: يسرق طعونه في القرآن من كتب المبشرين) اهـ فليراجعه من شاء .

٧ ـ الدعوة في الآيـات

١ ـ إن هـذه الآيات أشـارت إلى بعض دعوة ابـراهيم عليه السـلام فقد أبـرزت لنا أن إبراهـيم الخليـل كان يـدعو إلى تـوحيد الله تعـالى كغيـره من الأنبياء ومجانبة الأصنام وذلك في قوله تعالى: ﴿ ... وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾(١)

فطلبه من الله أن يبعده وبنيه من عبادة الأصنام نموذج عظيم من دعـوة إبراهيم لأن الهدف الرئيسي من دعوة الحق هو تـوحيد الله وحـده أي إفراده بـالعبادة وتـرك عبادة ما سواه .

٢ ـ دعا إبراهيم في هذه الآيات إلى اقامة الصلاة لأن الصلاة هي الركن الثاني من أركان الاسلام بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وذلك في قولـه تعالى: ﴿ ... رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ... ﴾(٢) على أن اللام في ليقيموا لام الأمر كما قدمنا .

٣ ـ في الآيات الاقرار بالتوحيـد بعد الـدعوة إليـه واثبات سعـة علم الله تعالى بجميع مخلوقاته في سماواته وأرضيه، وذلك في قوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ

---

(١) جزء من آية (٣٨) من سورة ابراهيم .

(٢) جزء من آية (٣٧) من سورة ابراهيم .

تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾[1] .

٤ ـ في الآيات هدف سام من أهداف الدعوة دعا إليه إبراهيم وهو شكر نعم الله تعالى على ما يسديه من النعم على عباده وذلك في قوله كما حكى الله عنه لما رزقه الذرية : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾[2] .

٥ ـ دعا ابراهيم في هذه الآيات ربه أن يديمه على طاعة الله ومن أعظمها اقامة الصلاة وذلك في قوله : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ ﴾[3] .

٦ ـ دعا إبراهيم ربه في هذه الآيات دعاء خاصاً له ولوالديه ثم دعا لعامة المؤمنين بغفران الذنوب يوم يقومون للحساب بين يدي الله تعالى .

والحق أن المتأمل في سيرة إبراهيم عليه السلام يجد أنه بأعماله وأقواله وتحركاته وسكناته وفي حله وترحاله لم يكن الا دعوة إلى الله تعالى فجميع حياة ابراهيم دعوة إلى الله وكل حالاته تنطق بذلك، فقد دعا عليه السلام إلى توحيد الله والإيمان باليوم الآخر، كما دعا إلى الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة الحميدة .

وقد قام إبراهيم بهذه الدعوة سالكاً شتى المسالك ومنتهى سائر المناهج كي يصل صوت الحق إلى كافة الأسماع ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة .

---

(١) آية (٢٨) من سورة ابراهيم .

(٢) آية (٣٩) من سورة ابراهيم .

(٣) جزء من آية (٤٠) من سورة ابراهيم .

وكانت دعوته ﷺ تظهر في أسلوبين رئيسيين : -

الأول : الأسلوب النظري القائم على الاخبار بأن الله تعالى موجود، وهو خالق هذه الكائنات كلها أرضها وسمائها وبحارها وأشجارها . .

والثاني : الأسلوب العملي التجريبي ، فلم يقتصر إبراهيم في دعوته على الأسلوب النظري فقط بل دعا إلى الله بلسانه وبدنه وضحى بنفسه وولده، ووطنه وانقاد لأمر الله وفوض الأمر له واتكل عليه عندما أراد عدوه المكر به إلى غير ذلك ويظهر لنا كل ذلك فيما يلي :

١ ـ عندما ألقي في النار لم يجزع ولم يخف ولم ينس ربه في ذلك الوقت الحرج بل اعتمد عليه حق الاعتماد حيث قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) وإخراجه من النار دون أن تمسه دليل قاطع على أن الله الذي يدعو إليه ابراهيم موجود وقادر ومتصرف في الحلق وحده فهذا العمل ناطق بوجود الله تعالى فلا شك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سوى هذه العملية لتكون دليلاً قاطعاً على صحة دعوة خليله ابراهيم عليه السلام .

٣ ـ وإذا كانت عملية الالقاء هذه دعوة عملية إلى الإيمان بالله تعالى فإن عملية تكسير الأصنام دعوة ذات شقين :

الأول بيان بطلان عبادة هذه الأصنام وأنها لا تنفع من عبدها، ولا تضر من لحقها بسوء، وأنها لا قيمة لها البتة .

والشق الثاني يترتب عن الأول : وهو أنه ما دامت الأصنام لا تنفع ولا تضر فالله وحده هو الذي ينفع ويضر فإذاً هو الذي يستحق العبادة وحده .

٣ ـ إن ابراهيم دعا إلى وجود الله بطريق المحاجة وهي طريق الناحيتين: العملية والقولية حيث يستدل على وجود الله بأنه هو الذي يأتي بالشمس من المشرق ويفحم النمرود بعجزه عن الاتيان بها من جهة المغرب حتى بهت كما

استدل على حدوث الكواكب بالأفول فبين بذلك أن الله لا يزول ولا يتغير .

٤ ـ دعا إبراهيم عليه السلام إلى الإيمان بالبعث ليشاهد كيفية إحياء الموتى ليجمع بين علم اليقين وعين اليقين .

٥ ـ دعا إلى الله عملياً بامتثاله أمر ربه بذبح ولده العزيز عليه حيث لم يولد له ولد إلا بعد أن كبر ويئس من الولد فلما رزق الولد وبلغ معه السعي أمر بذبحه ابتلاء فبادر متمثلاً أمر ربه سبحانه وتعالى صابراً ثابت الجأش فلا شك أن هذه العملية التي وصفها الله بأنها ابتلاء لا شك أنها عملية تطبيقية للدعوة إلى الله عملياً .

٦ ـ إن خروج إبراهيم عليه السلام من وطنه مسقط رأسه وحيداً ليس معه إلا زوجه وابن أخيه لوط وذهابه إلى الشام وغير ذلك من البلاد فراراً بدينه من بلد لا يمكنه فيه أن يعبد ربه بل لا يأمن فيه على نفسه الموت إلى بلد يتمكن فيه من عبادة ربه ، إن هذا الخروج لعمل ناطق بالإخلاص لله في الدعوة إليه .

٧ ـ إن امتثال أمر إبراهيم لربه ببنائه البيت الحرام ذلك الرجل الوحيد الذي لا مساعد له على هذا الأمر الشاق إلا ذلك الابن الصغير فقدومه على هذا الأمر وتنفيذه له عملياً لأمر عظيم دل على أن ابراهيم عليه السلام لم يترك مجالاً للدعوة نظرياً ولا عملياً إلا قام به .

٨ ـ إن إبراهيم عليه السلام ابتلاه الله بكلمات أوامر ونواهي على ما قدمنا فوفاهن كما أمره الله حيث شهد له بذلك في قوله : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . ﴾[1] .

---

(١) جزء من آية (١٢٤) من سورة البقرة .

وإلى هنا انتهى الكلام على ابراهيم، ورجع السياق إلى محمد ﷺ وأمته فشرعت السورة في أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله وهو الترهيب إذ الترهيب أسلوب عظيم من أساليب الدعوة استعمله الدعاة قديماً وحديثاً كما أن هذا الترهيب مشوب بنوع آخر من أساليب الدعوة وهو تسلية الداعي بعاقبة المكذبين المعرضين عن دعوته، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ لا تظن يا محمد أن الله غافلاً عن عمل هؤلاء القوم الظالمين فإمهالي لهم لا يقتضي إهمالي لهم وتركي لعقوبتهم بل أنا عالم بأعمالهم ومحصيها عليهم ومجازيهم عليها وفي هذا وعيد للظالم وتسلية للمظلوم، إنما يؤخر عقابهم وإنزال العذاب بهم إلى يوم تشخص فيه أبصار الخلائق من شدة الهول وذلك يوم القيامة، قوله تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[2]
بين تعالى حالة خروج هؤلاء الظالمين من قبورهم فأخبر تعالى أنهم يخرجون من قبورهم مهطعين أي مسرعين كما قال تعالى مهطعين إلى الداع.

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾[3]
مقنعي رؤوسهم أي رافعيهم لا يرتد إليهم طرفهم أي لا يرجع إليهم بل

---

(١) آية (٤٢) من سورة ابراهيم.

(٢) آية (٤٣) من سورة ابراهيم.

(٣) آية (٤٢) وجزء من آية (٤٣) من سورة المعارج.

عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان[1] وقوله : وأفئدتهم هواء : الهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام فيوصف به فيقال قلب فلان هواء إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جرأة والمعنى أنهم جوف لا عقول لهم، وقيل: إن المعنى أن أفئدتهم متخرقة لا تعي من الخير شيئاً[2] .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[3] .

إن هذه السورة الكريمة من أولها حتى نهايتها لا تكاد تتجاوز منها آيتين أو ثلاثاً إلاّ وذكر فيها أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله جل وعلا كما يقف على ذلك من تدبرها من أولها، وهنا يكون الأسلوب في الآيات الآتية أسلوب إنذار ، فيأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن ينذر الناس الذين أرسل إليهم داعية إلى الإسلام، أي أنذرهم ما هو نازل بهم يوم يأتيهم عذاب الله يوم القيامة فيقول الذين كفروا بربهم وظلموا أنفسهم ربنا أخرنا إلى أجل قريب أي أخر عنا عذابك وأمهلنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أي نصدقهم فيما يدعوننا إليه من طاعتك واتباع أمرك، ولكنهم يكذبون فيما يقولون لأن الله أخبر بكذبهم فيه بقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟

---

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٢ المصدر السابق .

(٢) انظر تفسير ابن جرير ص ١٥٨ .

(٣) آية (٤٤) من سورة ابراهيم .

﴿يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[1] .

ثم رد الله عليهم مقالتهم هذه بقوله : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونوا أَذقسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَالَكُمْ مِنْ زَوالٍ ﴾ أي أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة وأنتم في دار الدنيا أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ولا معاد ولا حشر ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾[3]

هذا من تمام تقريع الظالمين على ظلمهم بعدما قال الله لهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَالَكُمْ مِنْ زَوالٍ ﴾ أتبع ذلك بقوله : ﴿ وَسَكَنْتُم في مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ يعني أن هؤلاء المخاطبين سكنوا في مساكن من كان قبلهم من الأمم الظالمة كقوم نوح وعاد وثمود وأهل مدين، وعلموا كيفية إهلاك الله لهم بسبب ظلمهم وتكذيبهم لرسل الله وقد ضرب الله لهم الأمثال اي الأشياء[4]وقيل المعنى وضربنا لكم الأمثال أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم[5] قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾[6] .

---

(١) آيتي (٢٧ ـ ٢٨) من سورة الأنعام .

(٢) انظر ابن كثير هنا .

(٣) آية (٤٥) من سورة ابراهيم .

(٤) طالع تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ٢٢٣ المصدر السابق .

(٥) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٣ المصدر السابق .

(٦) آية (٤٦) من سورة ابراهيم .

الضمير في قوله: ﴿ مَكَروا ﴾ راجع للقوم الظالمين المخاطبين في قوله : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾[1].

وقيل إنه عائد إلى قوم الرسول ذكر ذلك أبو حيان فيكون مثل قوله : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ ويؤيده قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾الآية[2].

أي وقد مكر قومك يا محمد وعند الله مكرهم، والمعنى: أنهم مكروا مكرهم العظيم، وعند الله مكرهم أي مكتوب عنده فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون المعنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم من حيث لا يشعرون.

ثم قال على سبيل تحقير مكرهم ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾[3].

أي ما كان مكرهم نتزول منه الجبال، والجبال مثل لآيات الله وشرائعه لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً فلا يغيرها مكر الماكرين[4] فعلى هذا تكون ﴿ إن ﴾ نافية بمعنى (ما) وتكون اللام لام الجحود كقوله تعالى : ﴿ .. وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾[5].

وقد قرأ الكسائي من السبعة: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾[6].

وعليه تكون ﴿ ان ﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين (ان) المخففة من الثقيلة وبين (ان) النافية، وعلى هذه القراءة يكون المعنى: تعظيم شأن مكرهم حتى زالت منه الجبال، أو كادت تزول، ويؤيد هذا المعنى: ما روي عن عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وأبي سلمة بن عبد الرحمن

---

(١) جزء من آية (٤٤) من سورة ابراهيم.

(٢) جزء من آية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٣) جزء من آية (٤٦) من سورة ابراهيم.

(٤) طالع الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٣.

(٥) جزء من آية (١٤٣) من سورة البقرة.

(٦) جزء من آية (٤٦) من سورة إبراهيم.

وأبي إسحاق السبيعي وزيد بن علي أنهم قرأوا : (وإن كـادَ مكرهم) بالدال، والمقصـود أن هؤلاء الكفـرة الـظالمين مكـروا مكـراً وأن الله سيجـازيهم على مكرهم في الآخرة، وقد جوزوا بعض الجزاء في الدنيـا، وقد ذكـر المفسرون والنحـاة كلامـاً كثيراً عنـد هذه الآيـة أعرضنـا عنه لإخـلاله بـالمقصود، قـوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾[1] .

يقول تعالى لنبيـه لا تظن يـا محمد أن الله يخلف الـوعد الـذي وعد بـه رسله من نصرتهم على أعدائهم وعقوبته لمن كذبهم، وقد وعدهم بالنصـر في قوله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[2]
وقوله : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾[3] .
كمـا وعدهم بـاهلاك المكـذبين كما تقـدم في قـولـه : ﴿ **فـأوحى إليهم ربهم لنهلكن الـظالمين، ولسكننكم الأرض من بعـدهم . .** ﴾ ثم أخبـر تعـالى أنـه عـزيز أي غـالب لا يمـاكـر، ذو انتقـام لأوليـائـه من أعـدائـه[4] ومن أسمـائـه المنتقم .

قـوله تعـالى : ﴿ **يوم تبـدل الأرض غيـر الأرض والسمـوات وبـرزوا لله الواحد القهار** ﴾ .

---

(١) آية (٤٧) من سورة ابراهيم .

(٢) آية (٥١) من سورة غافر .

(٣) آية (٢١) من سورة المجادلة .

(٤) فتح القدير للشوكاني جـ ٣ ص ١١٨ .

يـوم تبدل الأرض يصـح أن يكون منصـوباً على البـدلية من قـوله: يـوم يأتيهم العذاب، ويصح أن يكون ظـرفاً لـلانتقام المـذكور قبله، وعلى الأخير اقتصر ابن جرير، واختلف العلماء في هذا التبديل الذي أخبـر الله به لـلأرض والسماء، وذلك لأن التبديل يقـع في الذوات فتقـول: بدلت الـدراهم دنانيـر، وتقول بدلت هذا الثوب بهذا ومنه قوله تعالى: ﴿ ... بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾[1]

كما يقع التبديل في الصفات فتقول: بدلت الحلقة خـاتماً إذا أذبتهـا وسويتهـا خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل ومنه قـوله تعـالى : ﴿ .. فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ .. ﴾[2].

لهذا اختلف في هذا التبديل فقيـل إنـه تبـديل ذوات فتحشـر الناس على أرض غير هذه الأرض التي كانوا عليها بيضاء لم يخطىء عليها أحـد خطيئـة، وهذا القول مروي عن ابن مسعود، ويؤيده حديث الصحيحين «يحشـر الناس يـوم القيـامـة على أرض بيضـاء عفـراء[3] كقـرصـة النقي[4] ليس فيهـا علم لأحد»[5].

وقد أُخبر ﷺ أن الناس إذ ذاك على الصراط كمـا في صحيح مسلم عن عـائشة رضي الله عنهـا قالت: (أنـا أول الناس سـأل رسول الله ﷺ عن هـذه

---

(١) جزء من آية (٥٦) من سورة النساء .

(٢) جزء من آية (٧٠) من سورة الفرقان .

(٣) العفر بياض ليس بالناصع ، أو يضرب الى الحمرة قليلاً .

(٤) بفتح النون وكسر القاف الـدقيق النقي من الغش والنخالـة . فتح البـاري جـ١١ ص ٣٧٥ ط السلفية .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، ومسلم في كتـاب صفات المنـافقين في باب البعث وصفـة الأرض يوم القيامة .

الآية : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

قالت قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال على الصراط)[2] .

وقيل: إن الأرض تبدل بأرض من فضة، والسماوات بسماوات من ذهب، وهذا القول مروي عن علي رضي الله عنه .

وقيل: ان التبديل في الأوصاف فتزال عن الأرض جبالها وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وهذا مروي عن ابن عباس، وتبديل السماء يكون بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها[3] .

وقوله : ﴿ وَبَرَزوا لله الواحِدِ القَهَّارِ ﴾: أي خرج الناس من قبورهم لله الواحد القهار أي الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الجبابرة .

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾[4]

هذا من أوصاف يوم القيامة أخبر الله تعالى أن المجرمين في ذلك اليوم مقرنون في الأصفاد أي مشدودن والأصفاد الأغلال والقيود، قيل يقرن كل كافر مع شيطان في غل كما قال تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾[5] يعني قرناءهم من الشياطين.

---

(١) آية (٤٨) من سورة ابراهيم .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار : باب البعث والنشور.

(٣) طالع الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٤ المصدر السابق .

(٤) آية (٤٩) من سورة ابراهيم .

(٥) جزء من آية (٢٢) من سورة الصافات .

قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ ﴾[1]
هذا من تمام وصف عذاب المجرمين أخبر تعالى أن سرابيلهم أي قمصهم من قطران وهو مادة مشتعلة، وقيل : انه النحاس، وتضرب النار وجوههم فتغشيها[2] كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾[3] . لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه كما أن القلب أعز موضع في باطن البدن ولذلك ذكر في موضع آخر من أنواع عذابهم أن النار تطلع على أفئدتهم فقال : ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ ﴾[4]،

قوله : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١ ﴾[5] .
يعني أنه يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجازي كل نفس مجرمة بما كسبت من الأعمال السيئة لأنه إذا عاقب المجرمين على اجرامهم علم أنه يثيب المطيعين على طاعتهم . والأولى حمل اللفظ على عمومه لأن القرآن ذكر في مواضع كثيرة أن الله يجازي كل نفس مؤمنة كانت أو كافرة بما كسبت كما قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ ﴾[6] ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١ ﴾[7] وقال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ﴾[8] ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾[9] .

وقوله : ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ قيل انه مثل قوله : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ

---

(١) آية (٥٠) من سورة ابراهيم .
(٢) أنظر القرطبي : جـ ٥ ص ٣٦١ ط الشعب .
(٣) جزء من آية (٤٨) من سورة القمر .
(٤) أيتي (٦ / ٧) من سورة الهمزة .
(٥) آية (٣٨) من سورة المدثر .
(٦) جزء من آية (٢١) من سورة الطور .
(٧) آية (١٤) من سورة التكوير .
(٨) آية (٥) من سورة الانفطار .
(٩) آية (٥١) من سورة إبراهيم .

﴿ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾[1] .

ويحتمل أن المعنى أنه في حال محاسبته لعبده سريع الانجاز للحساب لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية لأن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم كما قال تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[2] ولا مانع من إرادة المعنيين معاً لأن حساب الله لعبيده قريب إذ مدة الدنيا كلها قليلة كما أنه سريع الانجاز إذا أراد حساب عباده[3] .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[4] .

إن هذه السورة الكريمة بدأت بما يفيد عموم رسالة نبينا محمد ﷺ وختمت بما يفيد ذلك أيضاً كما أنها بدأت بهدف عظيم من أهداف الدعوة إلى الله تعالى وختمت به أيضاً فقد بدأت بقوله تعالى : ﴿**آلر كتب أنزلته إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور**﴾وهذا يفيد عموم الرسالة كما قدمنا، واخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم هدف عظيم من أهداف الدعوة إلى الله تعالى، وقد ختمت هذه السورة بما يفيد الأمرين معاً فآخر آية منها هي قوله هذابلاغ للناس أي هذا القرآن بلاغ للناس وهذا يفيد العموم كما تقدم أيضاً وفي نفس الآية ولينذروا به وهذا هو الهدف الذي بدأت به السورة هناك لأن اخراج الناس من الظلمات إلى النور كائن بسبب الانذار والانذار هدف سام من أسمى أهداف الدعوة إلى الله تعالى مع أنها ختمت أيضاً بأعظم أهداف الدعوة إلى الله وهو توحيد الله جل وعلا وذلك في قوله وليعلموا أنما هو إله واحد وهو الذي يستحق العبادة وحده دون سواه،

---

(١) آية (١) من سورة الأنبياء .

(٢) جز من آية (٢٨) من سورة لقمان .

(٣) ص ٤٨٢ من الأصل .

(٤) آية (٥٢) من سورة ابراهيم .

وفيها هدف آخر وهو تذكير أهل العقول أي تنبيههم فإنهم أهل الاعتبار والادكار دون الذين لا عقول لهم ولا أفهام فإنهم كالأنعام بل هم أهل سبيلاً، وتذكير أهل العقول والنهي ودعوتهم بالتي هي أحسن واستمالتهم قبل العامة هدف عظيم من أهداف الدعوة لأن أهل العقول والادكار إذا استجابوا للداعي إلى الله وقبلوا دعوته هان على بقية الناس قبول الدعوة، وإذا رفض أهل العقول وأهل الحل والعقد دعوة الداعي كان ذلك سبباً في رفض العامة لها كما هو مشاهد في دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فكان الأشراف من قومهم يعرضون عن دعوتهم ويصدون الناس عنها كما فعل رؤساء قريش وكما فعل الملأ من قوم نوح وعاد وشعيب كما هو معلوم من دعوة الرسل في القرآن الكريم . وإليك ما ذكره كبير المفسرين ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية ليتبيَّن لك منه ما قلنا قال عند هذه الآية ما نصه: يقول تعالى ذكره هذا القرآن بلاغ للناس أبلغ الله به إليهم في الحجة عليهم وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره، ولينذروا به يقول: ولينذروا عقاب الله ويحذروا به نقماته أنزله على نبيه ﷺ : وليعلموا انما هو إله واحد: يقول وليعلموا أنما احتج به عليهم من الحجج فيه إنما هو إله واحد لا آلهة شتى كما يقوله المشركون بالله وأن لا إله إلا هو الذي له ما في السماوات وما في الأرض الذي سخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم وسخر لهم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لهم الأنهار، وليذكر أولوا الألباب يقول وليتذكر فيتعظ بما احتج الله به عليه من حججه التي في هذا القرآن فينزجر عن أن يجعل معه إلهاً غيره ويشرك في عبادته شيئاً سواه أهل الحجي والعقول فإنهم أهل الاعتبار والادكار دون الذين لا عقول لهم ولا أفهام فإنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً[1] وذكر

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٦٩ المصدر السابق .

أبـو حيان عن المبـرد أن قولـه : ﴿ **هذا بـلاغ للناس ولينـذروا به** ﴾ من بـاب عطف الفرد على المفرد أي: هذا بـلاغ وانذار ثم قـال: وهذا تفسيـر معنى لا تفسير اعراب، وقـال بعضهم ان الواو زائـدة والمعنى هذا بـلاغ للناس لينذروا به[1] وقال الزمخشري : إن قوله لينذروا به معطوف على محذوف أي لينصحوا ولينذروا[2].

وقال الفخر الرازي في تفسيره ثم اختلفوا فقيل أن قـوله هـذا إشارة إلى كل القرآن وهذا هو الذي اقتصر عليه ابن جرير كما قدمنا وهـو الأولى عندنـا ـ وقيل اشارة إلى كل هذه السورة، وقيل اشارة إلى المذكور من قوله ولا تحسبن الله إلى قوله سريع الحساب[3] ولنختتم تفسير الآية بما ذكره فيها ابن كثيـر في تفسيره قال: يقول تعالى هذا القرآن بـلاغ للناس كقـوله: ﴿ **لأنـذركم به ومن بلغ** ﴾ أي هـو بـلاغ لجميـع الخلق من إنس وجن كمـا قـال في أول السـورة ﴿ **الـر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾[4].

وبالله تعالى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٤١ المصدر السابق .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٥ المصدر السابق .

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي جـ ١٩ ص ١٤٩ المصدر السابق .

(٤) تفسير ابن كثير عند الآية .

الخـاتِمَـة

الخاتمة

وتشتمل على ما يلي من نتائج البحث: -

١ - لقد أبرزتُ الدعوة إلى الله تعالى في سورة ابراهيم مبيّناً ما فيها من أهداف الدعوة الإسلامية ووسائلها وأساليبها ومناهجها .

فمثلاً في آية(١) وآية (١٠) وآية (١٩) وآية (٥٤) بينت في هذه الآيات وأمثالها الهدف الأساسي للدعوة الإسلامية الذي هو توحيد الله جل وعلا .

وفي آية (١٢) بيّنت أن التوكل على الله هدف سام من أهداف الدعوة إليه .

وفي آية (٣١) بينت أن العمل الصالح هدف أيضاً من أهداف الدعوة إلى الله .

٢ - وأوضحت ما فيها من أساليب الترهيب كما في الآية رقم (٢) والآية رقم (٧) والآية رقم (١٨) والآية رقم (٢٢ ، ٢٩ ، ٣٠) .

٣ - وما فيها من أساليب الترغيب كما في الآية رقم (١٠) والآية رقم (٢٣) .

٤ - وما فيها من أسلوب الحوار وذلك في الآيات من (١٠ - ١٣) .

٥ - وما فيها من أساليب الطلب والخبر .

فالأول كما في الآية رقم (٩ - ١٠) والثاني في الآية رقم (١٣) .

٦ ـ توصلت في هذه الرسالة إلى نقاط مهمة لم أر من تكلم عليها كلاماً شافياً فأردت أن أبحثها حتى أصل فيها إلى نتيجة .

١ ـ منها مسألة دخول الملائكة عليهم السلام في عموم رسالة محمد ﷺ فتوصلت إلى أن العمومات من القرآن والسنة النبوية التي فيها التنصيص على عموم رسالته ﷺ ، تشملهم وأنهم خرجوا من ذلك العموم بمخصص من المخصصات المنفصلة ذلك المخصص هو العقل .

٢ ـ مسألة شمول الدعوة الاسلامية ليأجوج ومأجوج بحثتها من عدة نواح .

أولاً ـ اثبات أنهم من ذرية آدم .

ثانياً ـ هل بلغتهم الدعوة الاسلامية أو لا ؟

ثالثاً ـ هل أرسلت إليهم رسل منهم أولا ؟ وذكرت ما ترجح عندي في ذلك: وهو أنه لا مانع من إرسال رسل إليهم من جنسهم لأن النصوص تدل على ذلك، وأن الراجح عندي أن الدعوة الإسلامية تبلغهم إذا خرجوا زمن عيسى عليه السلام حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ .

٣ ـ مسألة دخول الجن في عموم رسالة محمد ﷺ وأن القرآن بلغهم وأنذروا به .

كما ذكرتُ الجمع بين الأحاديث التي دلت على أن النبي ﷺ ذهب إليهم وقرأ عليهم القرآن كما روي ذلك عن عبد الله بن مسعود وبين الأحاديث التي دلت على أنه ما رأى الجن ولا قرأ عليهم القرآن كما روي ذلك عن عبد الله بن عباس.

وبين الأحاديث التي وردت أيضاً عن عبد الله بن مسعود أنه ﷺ مـ

صحبه أحد من أصحابه ليلة ذهب إلى الجن.

وبين الأحاديث التي دلت على أن عبد الله كان معه تلك الليلة .

كما تعرضتُ لمسألة وجود رسل من الجن إليهم وهل الرسل لم يكونوا إلا من البشر خاصة أو من البشر ومن الجن .

وقد ترجح عندي أنه لا مانع من وجود رسل من الجن إلى جنسهم وبينت دلالة آية الأنعام على ذلك وهي قوله تعالى : ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾[1] .

وذكرتُ الخلاف في مؤمني الجن هل يدخلون الجنة أو يجارون من العذاب فقط، وبينت أن الصحيح دخولهم الجنة .

وقد أوضحت عموم رسالة محمد ﷺ مدعماً ذلك بالأدلة من الكتاب والسنة والاجماع وخصوصية رسالات من سبقه من الأنبياء .

وبيّنت أن رسالات السماء وحدة متكاملة يصدق اللاحق من الرسل السابق ويبشر السابق باللاحق .

كما ألقيتُ نظرة على مصير الأمم المكذبة لرسل الله دعاة الحق. وقد ذكرت نبذة من عقيدة المسلمين في الله والرسل والملائكة واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

---

(١) آية (١٣٠) من سورة الأنعام .

ونبذة من عقبدة أهل الكتابين في الإله والرسل والملائكة وبيُنت بطلان ذلك واستحالته في حق الله والرسل والملائكة .

كما أثبتُ زيف مصادر دين أهل الكتاب وتناقضها وعدم استنادها إلى سند يثبت صحتها .

كما تعرضتُ لرد بعض الشبهة التي أوردها أعداء الإسلام حول عموم رسالة محمد ﷺ وأبطلتها .

بينتُ أساليب نوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى عليهم الصلاة والتسليم ومناهجهم في دعوتهم . .

كما تعرضتُ للخلاف الذي ذكره المفسرون في المراد بقوم موسى في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَد أَرْسلنا موسى بآياتِنا أَنْ أَخْرِج قَومكَ منَ الظُّلمات إلى النُّورِ ﴾[1] هل قومه بنو اسرائيل أو فرعون وقومه وبينتُ أنه لا مانع من إطلاق قوم موسى على الجميع وذكرت لذلك أدلة من القرآن .

كما بينت دعوة ابراهيم الخليل عليه السلام في هذه السورة الكريمة وذكرت منهجه وأسلوبه في دعوته وابتلاآته التي ابتلاه الله بها ووفى كما أخبر بذلك الله جل وعلا في كتابه، وذكرت خلاف العلماء في الكلمات التي ابتلاه الله بها .

وتعرضت لبعض الشبه التي أثيرت حول نبي الله إبراهيم وخليله وأبطلت ما حوله منها كما بينت أن بعض الشبه التي ظنها بعض المعاصرين حول ابراهيم لم تكن طعناً فيه وإنما هي طعن في رسالة نبينا محمد ﷺ وفي القرآن الكريم .

---

(١) جزء من آية (٥) من سورة ابراهيم .

ومن النقاط المهمة التي أبرزتها في هذه الرسالة أنني استخلصت أساليب الدعوة ووسائلها وأهدافها ومناهجها من القرآن الكريم ذلك لأن الدعوة إلى الله في هذا العصر الحديث، وفي كل عصر من العصور زادها القوي وقلبها النابض إنما هو القرآن الكريم والسنة النبوية فأساليبها ومناهجها في كل عصر لا تخرج عما في القرآن الكريم فلا يمكن فيها استخدام أساليب أخرى إلا إذا كانت على ضوء القرآن الكريم ولذلك اخترت استخلاص مناهج الرسل وأساليبهم في دعوتهم من القرآن لأن ذلك موضح فيه .

وإنني أنصح للدعاة الذين يقتفون أثر شخصية أي شخصية على أنها داعية ويحذون حذوها في المناهج والأساليب .

والقرآن حافل بدعوة الرسل لا تكاد تقرأ منه سورة واحدة الا وهي حافلة بدعوة أحد الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين اهـ .

الفهارس

فهرس المصادر

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ السنة النبوية

صحيح البخاري

٣ ـ صحيح مسلم

٤ ـ الجامع الصحيح للإمام الحافظ محمد بن عيسى الترمذي

٥ ـ المستدرك لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري

٦ ـ المسند للإمام أبي عبد الله أحمد ابن حنبل

٧ ـ فتح الباري للحافظ ابن حجر

٨ ـ شرح النووي على مسلم

٩ ـ شعب الايمان للحافظ البيهقي

١٠ ـ شرح الأبي على مسلم

١١ ـ الخصائص الكبرى للسيوطي

١٢ ـ التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للعراقي

١٣ ـ الشفا للقاضي عياض

- فتح المنعم شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم للشيخ محمد حبيب الله ابن مايابا الشنقيطي .

١٥ - جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

١٦ - تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء اسماعيل ابن كثير

١٧ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري

١٨ - تفسير القرآن للإمام النسفي

١٩ - تفسير القرآن للنيسابوري

٢٠ - البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي

٢١ - الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

٢٢ - تفسير القرآن للبيضاوي

٢٣ - فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني

٢٤ - التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

٢٥ - تفسير القرآن لأبي السعود

٢٦ - تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا

٢٧ - أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي

٢٨ - تفسير القرآن للخازن

٢٩ - روح المعاني للألوسي

٣٠ - مباحث في علوم القرآن للشيخ عبد الفتاح القاضي

٣١ - الاتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي

٣٢ ـ إعجاز القرآن للرافعي
٣٣ ـ الفتوحات الإلهية لسليمان الجمل
٣٤ ـ المنتخب في تفسير القرآن اللجنة المصرية
٣٥ ـ حاشية الشهاب على البيضاوي
٣٦ ـ حاشية الصاوي على الجلالين
٣٧ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية .
٣٨ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب القيسي
٣٩ ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي
٤٠ ـ أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي
٤١ ـ نقض مطاعن في القرآن الكريم بقلم محمد أحمد عرفه تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا .
٤٢ ـ الدعوة إلى الإسلام المستشرق سير توماس
٤٣ ـ الدعوة إلى الله : خصائصها، مقوماتها د : أبو المجد السيد نوفل .
٤٤ ـ مع الله للشيخ محمد الغزالي
٤٥ ـ الدعوة إلى الإسلام محمد أبو زهرة
٤٦ ـ الدعوة إلى الإسلام دعوة عالمية محمد الراوي
٤٧ ـ المؤتمر العالمي للدعوة واعداد الدعاة : مبحث اللجنة الأولى أبو طالب شاهين
٤٨ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد
٤٩ ـ رسالة الاسلام السيد عبد الحميد خطيب
٥٠ ـ منهج التشريع الاسلامي وحكمته للشيخ محمد الأمين الشنقيطي

٥١ ـ شرح العقيدة الطحاوية
٥٢ ـ اظهار الحق لرحمةالله بن خليل الرحمن الهندي
٥٣ ـ محاضرة في الأسماء والصفات من سلسلة محاضرات الجامعة الاسلامية للشيخ محمد الأمين الشنقيطي
٥٤ ـ دعوة الرسل محمد أحمد السعدوي
٥٥ ـ الإبانة في أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري
٥٦ ـ الاسلام ظهوره وانتشاره حامد عبد القادر
٥٧ ـ نبي الإسلام عز الدين فراج
٥٨ ـ الدعوة إلى الإسلام د : زكري
٥٩ ـ تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري
٦٠ ـ أنساب الأشراف للبلاذري
٦١ ـ العهد الجديد
٦٢ ـ العهد القديم
٦٣ ـ قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار
٦٤ ـ قصص الأنبياء لابن كثير
٦٥ ـ عيون الأثر لابن سيد الناس
٦٦ ـ السيرة النبوية لابن هشام
٦٧ ـ اللباب في تهذيب الانسان لعز الدين ابن الأثير الجزري
٦٨ ـ البداية والنهاية لابن كثير
٦٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية القرن العشرين
٧٠ ـ حاشية الجلال المحلي على جمع الجوامع
٧١ ـ مذكرة في أصول الفقه للشيخ محمد الأمين الشنقيطي من مطبوعات الجامعة الإسلامية
٧٢ ـ الضياء اللامع شرح جمع الجوامع لابن حلولو القيرواني

٧٣ ـ نشر البنود: شرح مراقي السعود للسيد عبد الله الشنقيطي
٧٤ ـ روضة الناظر لابن قدامة
٧٥ ـ شرح مراقي السعود في أصول الفقه مخطوط للشيخ محمد الأمين الشنقيطي
٧٦ ـ غاية الوصول شرح لب الأصول زكريا الأنصاري
٧٧ ـ شرح تنقيح الفصول على المحلى
٧٨ ـ تاج العروس لابن منظور
٧٩ ـ القاموس المحيط مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي
٨٠ ـ التهذيب للأزهري
٨١ ـ المفردات للراغب
٨٢ ـ محيط المحيط تأليف المعلم بطرس البستاني
٨٣ ـ منهج السالك إلى ألفية ابن مالك للأشموني
٨٤ ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك
٨٥ ـ حاشية الخضري على ابن عقيل
٨٦ ـ الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والاعراب وسائر الفنون لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي
٨٧ ـ مختصر خليل بن اسحاق في الفقه المالكي مختصر.
٨٨ ـ مواهب الجليل على شرح خليل تأليف امام المالكية في عصره أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي المعروف بالحطاب.

****

الفهرس العام